



عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

مظاهر العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض:
قدرون، ومقامات العُشّاق والتّجار، وآخر القرن، وبلاد البحر.

مُعَاذ أَحْمَد عَوْدَةَ أَيُّوب

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1439هـ / 2018م

مظاهر العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض:
قدرون، ومقامات العشاق والتجار، وآخر القرن، وبلاد البحر

إعداد

مُعَاذُ أَحْمَدُ عَوْدَةُ أَيُّوبُ

بكالوريوس لغة عربيّة من جامعة الخليل/ فلسطين

المُشرف: د. بنان صلاح الدين.

قُدِّمَتْ هذه الرِّسالة استكمالاً لِمُتطلّبات درجة الماجستير في برنامج اللغة العربيّة وآدابها
من دائرة اللّغة العربيّة / عمادة الدّراسات العليا - جامعة القدس - فلسطين.

1439هـ / 2018م



جامعة القدس
عمادة الدراسات العليا
اللغة العربية وآدابها

إجازة الرسالة

مظاهر العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض: قدرون، ومقامات العُشّاق والتّجار، وآخر القرن، وبلاد البحر.

اسم الطالب: مُعاذ أحمد عودة أيّوب
الرقم الجامعي: 21310170

المشرف: د. بنان صلاح الدين

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ: 2018/4/30م من لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم وتوقيعهم:

التوقيع:
التوقيع:
التوقيع:

د. بنان صلاح الدين

د. جمال غيطان

أ. د. حسن السلّواي

1. رئيسة اللجنة المناقشة:

2. ممتحناً داخلياً:

3. ممتحناً خارجياً:

القدس - فلسطين

1439 هـ - 2018م

الإهداء

إلى روح أبي الطَّاهرة رحمة الله عليه.. الذي انشغلتُ عنه في آخر أيَّام حياته
بكتابة هذه الرِّسالة، والذي كان يتمنّى أنْ أجلس معه أطول وقتٍ مُمكن.

إقرار

أقرّ أنا مُقدّم الرسالة أنّها قدّمت إلى جامعة القدس لنيل درجة الماجستير، وإنّها نتيجة أبحاثي الخاصّة
بإسْتِثْناء ما تمّت الإشارة إليه حيث ما ورد، وأنّ هذه الرسالة أو أيّ جزءٍ منها لم تُقدّم لنيل أيّة درجة
عُليا لأيّة جامعة أو معهد.

التوقيع:.....

الاسم: مُعَاذ أحمد عودة أيّوب

التاريخ 30 / 4 / 2018م.

شكر وتقدير

أحمدُ الله أولاً وأخيراً الذي أعانني على إنجاز هذه الرسالة، وأتقدّم بالشكر الجزيل والتقدير العميق من الدكتورة بنان صلاح الدين على تفضّلها بالإشراف على هذه الرسالة، وما زوّدتني به من إرشادات وتوجيهات.

وأشكر كذلك الدكتور أحمد رفيق عوض لما قام به من جهدٍ في تزويدي ببعض المصادر والمراجع غير الموجودة في المكتبات.

المُلخَص

يهدفُ هذا البحثُ إلى مُناقشةِ مظاهرِ العودةِ النَّاقِصةِ في رواياتِ أحمدِ رفيقِ عوض، والذي قامَ بتوظيفِ هذهِ المظاهرِ لِتوضيحِ الواقعِ الفِلسطينيِّ المُعاصرِ .

وبدأَ الباحثُ بالتمهيدِ لهذاِ البحثِ بِمناقشةِ مظاهرِ العودةِ النَّاقِصةِ في بعضِ الرّواياتِ الفِلسطينيَّةِ، والتي كانت تُمثِّلُ مرحلةَ ما قبلِ اتِّفَاقِيَّةِ أوْسَلو، وما بعدِ هذهِ الاتِّفَاقِيَّةِ، وهذهِ المظاهرُ قد تشابهتْ في أمورٍ عِدَّةٍ، منها:

المشاعرُ السَّلبِيَّةُ كالوِحدةِ والغُربةِ، وطمسُ أسماءِ المُدنِ الفِلسطينيَّةِ بِشكْلِ كبيرٍ، وهذهِ المظاهرُ المُتشابهةُ بينِ مرحلتَيِ ما قبلِ اتِّفَاقِيَّةِ أوْسَلو، وما بعدِ هذهِ الاتِّفَاقِيَّةِ تعكسُ الحقيقةَ الدَّائمةَ للكيانِ الصَّهْيونيِّ الذي يعملُ على تهويدِ الأماكنِ .

واختلفتْ مظاهرُ العودةِ النَّاقِصةِ في مرحلةِ ما قبلِ اتِّفَاقِيَّةِ أوْسَلو عنْ مرحلةِ ما بعدِ هذهِ الاتِّفَاقِيَّةِ في أمورٍ عِدَّةٍ، منها: صورةُ التَّهجيرِ التي كانتْ في مرحلةِ ما قبلِ اتِّفَاقِيَّةِ أوْسَلو، وهذهِ الصُّورةُ لم تكنِ موجودةً بالشَّكْلِ ذاته في مرحلةِ ما بعدِ هذهِ الاتِّفَاقِيَّةِ، وانتشرتْ بعدِ اتِّفَاقِيَّةِ أوْسَلو مظاهرُ السِّيادةِ الشَّكَّليَّةِ للدَّولةِ المُتخيِّلةِ داخلِ هذاِ الوطنِ السَّليبِ، والتي تُوحيُ إلى السَّيطرةِ الكاملةِ للاحتلالِ؛ وتأكَّدتْ هذهِ الحقيقةُ بعدَ مُشاهدةِ صورٍ عِدَّةٍ للمُؤسَّساتِ الفِلسطينيَّةِ التي لم يَكُنْ لها من السِّيادةِ شيءٌ .

وانتقلَ الباحثُ بعدَ ذلكِ إلى مُناقشةِ مظاهرِ العودةِ النَّاقِصةِ في رواياتِ أحمدِ رفيقِ عوضِ التي مثَّلتْ مرحلةَ ما قبلِ اتِّفَاقِيَّةِ أوْسَلو، وما بعدِ هذهِ الاتِّفَاقِيَّةِ، والتي تشابهتْ في أمورٍ عِدَّةٍ، منها: الاستيطانُ الصَّهْيونيِّ الذي بقي مُلَازماً لهذهِ الدَّولةِ، ولكنَّه زادَ وتضاعفَ بعدِ اتِّفَاقِيَّةِ أوْسَلو، وكذلكِ الفسادُ الأخلاقيُّ الذي انتشرَ في أوساطِ بعضِ الفِلسطينيينِ العائدينِ من عملهم داخلِ الكيانِ الصَّهْيونيِّ .

واختلفت صور العودة الناقصة في مرحلة ما بعد اتفاقية أوسلو عن مرحلة ما قبل هذه الاتفاقية في أمور عدة، منها: تبدل القيم لدى شريحة كبيرة من المجتمع الفلسطيني، والتي أصبحت الهموم الوطنية لا تعنيها في شيء، وأصبح ما يعنيها المصالح الخاصة وجمع المال، والفساد الإداري والمالي. وبناءً على ما سبق من صورٍ سلبيةٍ تحصل للعائد عند عودته نستنتج أنّ الروايات الفلسطينية أجمعت على أنّ العودة إلى الوطن في ظلّ الاحتلال لا ينبغي لها أن تكون؛ فهي تُسبب للعائد الخسارة في كلّ شيء؛ فالعودة الحقيقية تتم بعد التحرير الكامل.

The forms of the incomplete return (of refugees) to the occupied land in some Palestinian novels, and then in Ahmad Rafiq Awad's novels

Prepared by: Moath Amhamd Odeh Ayoub

Supervisor: Dr. Banan Salah AL-Deen

Abstract

The research aims to discuss the forms of the incomplete return (of refugees) to the occupied land in some Palestinian novels, and then in Ahmad Rafiq Awad's novels. Awad used those forms of return in order to clarify the current Palestinian situation.

The researcher started by discussing the forms of the incomplete return (of the Palestinian refugees) in some Palestinian novels, which represent the stages preceding and following the Oslo Accords. Those forms had several things in common, including: negative feelings and behaviours, such as loneliness, pain, helplessness and opportunism, and the excessive renaming of Palestinian cities (in the occupied part of Palestine) into non-Arabic names. The similarity between those forms before and after Oslo Accord reflects the persisting reality of the Zionist entity which works on turning Palestinian sites into Jewish ones.

The forms of incomplete return (of refugees) before the Oslo Accords differed from those after the Accords in several areas. Those areas include the image of forced relocation (of Palestinians), which appeared in the pre-Oslo stage, and especially right after the Nakba in 1948. This image was not represented in the same manner after the Oslo Accords. After the Oslo Accords, the western lifestyle spread all over the forcefully taken home (of the Palestinians), which implies the complete control of the occupier over the land. This reality was confirmed after examining several images of the Palestinian organizations which did not have any kind of sovereignty.

Afterwards, the researcher moved on towards discussing the forms of incomplete return in the novels of Ahmad Tawfiq Awad, which represented the stages before and after the Oslo Accords. Both stages shed several aspects, including the ongoing establishment of Israeli

settlements, which has always accompanied that state, but increased significantly after the Oslo Accords.

The forms of incomplete return (of refugees) after the Oslo Accords differed from those before the Accords in several areas. Those areas include the change of values in a large portion of the Palestinian population, to whom national concerns have become completely irrelevant, and to whom personal gain and accumulating money have become their concerns.

Consequently, we conclude that Palestinian novels agree on that the return to the homeland under occupation should not be; such return causes loss to the returner in all domains; real return occurs after the complete liberation of the

المُقدِّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيّدنا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأمّا بعد:

الاحتلال الصّهيوني مثل أيّ احتلالٍ قام بالسيطرة على فلسطين، وغَيّر من واقعها الدّيمغرافي بإحلال شعبٍ غريب مكان شعبٍ جرى تشريده في جميع أصقاع العالم، وصنع هويّة مُزوّرة لوطنٍ مزعوم يُدعى إسرائيل بناءً على أساطير توراتيّة غير موجودة إلّا في خيال أصحابها، وبنوا أنظمةً غريبة عن الأنظمة التي سادت في هذه البلاد؛ فأصبح كلّ شيءٍ يعمل لصالح هذه الدّولة المزعومة، ولصالح هويّتها المُختلفة.

اخترتُ عنوان رسالتي (مظاهر العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض: قدرون، ومقامات العُشّاق والتّجار، وآخر القرن، وبلاد البحر)؛ وذلك لأنّ دراسة المظاهر السّلبيّة لعودة الفلّسطينيين إلى الوطن المُحتلّ من أولى الدّراسات للشّعب الذي حُرِم من هذا الوطن سنواتٍ طويلة، وأُتيحت لبعضهم بعد ذلك فرصة نادرة في العودة تحت جراب الاحتلال.

والفلّسطينيّون وضعوا صورةً مثاليّة في مُخيّلتهم عن الوطن الذي حُرِموا منه سنواتٍ طويلة، وعندما أُتيح لبعضهم العودة تحت راية الاحتلال وقعوا في حيرةٍ من أمرهم؛ فالمكان الذي شاهدوه عند عودتهم يختلف عن المكان الذي في مُخيّلتهم؛ فالوطن قد تهوّد، والاحتلال يتحكّم في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ داخله، والثّقافة السّائدة هي ثقافة الدّولة المُحتلّة وقيمها، والأشخاص الذين يسكنون في البيوت العربيّة القديمة سواءً في المُدن أو القرى هم الأعراب عن هذا الوطن؛ ولذلك انتاب هؤلاء العائدون مشاعر سلبية لا حصر لها.

ولكي يتمكّن المُتقّف من تحديد المظاهر السّلبيّة للعودة الناقصة لا بدّ له من الرّجوع إلى الرّوايات الفلّسطينيّة، وبخاصّة روايات أحمد رفيق عوض، والتي تُعتبر بمثابة مرآة للواقع الفلّسطيني المُعاصر.

وتُحاول هذه الدّراسة تغذية الأبحاث المُتعلّقة بالروايات الفلسطينيّة عامّةً، وروايات أحمد رفيق عوض خاصّةً، إذ إنّ الدّراسات التي تناولت أعمال الكاتب لم تتطرق - في ما أعلم - بشكلٍ جدّي إلى صور العودة النّاقصة في الروايات التي كتبها قبل اتّفاقيّة أوسلو، وما بعد هذه الاتّفاقيّة.

وكانت العودة النّاقصة واضحة المظاهر في أربع رواياتٍ عند الكاتب، هي: قدرون، ومقامات العُشّاق والتّجار، وآخر القرن، وبلاد البحر.

أمّا الدّراسات التي استعان بها الباحث، وأنارت له الطّريق خلال رحلة بحثه في هذه الدّراسة التي تناولت تلك مظاهر العودة النّاقصة في روايات أحمد رفيق عوض؛ فقد تنوّعت وتباينت؛ فهناك الدّراسات الأكاديميّة، وهناك الدّراسات العامّة، ولا أدعي - والله الحمد - السّبق في دراسة مظاهر العودة النّاقصة في روايات أحمد رفيق عوض.

والدّراسات التي سدّدت خُطى الباحث في دراسة مظاهر العودة النّاقصة في روايات أحمد رفيق عوض:

1/ (عين السّارد) لعلّي الخواجة، وهذا الكتاب عبارة عن دراسة نقدية صادرة عن دار الماجد للنّشر والتّوزيع في رام الله سنة 2000م، وقامت بنقد ثلاث رواياتٍ للكاتب، وهي قدرون، ومقامات العُشّاق والتّجار، وآخر القرن، ولم تتطرق إلى مظاهر العودة النّاقصة في هذه الروايات.

2/ (جوائز الفحم) لعلّي الخواجة، وهو كتاب صادر عن المؤسّسة الفلسطينيّة للإرشاد القومي سنة 2003م، وهذا الكتاب جمع فيه علي الخواجة مقالات نقدية سلّطت الضّوء على روايات الكاتب دون التّطرق إلى مظاهر العودة النّاقصة في هذه الروايات.

3/ (مقاربات نقدية) لعلّي الخواجة، وهو كتاب صادر عن دار الماجد للنّشر والتّوزيع في رام الله سنة 2004م، وهذا الكتاب عبارة عن مقالات وأبحاث لِكُتّابٍ وأكاديميين جمعها وقدم لها علي الخواجة، وقد تناولت نقداً لرواية قدرون، وآخر القرن دون التّطرق إلى مظاهر العودة النّاقصة في هاتين الروايتين.

4/ (الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية: (دراسة في ضوء المناهج النقدية) لسعد عدوان، وهي دراسة قُدمت لنيل درجة الماجستير في الدراسات العليا من الجامعة الإسلامية في غزة سنة 2014م، وقد تناولت هذه الدراسة الشخصية في روايات أحمد رفيق عوض دون الإشارة إلى مظاهر العودة الناقصة في هذه الروايات.

وقد اعتمد الباحث في هذه الدراسة المنهج التكاملي، حيث استخدم في الفصل الأول هذا المنهج كُما اقتضت الضرورة، وفي الفصل الثاني استخدم المنهج المقارن؛ وذلك لكونها مُلائمة للمقارنة بين مظاهر العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض.

وقد جعل الباحث هذه الدراسة في: مُقدمة وفصلين وخاتمة وفهرس للمصادر والمراجع، درس الباحث في الفصل الأول مظاهر العودة الناقصة في أربع روايات لأحمد رفيق عوض؛ فالرواية الأولى قدرون تحدّثت عن العودة الناقصة لبعض الفلسطينيين إلى الأراضي المحتلة عام 1948م للعمل قبل اتفاقية أوسلو، وعن آثارها السلبية، وأمّا الروايات المُتبقية (مقامات العُشّاق والتّجار، وآخر القرن، وبلاد البحر) فتحدّثت عن العودة الناقصة للسلطة الفلسطينية إلى الضّفة الغربيّة وقطاع غزة بعد اتفاقية أوسلو، وعن العودة الناقصة لبعض الفلسطينيين إلى الأراضي المحتلة عام 1948م، وعن آثارها السلبية، ودرس الباحث في الفصل الثاني المقارنة بين مظاهر العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض قبل اتفاقية أوسلو، وما بعدها.

وأخيراً فإنني أسأل الله أن أكون قد وقّفت في مُعالجة هذا الطّرح؛ فإن كان نقصٌ فمن نفسي، والله الأمر من قبل ومن بعد.

الباحث:

مُعَاذ أَحْمَد أَيُّوب

تمهيد:

صور العودة الناقصة إلى الأرض المحتلة في الرواية العربية الفلسطينية:

تمهيد:

صور العودة الناقصة إلى الأرض المحتلة ومظاهرها في الرواية العربية الفلسطينية:

قبل أن أبدأ بتحديد مظاهر العودة الناقصة في عدة روايات لا بدّ أن أتوقّف عند معنى العودة الناقصة لُغةً:

جاء في مادة العودة في مُعجم لسان العرب لابن منظور، هو العودة إلى الوطن أصل الإنسان، أو المكان الذي وُلِدَ فيه.

وعند الرجوع إلى معنى الناقصة لُغةً: من نقص...، وهو الخسران (1).

وبناءً على ما سبق يكون معنى العودة الناقصة: العودة إلى الوطن؛ فتنسبُ له بالخسارة في كلّ شيء في حياته.

وعند الرجوع إلى بعض الروايات الفلسطينية (الوقائع الغريبة في اختفاء أبي سعيد النّحس لإميل حبيبي، عائد إلى حيفا لغسان كنفاني، نهر يستحمّ في البحيرة ليحيى يخلف، رأيت رام الله لمُريد البرغوثي) أجدُ أنّ العودة إلى الوطن في ظلّ الاحتلال تُسبّب للعائد خسارة كبيرةً في صورٍ شتى، ومن هذه الصور:

أولاً: التهجير:

التهجير من أهمّ المعالم الأساسية في حياة الفلسطينيين؛ والتي تُعدّ من أهمّ صور العودة الناقصة في الروايات الفلسطينية.

بعد عودة سعيد إلى داخل الأراضي المحتلة في رواية الوقائع الغريبة، وعمله في صفوف أجهزة أمن الكيان الصهيوني رأى البيوت المهجورة؛ فسكن في أحدها عن طريق أحد قيادات اللجنة العربية

¹- يُنظر: ابنُ منظور، لسان العرب، مادة (عاد) 4/ 309-319، ومادة (نقص) 7/ 99 - 101.

المؤقتة، ولكنّه سُرعان ما طُرد منه عن طريق أحد الجنود المُسرَّحين، ثمّ سكن في بيت آخر من هذه البيوت، وجمع أثاث بيته من البيوت الكثيرة المهجورة، وعندما دخلها وجد أكواب القهوة مصبوبة لم يجد أصحابها وقتاً لِشُرْبها؛ فأخذ ما بقي فيها من أثاث.

قام سعيد بالذهاب لزيارة بيت أبيه الذي سُكن من قبل أسرةٍ يهوديّة؛ وفي أثناءها زار بيت خالته التي بقيت فيه؛ وهناك مرّ من أمامه؛ فوجد غسيلاً منشوراً، ولكنّه امتنع عن طرُق الباب نتيجةً لِجُبْنه⁽¹⁾.

والفلسطينيّون من أهل البلاد الأصليين لم يعودوا أغلبيّة في داخل الكيان الصّهيوني، بل تكوّن مُجتمع جديد له لغات كثيرة؛ منها: العبريّة، والإنجليزيّة، والألمانيّة، وغيرها.

وهذا ناتجٌ عن قدوم المجتمع الجديد من كلّ أنحاء العالم، فاللغة العربيّة لم تعد مُتداولة كثيراً في المُجتمع الجديد.

كان سعيدٌ واقفاً أمام فيلات موظفي حيفا المهجورة في إحدى المرّات، وفي أثناء ذلك كان يمرّ من أمامه بين وقت وآخر عمّال يهود، فأراد معرفة الوقت؛ فسأل نفسه بأيّ لغةٍ يُحدّثهم؛ فلو سألهم بالعربيّة، أوبالإنجليزيّة؛ لأثار شكوكهم؛ فتذكّر بأنّ السّؤال عن الوقت بالعربيّة يكون (ماشاعاه)؛ فسألها لأحدّهم؛ فصاح به (أخت)؛ فتذكّر أنّ معنى هذه الكلمة ثمانية بالألمانيّة؛ فكان قد سمعها من أحد جيرانه الذي تخرّج من ألمانيا⁽²⁾.

وظاهرة التّهجير عرّفها بعض الباحثين بأنّها تفكيك البنية الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة لهذا الشعب⁽³⁾.

والبيوت المهجورة سكنها الأعراب الذين جلبهم الكيان الصّهيوني من كلّ أنحاء البلاد؛ وهذا ما حصل مع سعيد بطل رواية عائد إلى حيفا؛ فهو طُرد من بيته ليسكنه إيفرات كوشن وزوجته ميريام

¹ يُنظر: حبيبي، إميل، الوقائع الغريبة، ص 61 - 63.

² يُنظر: المصدر السابق، ص 63 - 65.

³ يُنظر: أيوب، مُحمّد، الزّمن والسرد، ص 111.

الَّذان قَدِمَا من بولونيا سابقاً (بولندا حالياً)؛ ولذلك اتَّفَقَ مع بعضِ الباحثين الذين رأوا أنَّ الكيان الصهيوني مَنَعَ بِكُلِّ قُوَّةِ عودَةَ اللاجئين إلى أرض الوطن، وفي الوقت ذاته كانت تُفْتَحُ الحدود لعودة اليهود من كُلِّ دول العالم (1).

ومارس سعيد ظاهرة الاسترجاع في عائد إلى حيفا أثناء قيادته للسيارة في شوارع حيفا سنة 1967م؛ فهي التي أرجعت له صورة التهجير في أبشع صورها عند تذكره لخطة الهجوم على حيفا للسيارة في صباح يوم الأربعاء الموافق 21 نيسان عام 1948م أثناء وجوده في قلب المدينة؛ فلم يستطع العودة إلى البيت، وبقي يرتد من شارع إلى شارع حتى خيم عليه المساء، وكانت الناس كأموج السيل التي اندفعت باتجاه واحد باتجاه الميناء؛ فحملت سعيداً حملاً نحو البحر، وكان تفكيره منصباً نحو صفيّة وابنه خلدون.

وكانت مُحصّلة هذا اليوم قيام سعيد وزوجته بمغادرة بيتهما بعد أن تركا فيه ابنيهما خلدون، وبعد أسبوع تقريباً فتح رجل من عصابات الهاجاناة باب منزل سعيد في يوم الخميس الموافق 29 نيسان، وكان معه رجل عجوز اسمه إفرات كوشن وزوجته ميريام، والطفل الفلسطيني خلدون بعد أن قاموا بتسميته دوف، وقام بإسكانهم في هذا المنزل (2).

ثانياً: التفريق بين الأقارب والمحبين:

هذه السياسة مازال الكيان الصهيوني يطبقها ضدّ الفلسطينيين؛ ففي رواية الوقائع الغربية جاءت يعاد الأولى زائرة لسعيد في بيته في حيفا، وقامت بتعريض نفسها للمساءلة والإبعاد من قبل هذا الكيان؛ وذلك لأنها جاءت من الناصرة بدون تصريح رسمي لاثّام سعيد بالنسب في اعتقال والدها؛ فنفي ذلك، وفي أثناء هذه الزيارة كان الجنود يقتحمون البيوت بحثاً عن أمثالها من المتسللين لتبعدهم

¹- يُنظر: الصليبي، حسين محمد حسين، الرواية الفلسطينية وتجلياتها الفنية والموضوعية في الأرض (رسالة ماجستير)، ص 35-36.

²- يُنظر: كنفاني، غسان، عائد إلى حيفا، ص 40 - 42، ص 11 - 14، ص 9، ص 37.

إلى الخارج؛ فاتفق سعيد مع يعاد وأختها بأن المكان الآمن لنوم يعاد هو بيته؛ وذلك لأن بيت أختها في الحليصة في حيفا غير آمن؛ فأفرد لها غرفة خاصة، وتعهّد بصون عرضها؛ فنامت تلك الليلة عند سعيد.

وعند تسلل الفجر طُرق الباب بشدة، ثمّ خلعه الجنود؛ ففتشوا كلّ ركنٍ بالبيت؛ وعندما أرادوا تفتيش غرفة يعاد رفض سعيد فتح هذه الغرفة؛ فانقضوا عليه، ثمّ دحرجوه على الدرج من الطابق الثالث حتى وصل إلى الفناء الخارجي للمنزل، وبعد ذلك سمع سعيد صوت معركةٍ عنيفةٍ بين الجنود ويعاد، ثمّ أخرجوها من البيت، ووضعوها في سيارةٍ ممّثلةٍ بأمثالها من الناس، ونادت بأعلى صوتها: سعيد، سعيد لا يهّمك؛ فإتني عائدة.

والاحتلال الصهيوني فرّق كذلك بين الزوج وزوجته وأولاده؛ فأخت يعاد في حيفا كان لها زوج ترك بيته وأولاده نتيجةً للحرب، وقال لها بأنّه عائد لكتّه لم يعد⁽¹⁾.

ولم يكتف الكيان الصهيوني بتفريق الابن عن والديه؛ بل قام بسرقة طفلٍ برئ، ثمّ طمس هويته، وجعله إسرائيليّاً في رواية عائد إلى حيفا.

انتظر سعيد وزوجته صفيّة ابنتهما خلدون (دوف) في بيتهما القديم للحديث معه بعد أن طلبت منهما ميريام ذلك؛ وذلك لتخبيره بينها، وبين والديه الأصليين؛ فردّت صفيّة بأنّ هذا سيُلبّي نداء اللحم والدّم. استنكر سعيد كلام زوجته، وقال بأنهم علّموه مدة عشرين عاماً كيف يكون، ومن الأفضل ترك المكان؛ فخلدون قد سُرقت⁽²⁾.

وحصل ما توقّعه سعيد عند عودة دوف (خلدون)؛ فكان لباسه لباس العسكري الصهيوني، ونظر نحو والديه كأعداء على الطرف الآخر، واعترف بانتمائه إلى مربّيته اليهودية ميريام وزوجها إيفرات كوشن.

¹- يُنظر: حبيبي، إميل، الوقائع الغربية، ص 74-81.

²- يُنظر: كنفاني، غسان، عائد إلى حيفا، ص 13، ص 51-53.

وأثناء هذا الصّدام بين خلدون(دوف) ووالديه الأصليين يقول دوف بأنّه عَرَفَ أنّ والديه فلسطينيّان قبل ثلاث أو أربع سنّوات؛ فَمُدُّ صِغَرِهِ وهو يتصرّف كاليهود؛ فقد ذهب إلى الكنيس، وإلى المدرسة اليهوديّة، وأكل الكوشير، ودرّس العبريّة. ردّ عليه سعيد عندها بأنّ الإنسان هو قضيّة، وأنّ الذّنب ليس ذنبه وحده؛ فالإنسان هو ما يُحقّق به ساعةً وراء ساعة (1).

ثالثاً: تهويد الأماكن الفلسطينيّة:

فلسطين العربيّة دخلت مرحلة التّهويد بعد الاحتلال الصّهيوني؛ فكثيراً من المُدن الفلسطينيّة وقراها دُمّرت لتحلّ مكانها المُدن الصّهيونيّة.

توقّفت رواية نهر يستحمّ في البحيرة على مُفارقات تهويد المُدن والقُرى؛ فعندما انطلق الزّاوي في رحلته من غزّة إلى القدس فرَدَ الخريطة الفلسطينيّة أمامه، ورأى أنّه لا بدّ من المُرور على المُدن والقُرى الآتية: غزّة - جباليا - بيت حانون - دير سنيد - بربرة - المجدل - جولس - السّوافير - قسطينة - المسميّة...، وفي الطّريق اكتشف أشياء من البديهيّات؛ فمدينة عسقلان أصبَحَتْ أشكلون، والسّوافير أصبَحَتْ شابير، ولكنّ التّهويد لم يطلّ كلّ الأمكنة؛ فهناك أمكنة أصبَحَتْ مهجورة؛ فنخلة جولس واقفة لوحدها على التّلّة، وهناك كثيرٌ من القُرى المهجورة، مثل: المخيزن، ووادي الصّرار، وخربة بيت قار.

والمُدن الصّهيونيّة واضحٌ أنّها قامت على أنقاض قُرى ومُدن عربيّة؛ فعلى سبيل المثال رأى الزّاوي سمخ التي وُلد بها قد طُمِسَتْ من الوجود، وحلّ محلّها مدينة تسميخ المبنّيّة على النّمط الأوروبي (2).

ووصفت رواية رأيّ رام الله المُستوطنات وصفاً دقيقاً، والتي تقوم بتهويد الأرض الفلسطينيّة؛ فبعد أن انطلقت سيّارة الأجرة بمُريد من استراحة أريحا إلى رام الله رأى العلم الصّهيوني؛ فتساءل عن سبب

¹- يُنظر: كنفاني، غسان، عائد إلى حيفا، ص 65-71.

²- يُنظر: يخلف، يحيى، نهر يستحمّ في البحيرة، ص 34-37، ص 45، ص 49-50، ص 59، ص 61، ص 71، ص 75-77.

وجوده في المناطق الفلسطينية؛ فتذكر بأن هذه هي المُستوطنات، وقال في نفسه بأن ما سمعه عنها لا يساوي شيئاً أمام ما رآه بعينه، وهي أبنية مُتدرّجة من الحجر الأبيض، وبعضها عمائر، وبعضها بيوت يغطي سقوفها القرميد.

وقال في نفسه بأنّ الإنسان إذا سمع خطيباً على أحد المنابر يُنطقُ بكلمة تفكيك المُستوطنات؛ فلا بُدَّ أن يضحك الإنسان كما يشتهي؛ فهي الكيان الصّهيوني ذاته، وهي مكان الفلسطينيين الذين حولوه لهم، ثم رأى بعد ذلك مُستوطنة ثانية وثالثة ورابعة وعاشرة، وهكذا.

ومما يُدلّل على تزايد البناء في المُستوطنات أنّ بشيراً البرغوثي قال لمريد قبل بضعة سنواتٍ إنّه من شرفة بيته في دير غسانة كان يرى أضواء المُستوطنات تتزايد سنةً بعد سنةٍ حتّى باتت تُحيطُ بدير غسانة على شكل دائرة⁽¹⁾.

وقد سجّلت رواية عائد إلى حيفا كثيراً من الأسماء العربيّة التي طمسها الاحتلال وهودها؛ فأثناء سير سعيد بسيّارته نزلت على رأسه كثيراً من الأسماء العربيّة في حيفا كَوادي النّسناس، وشارع الملك فيصل، وساحة الحناطير، ومنطقة الحليصة.

وأثناء سير سعيد في حيفا تذكر قيام حرب عام 1948م؛ فسعيد لم يستطع الذهاب بسيّارته إلى البيت؛ فكانت كلّ الطرق مُغلقة؛ فلذلك اختلطت عليهم كثيراً من الأسماء كالحليصة، ووادي رشميا، والذّرج، والمدينة القديمة، وغيرها.

ولم تكفّ الرواية بتسجيل الأسماء العربيّة للأحياء، بل وجدتها قد حفّظت أسماء الشوارع العربيّة؛ فعندما اشتدّ القصف وجد سعيد نفسه في المدينة القديمة، ومنها اندفع نحو جنوب شارع ستانتون، وعرف حينئذٍ أنّه يبعد أقلّ من مئتي متر عن شارع الحلول.

¹- يُنظر: البرغوثي، مريد، رأيت رام الله، ص 36-39.

وثبتت الرواية كذلك الأسماء العربية في مدينة يافا؛ فهذا فارس اللبدة ذهب إلى بيته في يافا في حيّ العجمية الواقع وراء المدرسة الأرثوذكسية، وهذه المدرسة وراء مدرسة الفير التي تُرى أثناء الذهاب إلى الجبلية، وكانت يافا سنة 1967م ما زالت على حالها لم تتغير باستثناء حيّ المنشية⁽¹⁾.

رابعاً: بعض مشاعر الفلسطينيين السلبية وتصرفاتهم السلبية:

دعم الكيان الصهيوني كثيراً من تصرفات الفلسطينيين السلبية؛ ففي رواية الوقائع الغربية اضطر سعيد إلى التملق للكيان الصهيوني ونفاقه؛ وذلك لأنه مُرتبط بها في كثير من تعاملاته اليومية. وأطلق سعيد لسانه بالولاء للكيان الصهيوني في مكانه، أو غير مكانه؛ ولذلك أرسله مع وفد إلى أوروبا لإهداء إخوانه اليهود - كما سماهم سعيد - قُباعات تمبل؛ فأهداهم أيضاً ملابسه. ونقلت هذه الرواية مُبالغة فلسطيني الداخل في رفع أعلام الكيان الصهيوني قبل عيد الاستقلال الإسرائيلي (النكبة الفلسطينية) بأسبوع، وبعده بأسبوع؛ فكانت الناصرة ووادي النسناس في حيفا تتزيّن بالأعلام الصهيونية أكثر مما تتزيّن به تلّ أبيب⁽²⁾.

وعلّل بعض الباحثين ذلك إلى أنه مع مرور الزمن على التواجد الصهيوني في فلسطين؛ فقد نشأ جيلان مُتقابلان جيل يهودي وُلد في فلسطين، وتربّى على أرضها، ويُقابل ذلك جيل فلسطيني نشأ في الداخل المُحتلّ تعايش مع الاحتلال، وأصبح سلس الانقياد⁽³⁾.

ومن المشاعر السلبية الحُزن والأسى؛ فبعد مبيت سعيد ليلة في جامع الجزار مع الأشباح ذهب إلى مركز البوليس في عكا، ثمّ بعد ذلك ركب في إحدى السيّارات العسكرية، وعندما اقترب من حيفا قال له أحد الجنود: أهلاً وسهلاً بك في مدينة إسرائيل، ثمّ فهم فيما بعد أنّ كلمة (مديناه) بالعبرية تعني

¹ - يُنظر: كنفاني، غسان، عائد إلى حيفا، ص 69 - 70، ص 75 - 76.

² - يُنظر: حبيبي، إميل، الوقائع الغربية، ص 125، ص 129 - 130.

³ - يُنظر: أيوب، مُحمّد، الزمن والسرد القصصي، ص 109.

دولة؛ فتضايق بشدة مما ظنّه تغييراً لاسم مدينته، وانقبض صدره انقباضاً شديداً عندما مرّ بالسيّارة العسكرية بوادي الصليب؛ فوجده خالياً من السّكان⁽¹⁾.

والمشاعر السّلبية كانت حاضرةً في رواية عائد إلى حيفا؛ فقد شعر سعيد وزوجته بالمرارة والحُزن عندما دخلا بيتهما الذي سكنته ميريّام للمفارقات التي حصلت أثناء الحُوار الذي دار بين سعيد وزوجته من جهة وميريّام من جهةٍ أُخرى؛ وعندها شعر سعيد بمشاعر اللامبالاة؛ وذلك ردّاً على اعتراض ميريّام على قول صفيّة بأنّ هذا البيت مع أثائه لها ولزوجها.

ومما ضاعف هذه المشاعر السّلبية أنّ ميريّام كانت تذهب، وتجيء في البيت أمام سعيد وصفية؛ وتجرّ حُطواتها، ثمّ صَفَقَت الباب؛ وشعر صاحب البيت الحقيقيين بالمرارة، وإنكار ما رأونه؛ فقالت صفيّة، وهي تنظرُ إلى زوجها: (كأنّها في بيتها ! تتصرّف وكأنّها في بيتها !)⁽²⁾.

وأرجع بعض الباحثين حالة اللامبالاة عند سعيد إلى نوع من أنواع الاغتراب يُدعى اغتراب العجز، وفُقدان السيطرة⁽³⁾.

وكانت مشاعر الغربة موجودة في رواية نهر يستحمّ في البحيرة؛ فلما خرّج الرّاوي مع مجد من الشّاليه المُستأجر إلى الشّارع الرّئيس الذي شقّ البلدة إلى نصفين للقيام بالمشي معاً شاهد معالم قريته المخفية من محطة، وسوق، وغيرها من الأماكن، ولكنّ مجد لم ترَ شيئاً، وعندها أمسك يحيى بيد مجد، وأحسّ بتعاطفٍ نحوها، وهذه المشاعر كانت أحاسيس مُشتركة بالضّياع، ونداء غريبٍ لغريب⁽⁴⁾. والواقع المؤلم جعل الرّاوي يشعر بالغربة، والبكاء داخل وطنه؛ والذي جعله يهربُ إلى الخيال والأحلام الجميلة التي كانت في المنفى؛ فكان يتمشّي دائماً على ضفّة البحيرة، ويشمّ رائحة الطّحالب

¹ - يُنظر: حبيبي، إميل، الوقائع الغريبة، ص 55- 57، ص 163.

² - يُنظر: كنفاني، غسان، عائد إلى حيفا، ص 32- 34، ص 47- 54.

³ - يُنظر: خروف، سماح، الاغتراب في رواية كزاف الخطايا (رسالة ماجستير)، ص 36- 37.

⁴ - يُنظر: خلف، يحيى، نهرٌ يستحمّ في البحيرة، ص 86 - 88.

والحشائش والأسماك، وكان يسمع بين لحظةٍ وأخرى صفير القطار الذّاهب من حيفا، والعاث من دمشق، وكان يرى عمّته حفيظة التي كانت تخضّ اللبن وتخرج منه الزّيدة.

وسيطرت على الرّأوي مشاعر التّحسّر على أحلامه الجميلة في المنفى لما شاهد الصّورة المطبوعة في خياله عن قريته التي لم يتبقّ منها شيء؛ فقال في نفسه بأنّ فلسطين الحُلم ليست فلسطين الواقع؛ فللفلسطينيين في الخارج حلمهم الجميل الذي يسكن فيهم؛ فليحرس الرّب تلك الأحلام (1).

وبقيت مشاعر الغربة مُلازمة لمُريد في رواية رأيتُ رام الله نتيجةً للغياب الطّويل عن أرض الوطن، وهذه الغربة بدأت منذ ركوب مُريد سيّارة الأجرة من استراحة أريحا إلى رام الله؛ فقد ظهر كشخصٍ أصابه الخرس؛ فسأل مُريد نفسه عن سبب عدم الحديث مع الرُّكّاب الذين هم أهله.

ومنّ الأمور المُرتبطة بغربة مُريد نسيانه لأسماء كثير من القرى التابعة لرام الله؛ ففي ظلّ غيابه الطّويل عن الوطن نسي أسماء القرى على جانبي الكيلومترات السبعة والعشرين التي تفصلها عن رام الله؛ فالحجل وحده علمه الكذب؛ فكلمًا سأله صديقُه حُسام عن بيت، أو علامة، أو طريقٍ سارع بالقول أنّه يعرف، وهو في الحقيقة لم يعد يعرف.

وظهر مُريد كسائح في قريته لا يعرفه أحد؛ فثناء سيره داخل قريته لم يتعرّف عليه أحدٌ من الأولاد الذين يتنزهون في مداخل القرية وطُرقاتها، ورغب في أن يعرفه أحد، وحتى ذلك الشّيح الذي كان يسير ببطءٍ وتأمّلٍ لم يتعرّف عليه، وكذلك مُريد لم يعرفه؛ وعندها اعتبر ذلك من السّخافة أن يسأل عن النّاس في مسقط رأسه (2).

ومن المشاعر السّلبية في رواية رأيتُ رام الله مشاعر الاستنكار لهذه العودة؛ فمريد استنكر عودته المُنفردة، وقرّر بأنّ العودة هي عودة الملايين؛ فأموأتُ الفلسطينيين في مقابر الآخرين، والأحياء منهم

¹- يُنظر: بخلف، يحيى، نهرٌ يستحم في البحيرة، ص31-33، ص78-79، ص116-117.

²- يُنظر: البرغوثي، مُريد، رأيت رام الله، ص35-36، ص73، ص79-80.

ما زالوا عالقين على حدود الآخرين، وهذه العودة لم تُغَيِّر شيئاً من واقع الاحتلال وسيطرته؛ فالكيان الصهيوني ما زال هو سيّد المكان الذي يَمْنَحُ التّصاريح للفلسطينيين، ويُدَقِّق في أوراقهم⁽¹⁾.

وعلّل بعض الباحثين استتكار مُريد لعودته إلى أنّ هناك الملايين من أفراد الشَّعبِ الفلسطينيّ مُبعَثَرين في كلِّ دُولِ العالمِ مِنْ مُخَيَّماتٍ، ومُدُنٍ عربيّةٍ وعالميّةٍ؛ فالْمُخَيَّماتُ في الشّتاتِ مأساةٌ كبيرةٌ؛ وأمّا الذين أوجدتهم القدر في المدن العربيّة والعالميّة؛ فلا زالوا يعيشون في دواخلهم مآسي الاغتراب⁽²⁾. ونقد مُريد أحد التّصرفات السلبية المرتبط بالمشاعر السلبية؛ فبعد تملك المشاعر السلبية من الشعب الفلسطيني حصلت عندهم ظاهرة التكيّف، والتأقلم مع السياسات الإسرائيليّة المُتشدّدة؛ فبعد الانتفاضة ذهب الفلسطينيون إلى أوصلو تكيّفوا مع شروط الأعداء؛ فمنذ الـ1967م والفلسطينيون يتأقلمون مع واقعهم الجديد؛ ولذلك ننتيا هو هدأ من مخاوف أمريكا على مسار التّسوية الرّاهنة بقوله إنّ العرب في النّهاية سيتأقلمون مع تشدّده؛ لأنّهم تعودوا على التّأقلم مع ما يُفرضُ عليهم⁽³⁾.

خامساً: مظاهر شكليّة لدولة مُتخيّلة:

من الأبجديات المتعارف عليها في عالم استقّلال الدُول، هو أنّ تكون الدّولة ذات سيادة على أراضيها، وأنّ يكون هناك تواصل جُغرافي بينها، وهذا غير حاصل في الكيان الفلسطينيّ الذي تشكّل بعد اتّفاقيّة أوصلو؛ ففي رواية نهر يستجم في البحيرة عبّر الرّاوي جسر الكرامة، ورأى أنّ السيادة كاملةً للكيان الصهيوني؛ فالذي سمح له بالعبور جُندي حاملاً لِبُنْدُقيّة عوزي، ولما اقترب من أريحا صعد بعض الجنود إلى الحافلة للتّدقيق في الأوراق، ثمّ ركبَ في سيّارة صغيرة لإيصاله إلى منطقة تابعة للسلطة الفلسطينيّة، ومرّ في الطّريق على العديد من الحواجز الإسرائيليّة حتّى وصل إلى الحاجز الفلسطينيّ؛ فعندها ظهرت الأعلام الفلسطينيّة مُزينةً لكثيرٍ مِنَ الأمكنة.

¹ - يُنظر: البرغوثي، مُريد، رأيت رام الله، ص 47 - 48.

² - يُنظر: المناصرة، حسين، فردوس الأرض المُغتصبة: دراسات في الزوايا الفلسطينيّة، ص 173.

³ - يُنظر: البرغوثي، مُريد، رأيت رام الله، ص 209.

وشاهد الزاوي في شوارع غزّة المجلس التشريعي، والسرايا، ومُجمّع أبي خضرا، وسيارات سرفيس،
وشُرطة مُرور، وأعلام مُرفِقة في كُلِّ مكان⁽¹⁾.

وبناءً على ما سبق أتساءل: ماذا استنقاد عالم السيادة والاستقلال في بلادنا من وجود بعض
المظاهر الشكليّة من المجلس التشريعي، وشُرطة المُرور، والسرايا، وغيرها؟

وتكرّرت مظاهر السيادة الشكليّة في رواية رأيتُ رام الله لمُريد البرغوثي؛ فقد جاءتْ سيّارة الأجرة
لأخذ مُريد من غرفة انتظار الجندي الإسرائيلي إلى مركز الحدود، وهناك وجد صالة واسعة؛ فرأى
صفاً من الشبّابيك الخاصّة بمعاملات الداهبين إلى الضّقة، وإلى غزّة، وهناك وجد الشّرطة الفلسطينيّة
بجانِب الشّرطة الإسرائيليّة، وعند دخول الصّالة وجد باباً إلكترونيّاً؛ فطلب منه أفراد الشّرطة الإسرائيليّة
أن يضع كُلّ ما هو معدني في طَبَقٍ مِنَ البلاستيك، وبعد ذلك وجدَ نفسه مُباشرة أمام ضابط إسرائيلي
مُسلّح؛ فأخذ منه الأوراق يُقلّبها بين يديه، ثمّ أعادها له؛ فسأله: إلى أين؟ فأجابه إلى الضّابط
الفلسطيني؛ فذهب إليه، وأعطاه الأوراق؛ فقلّبها بين يديه، ثمّ أعادها إلى الضّابط الإسرائيلي، وجلس
مُريد بعد ذلك في غرفة الضّابط الفلسطيني، وعرف أنّ الاتّفاقيّات المُوقّعة جعلتْ هذا الضّابط لا يُقرّر
أيّ شيءٍ؛ فكلّ الإجراءات الأمنيّة والجُمركيّة والإداريّة من اختصاص السّلطات الإسرائيليّة، وبعد ساعة
جاءه أحد الضّباط الإسرائيليين، واصطحبه إلى إحدى الغرف، ثمّ فتح له ملفاً⁽²⁾.

ومن العجائب التي أفرزتها هذه الدّولة المُتخيلة أنّه لا حقّ للفلسطيني بالإقامة في وطنه إلّا بعد
النّقدّم إلى وزارة الدّاخلية الفلسطينيّة بطلبٍ للحصول على هويّة لم الشّمل، ووزارة الدّاخلية التي هي من
رموز السيادة الفلسطينيّة سوف تطلبها من الكيان الصّهيوني؛ وذلك لتتكرّم عليه بهذه الهويّة!

ذهب مُريد إلى وزارة الدّاخلية مع حُسام للنّقدّم بطلب هويّة، وكذلك تصريح زيارة لابنه تميم إلى
فلسطين، وعندمَا دخل وجد أنّ أبا ساجي صديقه القديم هو الموظّف المسؤول؛ فتعانقا، ثمّ قدّم له

¹- يُنظر: يخلف، يحيى، نهرٌ يستجم في البحيرة، ص5- 8، ص18.

²- يُنظر: البرغوثي، مُريد، رأيت رام الله، ص26 - 29.

الأوراق المطلوبة للتقدم بطلب هوية، وتصريح زيارة لتميم؛ فقال له أبو ساجي بأن شهادة ميلاد تميم ضرورية للتقدم بطلب تصريح الزيارة؛ فعقب مُريد على ذلك بأنه سوف يحضرها خلال يومين من زوجته في مصر⁽¹⁾.

ووجد مريد جميع المؤسسات في أيّ دولة مُستقلة موجودة داخل هذه الدولة المُتخيلة، ومن تلك المؤسسات التلفزيون الفلسطيني والحكومة الفلسطينية، وغيرها من هذه المؤسسات.

ونقل مريد ملاحظاته عن البرامج التي يُقدّمها التلفزيون الفلسطيني الذي شاهده بشغفٍ عند عودته إلى أرض الوطن؛ فهو تلفزيون يصوّر الأمور بشكلٍ يدعو إلى السرور والبهجة بعيداً عن الواقع المؤلم لفلسطين؛ وذلك ككلّ التلفزيونات العربية وكذلك الإذاعة.

ومن المُحزن أنّ هذا التلفزيون الذي يُفترض به نشرُ الوعي بين جماهير الشعب الفلسطيني ساهم في تضليل الشعب مستعيناً بماكينته الإعلامية الجهنمية وساعده في ذلك أجهزة الإعلام العربية، ومن ضمن ذلك تصوير انتصارات غير الواقعية على الأرض الفلسطينية⁽²⁾.

أخلص إلى أنّ العودة إلى الوطن في ظلّ الاحتلال خلال الروايات الفلسطينية لا بدّ أن يعُقبها خسارة في كلّ شيء؛ فسرى في الفصل الأول صورة العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض، والتي اتفقت مع الصّور السابقة في أمورٍ عدّة، واختلفت عنها في أمورٍ أُخرى.

¹- يُنظر: المصدر السابق، ص35- 36، ص 58.

²- يُنظر: البرغوثي، مريد، رأيت رام الله، ص144-146.

*الفصل الأول: صور العودة الناقصة إلى الأراضي الفلسطينية قبل اتفاقية
أوسلو وما بعدها في روايات أحمد رفيق عوض:

المبحث الأول: التعريف بالكاتب.

المبحث الثاني: صور العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض قبل اتفاقية أوسلو:
﴿الصور في رواية قدرون﴾.

المبحث الثالث: صور العودة الناقصة بعد اتفاقية أوسلو:

أولاً: صور العودة الناقصة في مقامات العشاق والتجار.

ثانياً: صور العودة الناقصة في آخر القرن.

ثالثاً: صور العودة الناقصة في بلاد البحر.

المبحث الأول: التعريف بالكاتب.

التعريف بالكاتب:

حياته:

وُلد أحمد رفيق عوض في يعبد بجنين يوم الخميس العاشر من آذار عام 1960م⁽¹⁾. وكانت أسرته تعيش حياة الفقر؛ فقد تحدّث الباحثون عن ظروف حياته القاسية؛ فهو لأبوين فقيرين فلاحين، وكانا يسكنان في سقيفة طينية في بلدة يعبد؛ فالأب جاء لاجئاً من قرية كفر قرع في المثلث الواقعة في الأراضي المحتلة عام 1948م، وكان لا يملك شيئاً أبداً. وكان الوالد يُجيد مهنة الزراعة؛ ولذلك عمِل في القرى المنتشرة على حدود مرج بن عامر، حيث تزوج من ابنة نجار كان يعمل لدى الفلاحين، والتي تُوفّي زوجها الأول لمرضٍ عضال ألمّ به. كان والده يُسافر كثيراً بين الجين والآخر ليعمل في بلاد بعيدة طلباً للرزق، بائعاً للتبغ أو الحلوى، أو الجبن، ومُهرباً للبضائع الرخيصة من أراضي عام 1967م إلى الأراضي المحتلة عام 1948م، ومهنة التهريب مارسها كثيرٌ من الناس في ذلك الوقت لِقلة الأعمال أولاً، ولعدم القدرة على فهم أنّ الأراضي المحتلة عام 1948م قد أصبحت محرّمة عليهم. وفي العام الذي وُلد فيه أحمد رفيق يتفق والده مع صاحب أرضٍ وعرة، بعيدة عن العمران على استصلاحها مُقابل أن يبني فيها بيتاً، وأن يكون له أقل من نصفها بعد مرور أربع عشرة سنة. انطلق الوالد إلى تلك الأرض الصخرية يعمل فيها ليل نهار حتّى حولها إلى جنةٍ تمور بِشجر اللوز والتين والزمان والزيتون، وبنى هناك بيته الثالث بعد البيتين اللذين هدمهما الاحتلال عام 1948م في قريتي كفر قرع والسنديانة.

¹- يُنظر: عدوان، سعد، الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية (رسالة ماجستير)، ص3.

²- يُنظر: خواجه، علي، عين السارد، ص 14 - 16.

وفي هذا المنزل البعيد المنعزل في البرية رأى أحمد رفيق أولى الصور، وسمع أول الأصوات حيث لا جيران، ولا أصدقاء، وهناك عاش سنواته الثمانية الأولى.

وفي هذا الوعر البعيد. غرب يعبد - رأى أحمد الجنود الأردنيين الذين كانوا يتجولون في ذلك الجبل الأجرد، والمهريين الذين يقطعون المسافات وراء لُقمة العيش مُعرضين أنفسهم للموت.

وكان على أحمد- عندما بلغ السادسة من عمره أن يذهب إلى مدرسة الوكالة للاجئين الفلسطينيين، وهي مدرسة بعيدة جداً عن بيته في الوعر؛ ولذلك كان عليه أن يقطع أكثر من ثلاثة كيلو مترات مشياً على الأقدام في الذهاب إليها، ومثلها عند المغادرة، وهو لا يزال صغيراً.

وبناءً على ما سبق عاش أحمد رفيق عوض حياةً مليئةً بالفقر، والصعاب منذ نُعومة أظفاره، وهذا ترك أثراً على نفسيته؛ فعندما كُبر أصبح يرى كل شيءٍ بسوداوية، وتلك السوداوية انعكست على رواياته المغرقة في التشاؤم.

اضطرت أسرة أحمد رفيق إلى مغادرة بيتهم المنعزل في البرية نتيجة حرب 1967م، وسكنوا في مغارة قريبة نظراً للقصف العنيف الذي طال كثير من البيوت.

ظننت السلطات الصهيونية أن هذا البيت يُستخدم في الأعمال القتالية الموجهة ضدها؛ ولذلك قامت بقصفه وتدميره بالكامل؛ وهكذا هُدم البيت الثالث لأسرة أحمد رفيق عوض؛ فذهبوا للعيش في بيتٍ مُستأجر له شبّاك على شارع البلدة الرئيسي.

واستمرت الصعاب في حياة أحمد رفيق بعد ذلك؛ فقد اتهم والده بجريمة قتلٍ سُجن على أثرها في سجن نابلس المركزي، وبينما كان أحمد يزور والده في السجن مع والدته دهستهُ سيارة مُسرعة؛ فكسرتُ رجله؛ ولذلك كانت والدته تضعهُ قُرب الشبّاك المُطل على الشارع الرئيس لينسى آلامه.

الأشهر الثلاثة التي قضاها أحمد يجلس بالقرب من النافذة، مكسور القدم والخاطر يتذكرها أحمد بكثيرٍ من الألم؛ فقد تنكر الجميع لهم، حتى أن شقيقه محمد ترك مقاعد الدراسة ليُعمل في مقلع حجارةٍ قريب ليوفر نقوداً قليلة يُمكن العيش بها.

أفرج عن والد الكاتب بعد مائة يومٍ من الاعتقال بعد أن ثبت بطلان التهمة، حيث إن هناك من استغل فترة الحرب ليُصفي حساباته مع الآخرين.

انتقل الوالد بأسرته إلى مزرعةٍ يملكها أحد الإقطاعيين القدامى في محافظة طولكرم، حيث عمل أجيراً، يحرث ويُزرع ويُقلم الأشجار مُقابل أجر يومي، ومكانٍ للنوم والعيش.

وفي هذه المزرعة كتب أحمد أولى قصصه مع أن عمره كان لا يتجاوز العاشرة، حيث كان يُشاهد المشاجرات المضحكة بين المزارعين وزوجاتهم؛ فيكتب ما يسمع، ثم يقرأ ما يكتبه على والديه؛ فيدخل بهذه القصص الفرحة إلى قلوبهما⁽¹⁾.

ومن هنا يتضح أن موهبة الكتابة والقصة قد ظهرت عند أحمد رفيق في سن مبكرة، وهذه الموهبة يسر الله لها من يُطورها - كما سنرى - ليُصبح من أهم الروائيين الفلسطينيين.

وفي تلك المزرعة حاول أحمد مراراً وتكراراً أن يدخل مطبخ الفيلا وسط المزرعة ليُشاهد أكل صاحب المزرعة وزوجته البرازيلية، حيث أن رائحة المطبخ لم تكن تُشبه أي رائحة أخرى.

انتقل الوالد وأسرته إلى مزرعة إقطاعي آخر، حيث عمل مزارعاً للتبغ، وكان على أحمد أن يذهب يومياً إلى مدرسة الوكالة مُطلقاً من تلك المزرعة التي تبعد عنها أكثر من ثمانية كيلو مترات.

وهناك سكن الكاتب مع أسرته في كوخٍ من الطوب كان يُستعمل لتربية الدجاج مدة تزيد عن سنة كاملة، وكان فيها يوماً الخميس والجمعة مُميزين؛ لأن صاحب المزرعة يحضر فيها مع زوجته وابنته ليتجولا؛ فشهد أحمد أشخاصاً يبدون من كوكبٍ آخر.

1- يُنظر: خواجه، علي، عين السارد، ص 17 - 19.

اكتشف أساتذة المدرسة التي درس فيها أحمد مواهبه الدراسية التي جعلته الأول على صفه على الدوام، واكتشفوا مواهبه التعبيرية؛ ففتحوا له أبواب المكتبة ليستعير ما يريد من الكتب المخصصة للصغار، أو حتى المخصصة للكبار؛ فكان أحمد رفيق يقرأ روايات عربية وعالمية، وهو في تلك السن المبكرة؛ ولذلك تسلّم مسؤوليّة إصدار جريدة الحائط في المدرسة، وكانت تُسمّى (الأمل)، وبقي يُصدرها سنة كاملة وحده دون أيّة مساعدة⁽¹⁾.

يقول أحمد عن تلك الفترة: (إنّ المُعلّم يلعب دوراً مهمّاً وحقيقياً في تنشئة الصغار، وإنّه مسؤول مسؤوليّة كاملة عن رعاية تلاميذه)⁽²⁾.

ألاحظُ ممّا سبق أنّ أحمد رفيق رأى التفاوت الطبقي في أبشع صوره، وهو لا يزال طفلاً حدثاً؛ فبينما كان يعيش حياة الدّلّ في بيتٍ مُخصّصٍ للدجاج في مزرعة أحد الإقطاعيين، ويذهب إلى المدرسة يومياً مشياً على الأقدام مسافة ثمانية كيلو مترات كان هذا الإقطاعي يعيش حياة البذخ والتّرف في فيلا لم يُشاهد الكاتب مثلها، ويأكل طعاماً لم يَرِ مثله في حياته؛ وهذا ولدٌ سوداويّة وحقداً دفيناً على هذا المجتمع الذي يعيش فيه منذ نُعومة أطفاره؛ ممّا يُفسّر السوداويّة في رواياته.

وتبيّن ممّا سبق أنّ موهبته في الكتابة يسّر الله لها من يُطوّرها من أساتذة ومُعَلِّمين كانوا يُعيرونه ما يُريد من الكتب.

وحضر ذات يوم وفد من ممثلي وكالة الغوث إلى مدرسة الوكالة في يعبدٍ يطلبُ تلميذاً مُجتهداً يعيش ظروفاً سيّئة لبيعته إلى لندن للدراسة والحياة حتى نهاية المرحلة الثانوية؛ فلم يجد مدير المدرسة غير الطالب أحمد رفيق ليستفيد من هذه الفرصة النادرة، ووافق والده في البداية؛ فقام الوفد بعمل إجراءات السّفر، وقبل أن يتمّ السّفر بيومٍ واحد أبلغ الوالد مدير المدرسة رفضه القاطع لسفر ابنه؛ فحاول مدير المدرسة ثنيه عن هذا الرّفص موضحاً ميّزات السّفر إلى لندن، ولكنه أصرّ على رفضه،

1- يُنظر: خواجه، علي، عين السارد، ص 19 - 20.

2- خواجه، علي، عين السارد، ص 20.

وحاول الوفد إقناعه بسفر ابنه، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، وقال الوالد وهو يُغالب دمه: فليبقَ
ابني مُسليماً!

انتقل أحمد رفيق إلى مدرسة يعبد الحكوميّة ليدرس ما كان يعرف في حينه امتحان (المترك) بعد أن
أنهى دراسته الابتدائيّة في مدرسة الوكالة، وفي تلك الأثناء بنى والده غرفتين في حيّ جديد من أحياء
يعبد ظهرت بعد الاحتلال بسبب ما حدث في السبعينيّات في الضفّة والقِطاع، حيث تحوّل مُعظم
النّاس إلى القيم الاستهلاكيّة، وظهرت أحياء وعمارات حديثة(هذا الواقع صوّره أحمد رفيق في رواية
قدرون، حيث وصف حي أمّ الضّباع، وهو حي جديد نشأ على أطراف قدرون).

وفي هذه المدرسة الحكوميّة، حيث المراهقة الأولى أحسّ أحمد بمعنى الفروقات الاجتماعيّة، والمواقع
والمراتب والاختلافات، وهناك بدأت مُحاولته الجادّة في الكتابة بمعناها الحقيقي، وتلك المحاولة كانت
بين عامي 1974 - 1975م، حيث كانت الصّحافة المحليّة مُحاصرة أو ضعيفة، ولكنّ أحمد رفيق
واظب على زيارة مكتبة المدرسة؛ فرأى فيها كتب الخمسينيّات والستينيّات المصريّة، والتيارات الواقعيّة
والوجوديّة والدينيّة، وعلى الرّغم من الاستعداد للامتحان الصّعب والمُنظر، إلّا أنّه لم يترك القراءة ولا
الكتاب، وقد نجح بجداريّة كبيرة.

انتقل الكاتب بعد أن أنهى صفّه العاشر في مدرسة يعبد الحكوميّة إلى مدرسة ثانويّة أخرى في
جنين، وكان ذلك يعني مصروفاً إضافياً سوف يتكبّده والده، وعلى الرّغم من ضيق الحال أصرّ هذا
الوالد على تعليمه؛ لأنّه كان فخوراً به وبتقدّمه وبإنجازاته.

وفي جنين عرف أحمد المظاهرات والاصطدام بجيش الاحتلال، والنقاشات المُستفيضة بين مُختلف
الفصائل والقوى، والكتب المنشورة السريّة، والخوف من الاعتقال أيضاً، ولأنّ أحمد قد اختار الفرع
العلمي في دراسته؛ فقد توجّب عليه أن يهتمّ أكثر بدروسه، ولكنّ ذلك لم يمنعه قط من الانكباب
الشديد على القراءة والكتابة والنّشر، وفي تلك الأثناء قرّر والده أنّ العمل في حِرَاة الأرض لم يعد

يوقّر النقود اللازمة؛ فاضطّر إلى أن يذهب للعمل في أحد المصانع الإسرائيليّة في مدينة الخضيرة، وكان الكاتب يضطرّ أن يعمل بدلاً عن أبيه كلّ يوم جمعة ليتسنى للوالد أن يصلّي الجمعة في المسجد دون أن يفقد عمله؛ ذلك أنّ مدير المصنع هدّده بالطرد إذا غاب كلّ يوم جمعة.

حصل أحمد على شهادة الثّانويّة في الفرع العلمي عام 1978م، وانتقل بعدها إلى الأردن لدراسة العلوم في جامعة اليرموك، وهناك بدأت مرحلة جديدة في حياته؛ فقد تورّط في الأدب والحُبّ والسياسة، أمّا في الأدب؛ فقد قرأ كلّ شيءٍ حتّى وقع في أوهام الفكر الماركسي، وأصبحت لديه مكتبة تضمّ أكثر من ألفي كتاب.

أمّا الحُبّ؛ فقد خاب أمله فيما تمّنى، وهذه الأمنيات طعنته طعنة مفاجئة وسريعة لم يستطع أحمد بعدها أن يُقيم علاقةً أخرى؛ ومن هنا كانت أغلب الشّخصيّات النسائيّة التي يكتب عنها في رواياته هي شخصيّات أقرب إلى الدمار والهلاك.

أمّا السياسة؛ فقد انخرط أحمد في الجماعات الشّيعيّة العاملة في جامعة اليرموك، وقد ترشّح في قوائمهم للجان الطّلابيّة المختلفة، الأمر الذي أدّى به إلى الاعتقال العام 1982م عدّة أسابيع في سجن إربد، وهذا الأمر دفع بالسلطات الأردنيّة إلى طرده من البلد بعد أن انتهت من دراسته في العام ذاته.

اعتقلت السلطات الإسرائيليّة أحمد رفيق عوض لمُدّة نصف سنة بعد عودته إلى الضّفة الغربيّة وعمله معلّمًا مُدّة عامين في إحدى المدارس، وطردته كذلك من وظيفته.

بعد خروج أحمد من المعتقل في أيلول عام 1984م عمل مُدرّساً في المدارس الخاصّة في مدينة جنين مُدّة عامين آخرين، كان يتقاضى أقلّ من المبلغ الذي يكفي لسدّ رمق عائلته؛ ولذلك اضطّر لترك التّدريس، وأنّ يذهب للعمل داخل الكيان الصّهيوني، وكان يشعر بالحرج الشديد عندما كان يضطرّ للوقوف في ساحة العمّال في مدينة الخضيرة انتظاراً لمن يأتي من اليهود لتشغيلهم؛ ذلك أنّ بعض

العَمال هم من الطّالِب الذين درّسهم فيما سبق، وكان ذلك يُخرجُه إلى درجة أنّه كان يضطرُّ إلى مُغادرة السّاحة دون أن يعمل، وحتّى يتجنّب هذا الوضع المُحرج بحث عن أعمال أُخرى بعيدة؛ فوجد عملاً في مدينة نتانيا؛ فسكن هناك مُدّة سنة، ثمّ وجد عملاً في مطعمٍ بمدينة تل أبيب وسكن هناك مُدّة سنة أُخرى.

وعندما أصبحت الحياة في تل أبيب صعبة تركها افتتح مقهى في يعبد، أغلقه بعد سنة، وذهب ليعمل في المشاعر، وهي الطّريقة البدائيّة الأصعب لصناعة الفحم، وقد عمل بهذه المهنة أجيراً لدى أصحاب الأموال الذين يستطيعون شراء الخشب، وما إلى ذلك من موادٍ لازمة لتلك الصّناعة.

انشغل أحمد رفيق دائماً بتدبير شؤون أسرته والاهتمام بها؛ فقد طلب أحمد من والده ألا يعمل أبداً منذ اللحظة الأولى التي صار فيها مُدرّساً العام 1982م، وكان أن تقام مرض والده ووالدته على التّوالي، وهي أمراض مُزمنة تحتاج إلى علاجٍ طويل ومُكلف لا يتوقّف، وكان شقيق أحمد رفيق الأصغر كذلك يدرس في معهد رام الله للوكالة، وكان على أحمد وحده أن يتكفّل بعد الله بالجميع.

تزوَّج أحمد رفيق في العام 1991م، ولم يمضِ على زواجه تسعة أشهر حتّى نشر اتّحاد الكُتاب الفلِسطِينيين روايته (العذراء والقرية) التي أثارت بعض النّاس الذين اعتبروا أنّ ما جاء بها تعريض باسمهم بشكلٍ، أو بآخر، وكان على أحمد أن يُغادر يعبد في شهر نيسان من العام 1992م إلى رام الله، وهو لا يملك غير ثيابه التي عليه؛ وفي رام الله بدأت رحلة كِفاح جديدة⁽¹⁾.

كان أحمد رفيق يعيش حياةً صعبة منذ طفولته، وهذه الحياة كانت مليئة بالحرمان من أبسط الحقوق الإنسانيّة لأيّ طفلٍ في مثل عُمره، وقد عانى من التّمييز الطّبقي؛ وهذه الأمور تُفسّر السّوداويّة والتّشاؤم داخل رواياته، كما أنّ إعلاء قيمة المال وتحكّمها في أحداث الرّوايات نابع من التّمييز

1- يُنظر: خواجه، علي، عين السّارد، ص 20-30.

الطَّبقي الَّذي عانى منه؛ فبينما كانتُ أُسرته تتام في بيتٍ مُخصَّصٍ للدجاج في مزرعة الإقطاعي الَّذي كان والده يعمل عنده كانتُ أسرة هذا الإقطاعي تتام في فيلا لم يُشاهد أحدٌ مثلها.

دراسته وعمله:

حصل على شهادة التَّانويَّة العامَّة سنة 1978م، ثمَّ شهادة البكالوريوس في الأحياء من جامعة اليرموك عام 1982م، ثمَّ شهادة الدُّبْلوم في التَّربية وعلم النَّفس من جامعة اليرموك في العام ذاته، ثمَّ شهادة دُّبْلوم عالي في الإدارة الإعلانيَّة في الدنمارك عام 1997م؛ وذلك بعد أن نالَ دورةَ مُركِّزة في المسرح الملكي البريطاني في لندن.

قرَّر أحمد رفيق بعد ذلك إكمال دراسته الجامعيَّة؛ فأخذ شهادة الماجستير في الدِّراسات الإقليميَّة - جامعة القدس - عام 2006م، وأتمَّ الدُّكتوراة في العُلوم السياسيَّة - القاهرة - 2010م. وقد تنقَّل في العديد من الوظائف؛ فعَمَل مُدرِّساً في المدارس الحكوميَّة في لواء جنين ما بين 1982م - و1984م، ونظراً لِقِصَصِهِ وكتاباتِهِ الَّتِي انتقدَ فيها الاختلال طُرِدَ من عَمَلِهِ كمُدِّرِس في المَدارس الحُكوميَّة سنة 1984م؛ ولذلك عَمِلَ في كُلِّ شيءٍ؛ فقد عَمِلَ عتالاً وغاسِلاً للصَّحون داخل الكيان الصَّهيوئي ليقومَ بمسؤوليَّاته الأُسريَّة والعائليَّة حتَّى أوائل التسعينيات، وخلال تلك الفترة لم يكتبَ حرفاً واحداً.

وفي عام 1994م انضمَّ إلى أوَّل فريق صحافيٍ إِداعي يتدرب على أيدي مُدرِّبين ألمان، وكانت تلك الدَّورة في القدس؛ فباع جهاز التِّلْفزيون الَّذي لديه لِيُعْطِيَ نفقاته؛ ثمَّ عَمِلَ في إذاعة صوت فلسطين مُذيعاً ومُعِدّاً لِلبرامج ومُحرِّراً لِلأخبار.

وترقَّى في عمله خلال فترةٍ وجيزة ليُصْبِحَ مُديراً لِلأخبار في صوت فلسطين، ورئيساً لِلتحرير في مركز التَّدريب التَّابع لهيئة الإذاعة والتِّلْفزيون ما بين 1996م - 1998م، وهو عضو مؤسس لبيت

الشعر الفلسطيني، وعضو هيئة التحرير لجريدة دفاقر الثقافية الصادرة عن وزارة الثقافة مدة ثلاث سنوات، ورئيس تحرير مجلة (المجلة الطبية الفلسطينية) 1996م - 1998م، ومديراً في وزارة الثقافة ومستشار الفصائية الفلسطينية في رام الله، كما عمل محاضراً غير متفرغ في قسم الإعلام بجامعة بيرزيت ما بين 2000 - 2001م، وهو كاتب صحفي وناقد أدبي في الدوريات المحلية والعربية، وعمل في أعمال الترجمة كذلك، ويعمل حالياً محاضراً متفرغاً في دائرة الإعلام والتلفزة بجامعة القدس؛ وهكذا غير أحمد رفيق حياته من عامل إلى كاتب يعناش من قلمه.

وبدأ أحمد رفيق في كتابة القصة القصيرة والمسرحية سنة 1982م؛ ولذلك قام بنشر قصص عدة؛ منها: (الحامولة)، و(الرجل الذي صار طوله أحد عشر متراً)، وفي قصصه يتناول بعض الأشياء التي لم يتطرق لها أحد.

وكتب قصة (رجل تحت الاحتلال) سنة 1984م في مجلة الفجر الأدبي، ولقد تناولت فعل الاحتلال والأنماط الاجتماعية المختلفة في المجتمع.

وتطورت موهبة الكتابة عند أحمد رفيق ليصبح أحد الكتاب البارزين في المجتمع الفلسطيني⁽¹⁾.

مؤلفاته:

أحمد رفيق عوض من الكتاب الفلسطينيين الذين أثروا الواقع الثقافي الفلسطيني، وقد حصل على عدة جوائز كان آخرها جائزة الملك عبد الله الثاني للإبداع، وتُرجمت روايته (الملك تشرشل)، و(بلاد البحر) للغة الإيطالية، وقد أصدر مضموناً مختلفاً غير سائد على مستوى الشكل والمضمون، وقد أصدر أحمد رفيق سبع روايات هي على التوالي: العذراء والقرية 1992م، قدرون 1996م، مقامات

¹- يُنظر: عدوان، سعد، الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائية (رسالة ماجستير)، ص 3-4؛ الخواجة، علي، جوائز الفهم، ص 142 - 143، ص 14 - 18.

العُشّاق والتجّار 1997م، آخر القرن 1999م، الفُرْمطي 2001م، عكّا والملوك 2003م، بلاد البحر
2006م⁽¹⁾.

رأي الكُتّاب بأحمد رفيق عوض:

أُعجِبْتُ كَثِيرًا مِنْ الشَّخْصِيَّاتِ الفِلَسْطِينِيَّةِ بِأحمد رفيق عوض، وأعماله؛ فهذا المرحوم الدّكتور حسين
البرغوثي قد قال عنه: (أحمد رفيق عوض ليس روائياً فحسب إنّهُ مُتَقَفٌ هائلٌ وعبقري)، وكذلك قد
أُعجِبَ بِهِ الشّاعر الفلّسطيني المتوكّل طه؛ فقد قال عنه إنّهُ تجاوزَ المَشْهدَ الرّوائِي الفِلَسْطِينِي إلى
فضاء المَشْهدِ العربي بقدرة⁽²⁾.

¹- يُنظر: عدوان، سعد، الشّخصيّة في أعمال أحمد رفيق عوض الرّوائيّة (رسالة ماجستير)، ص4.

²- الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص206.

المبحث الثاني: صور العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض قبل

اتفاقية أوصلو

(الصّور في رواية قدرون)

مُلخَص الرّواية:

تتحدّث الرّواية عن واقع الشّعب الفلّسطيني في الأراضي الفلّسطينيّة المُحتلّة سنة 1967م في فترة السّبعينيّات داخل قرية مُتخيّلة تُدعى (قدرون)، والتّابعة لمنطقة جنين، وقدرون هي كلّ قرية فلّسطينيّة في الأراضي المُحتلّة، وهي تُصوّر كيفيّة تحوّل الفلّسطينيين من فلاحه أرضهم إلى العمل في الورش والمصّانع الصّهيونيّة، وكذلك العمل في الأراضي الزراعيّة التّابعة للصّهاينة، وهذا كلّه تدمير للاقتصاد الفلّسطيني⁽¹⁾.

تدور أحداث هذه الرّواية حول عائلة الجدّ عثمان الرّمحي الذي بلغ من العُمر سنة 1967م الثّمانين عاماً، وفي هذا العام احتلّت إسرائيل الضّفّة الغربيّة؛ ففرّ اثنان من أبناء الجدّ عثمان إلى الأردن؛ وذلك لِعملهم في الجيش الأردني، واستشهدَ ابنه البكر صالح في هذا العام مُخلفاً وراءه أرملة وأربعة أبناء لم يتجاوزَ أكبرهم الخامسة عشر عاماً، والذي كان اسمه عليّاً، وله أختان بُثينة وعبير، وأخوه الصّغير يُدعى مروان، ولم يتبقّ للجدّ عثمان من أبنائه في قرية قدرون سوى عبد الهادي، وهذا الابن كان له من الأبناء جواد وعمر وزياد، وبنّت وحيدة تُدعى لُبني.

وقبل احتلال إسرائيل لقرية قدرون عام 1967م كان جميع أهل القرية يعملون في الزراعة، والواقع الاقتصادي كان بائساً؛ ولذلك لم ينتشر البناء في أحياء قدرون، ومن تلك الأحياء منطقة صخريّة بجانب قدرون تُدعى منطقة أمّ الضّباع، ولكنّ هذا الحال تغيّر بعد احتلال الكيان الصّهيوني؛ فجميع أهل قدرون تحوّلوا إلى عمّالٍ وعبيدٍ لدى الكيان الصّهيوني، وقد هجروا أرضهم، وأصبح لديهم أموالٌ تفيض عن حاجتهم؛ ولذلك ازدهر قطاع البناء وانتشر في جميع أحياء قدرون، وبخاصّة منطقة أمّ الضّباع.

¹- يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص71.

وعانى عبد الهادي من الفقر الشديد؛ فهو مُكَلَّفٌ بالإِنفاقِ على أُسْرَتِهِ المُكَوَّنَةِ مِنْ زَوْجَتِهِ وأربعةٍ من الأبناء، ومُكَلَّفٌ بالإِنفاقِ على أسرةِ أخيه الشَّهيدِ؛ ولذلك تَوَجَّهَ إلى العملِ داخلِ الكيانِ الصَّهيوِنِيِّ كباقي أهلِ قريته، واستطاع أن يجدَ عملاً في مزرعةِ أحدِ الصَّهائِنَةِ، ويُدعى إسرائيل، وتطوَّرَ سريعاً في هذا العملِ، وأصبحَ مسؤولاً عنِ العمَّالِ في المزرعةِ، وأصبحَ لديه من المالِ الشَّيءُ الكثيرُ؛ وذلك مَكَّنَهُ من بناءِ بيتٍ جديدٍ في منطقةِ أُمِّ الضَّبَّاعِ.

ولم يقتصر الأمرُ على عبد الهادي، بل إنَّ ولديه تركا المدرسةَ للعملِ معه، وكذلك ابنُ أخيه علي ترك المدرسةَ، وعمل في البناءِ في قَيْساريَّةِ .

والتطوُّرُ اللَّافِتُ لِلنَّظَرِ تَعَرَّفَ علي في إحدى حاناتِ تل أبيبِ على يهوديَّةٍ يمنيَّةٍ تُدعى أوريت، والتي بدورها تعملُ لدى الدوائرِ الأمنيَّةِ الصَّهيوِنِيَِّّةِ؛ فأوقعتهُ في حُبِّها، ثُمَّ عَرَفْتُهُ على غابريئيلِ أحدِ ضبَّاطِ المُخابراتِ الصَّهيوِنِيَِّّةِ، والذي جعلهُ يعملُ في تسريبِ الأراضيِ الفِلِسطينيَّةِ إلى الكيانِ الصَّهيوِنِيِّ.

تتزوجُ بُنَيَّةُ أختِ علي من ابنِ عمِّها عمر، وتعيشُ في منزلِ عمِّها عبد الهادي، ويُكَلِّفُ علي من قِبَلِ المُخابراتِ الصَّهيوِنِيَِّّةِ بتسريبِ أرضِ جَدِّه إلى إحدى الجمعياتِ الاستيطانيَّةِ؛ فيفتنحُ أخته بالاستيلاءِ على أوراقِ ملكيَّةِ الأرضِ التي بحوزةِ جَدِّه بحكم أنَّها تُقيمُ في المنزلِ الذي يُقيمُ فيه الجدُّ، وهذا مُقابلِ خمسةِ آلافِ دينارٍ لها ومثلها لزوجها، وبالفعلِ أخذتُ بُنَيَّةُ وزوجها الأوراقَ، ثُمَّ أعطتها له، والذي سلَّمها بدوره إلى الرَّابِ شليطاً الذي يتراأسُ تلكَ الجمعيَّةِ الاستيطانيَّةِ، وعندها أعطاهُ شيكاً ثمنِ هذه الأرضِ، وبعدَ عدَّةِ أيَّامٍ يُفاجأُ الجدُّ عثمانُ وحفيدهُ زيادُ بدخولِ أشخاصٍ غُرباءِ وآلياتٍ ثقيلةٍ إلى أرضهم، وبعد أن تَعَارَكُوا بالأيدي يعرفُ الجدُّ عثمانُ بأنَّهُم اشترَوا الأرضَ من حفيدهِ علي، وتنتظرُ الأسرةُ وصولَ علي إلى بيتهِ الذي غاب عنه طويلاً، ويُخطِّطُ زيادُ لِقَتْلِهِ بعد تلقِيهِ للأوامرِ من جَدِّه، وعندما جاء إلى بيتهِ كَمِنَ له زيادُ في أحدِ الأمكنةِ، وهو مُسلَّحٌ بِمُسَدَّسٍ؛ فتذهبُ لِبْنِي إلى بيتِ علي،

وتَطْرُقُ الباب؛ فتقول له أُنْبى بَأَن جَدَّها مريض، وَأَنَّ عليه إِيصاله إلى المُستشفى بِسيارته، وعند خروجه من البيت يُطلقُ عليه زياد الرّصاص⁽¹⁾.

وصورة اليهودي في هذه الرّواية سلبية كصورتِه في سائر الأدب الفلسطيني، والذي لا يتورّع عن استخدام النّساء ليصل إلى هدفه⁽²⁾.

أهمّ صور العودَة الناقصة في رواية قدرون:

أولاً: العبوديّة للكيان الصّهيوني:

الكيان الصّهيوني قام على العامل الاستيطاني، وهذا العامل عمِل على إحداث تغيّرات هيكلية في المُجتمع الفلسطيني، ومن ذلك اختراق المناطق الرّيفيّة والمُجمعات المُنتشرة في الأراضي الفلسطينيّة لعام 1967م، وجعل من سكّانها عمالاً في مصانعِه ومزارعِه؛ وبذلك ربطهم بعجلته الاقتصاديّة والثقافيّة⁽³⁾.

وهذه نتيجة لسياسة رسمها الكيان الصّهيوني بدقّة عند احتلالها للضفّة الغربيّة، والتي تتمحور بإبعاد الفلسطينيين عن حِرقتهم الأساسيّة الزراعيّة، والتي توارثوها عن الآباء والأجداد؛ وذلك لجعل الأرض عديمة القيمة عند الفلسطيني حتّى يتسنى للمستوطنين شراءها، وإقامة أحلامهم.

وللأسف حققت هذه السياسة بعض النّجاح؛ فقد قام الكيان الصّهيوني بتشغيل الفلسطينيين بأجورٍ مُرتفعة في أعمال مُختلفة.

وهكذا كانت عودة الفلسطينيين إلى أرضهم المُحتلّة عام 1948م على شكل موجات العمّال، وهذه العودَة كان لها تأثيرٌ سلبي على الاقتصاد الفلسطيني؛ فهؤلاء العمّال تركّوا أرضهم بُوراً؛ وكان لهم دورٌ

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، رواية قدرون، ص1-321.

²- يُنظر: قطوسة، حسن ماجد، توظيف التاريخ في روايات أحمد رفيق عوض (رسالة ماجستير)، ص118.

³- يُنظر: خواجة، علي، مقاربات نقدية: دراسات في روايات أحمد رفيق عوض، ص66.

كبير في بناء المستوطنات، وتعمير الأراضي الزراعية المصادرة لصالح الاحتلال؛ وذلك تنفيذاً لخطّة الاحتلال بجعل الاقتصاد الفلسطيني عالّة على الاقتصاد الصهيوني⁽¹⁾.

وهذا كلّ من الأمور الطبيعيّة التي لا جدال فيها أنّ الاستعمار عند سيطرته على أيّ شعب؛ فإنّه يجعله عبداً له، وخادماً لمصالحه؛ وهذا ما حصل بعد احتلال الضفّة الغربيّة عام 1967م؛ فلقد تحوّل الشعب الفلسطيني إلى عمالٍ وعبيدٍ لدى الكيان الصهيوني مقابل أجورٍ مرتفعةٍ .

وللأسف الشديد كان توجه معظم الفلسطينيين إلى العمل داخل الكيان الصهيوني على حساب الأرض الفلسطينية؛ فهم قد هجروا الأرض، وتركوا زراعتها؛ فهذا الجدّ عثمان كان يصطحب حفيده زياد عبد الهادي إلى الأرض باستمرار في كلّ صباح لتفحص الأشجار؛ وهذا الحفيد على الرّغم من أنّه لم يبلغ العاشرة من عمره؛ فقد لفت نظره بأنّ جميع النّاس لم يعودوا يهتمّون بالأرض كما كانوا في السابق؛ فأخبر جدّه بأنّه لا أحد يهتمّ بالأرض، وكلّهم ذهبوا إلى العمل داخل الكيان الصهيوني؛ وحتى والده لم تعد الأرض تُغريه.

ومن الأمور التي تستدعي الانتباه في الرواية أنّ عمل جميع النّاس داخل الكيان الصهيوني كان سياسةً اتّبعتها هذا الكيان بعد حرب عام 1967م، والتي تتلخّص بإغراء النّاس بالعوائد الماليّة الضخمة جزاء هذا العمل؛ وذلك ليحوّل النّاس إلى عبيدٍ لها؛ فبعد حرب 1967م انطلق النّاس للعمل داخل هذا الكيان، وبعد عودتهم من أعمالهم هناك كانوا يتحدثون عن الأعاجيب عن النقود التي تبعث مثل الأرز.

أوكد أنّ العمل داخل الكيان الصهيوني كان عبوديّة لها؛ فهذا النّمودج الواقعي الذي صورته الرواية لأحد العمّال داخل هذا الكيان؛ فهذا عبد الهادي ابن الجدّ عثمان كان عليه أن يُعيل أسرته وأسرّة أخيه الشّهيد صالح؛ ولذلك قرّر أن يعمل في إسرائيل كما فعل الآخرون؛ فذهب أول مرّة مع العمّال إلى

¹- يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص80-81.

إِحْدَى السَّاحَاتِ فِي إِحْدَى قُرَى الْمُتَلَّتْ، وَالَّتِي سَيُحْضِرُ إِلَيْهَا مَنْ يُرِيدُ عُمَالًا، وَسَيَقُومُ بِانْتِقَاءِ الْعَدِيدِ الَّذِي يُرِيدُ، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ زَمْنِيَّةٍ تَوَقَّتْ سَيَّارَةٌ، وَنَزَلَ مِنْهَا أَحَدُ الْأَشْخَاصِ؛ فَقَالَ لَهُ الْعَمَّالُ بِمِرْحٍ: أَهْلًا بِأَبِي فَهَمِي.

وَمِنَ الْمُثِيرِ لِلأَسَى أَنَّ أَبَا فَهَمِي لَمْ يُعْرِهُمُ أَذْنَى اِهْتِمَامٍ، وَقَالَ بَأْتَهُ يُرِيدُ رَجُلَيْنِ قَوِيَيْنِ لِحَفْرِ حَفْرَةٍ اِمْتِنَاصٍ... (بَعِيدٍ عَنْكُمْ)؛ فَادَّعَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَمَّالِ أَنَّ الرَّجُلَ الْأَقْوَى، وَعِنْدَهَا شَعْرُ عَبْدِ الْهَادِي بَعْدَ الْقِيَمَةِ، وَوَدَّ لَوْ اخْتَفَى؛ فَفَرَّرَ الْعُودَةَ إِلَى قَدْرُونَ؛ وَعِنْدَهَا حَاولَ زَمِيلُهُ أَنْ يُثْنِيَهُ عَنْ عَزْمِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُفْلِحْ؛ فَعَادَ إِلَى قَدْرُونَ قَبْلَ الْعَاشِرَةِ صَبَاحًا، وَدَخَلَ عَلَى أَبِيهِ وَبَكَى، وَأُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصْبِحَ بِهَيْمَةً بِهَذِهِ السَّرْعَةِ.

تَعَرَّضَ عَبْدُ الْهَادِي لِضَائِقَةٍ مَالِيَّةٍ؛ فَلَمَّا تَحَدَّثَ مَعَ مَنْ يَمِيلُ إِلَيْهِمْ عَرَضُوا عَلَيْهِ فِكْرَةَ الْعَمَلِ دَاخِلَ الْكِيَانِ الصَّهْيُونِيِّ مَرَّةً أُخْرَى؛ فَتَوَجَّهَ إِلَى سَاحَةِ الْعَمَّالِ فِي إِحْدَى قُرَى الْمُتَلَّتْ، وَهُنَاكَ شَعَرَ بِالْخَجَلِ، وَفَجْأَةً شَعَرَ بِبِدِّ تَجَذُّبُهُ مِنْ زِرَاعِهِ وَتَدْفَعُ بِهِ إِلَى سَيَّارَةٍ زُرْقَاءَ قَدِيمَةٍ، ثُمَّ وَجَدَ نَفْسَهُ يَجْلِسُ إِلَى جَانِبِ صَدِيقٍ لَهُ؛ وَوَجَدَ أَنَّ صَاحِبَ السَّيَّارَةِ يَهُودِيٌّ، وَالَّذِي أَخَذَهُمْ إِلَى مَكَانٍ يُدْعَى بِالْعِبْرِيَّةِ (الْمُوشَافِ)، وَهِيَ تَعْنِي الْأَرْضِيَّ الزَّرَاعِيَّةَ، وَعَرَفَهُمُ الْيَهُودِيَّ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّ اسْمَهُ (إِسْرَائِيل).

أَصْبَحَ عَبْدُ الْهَادِي يَعْمَلُ فِي الدَّفِينَاتِ الزَّرَاعِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ؛ وَلِذَلِكَ أَحْسَسَ بِالْاِرْتِيَاحِ؛ فَقَدْ وَجَدَ عَمَلًا مُرِحًا وَبَسِيطًا، وَلَكِنَّهُ اِكْتَشَفَ أَنَّهُ أَصْبَحَ عَبْدًا لِلْكِيَانِ الصَّهْيُونِيِّ؛ وَهَذَا وَاقِعٌ طَبِيعِيٌّ فِي ظِلِّ الْهَزِيمَةِ؛ فَمَنْذُ الْقَدِيمِ وَالْمُنْتَصِرِ يَأْخُذُ أَسْرَى الطَّرْفِ الْمَهْزُومِ عَبِيدًا وَنِسَاءً هُمْ سَبَايَا (1).

1- يُنْظَرُ: الْعِيْلَةُ، زَكِي، صُورَةُ الذَّاتِ وَصُورَةُ الْآخَرِ، ص 106.

2- يُنْظَرُ: عَوْضُ، أَحْمَدُ رَفِيقٌ، قَدْرُونَ، ص 31-32.

3- يُنْظَرُ: الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص 54-57.

وأسهمت السياسة الصهيونية في فتح منافذ لتشغيل عمال الضفة الغربية وقطاع غزة داخل الكيان الصهيوني إلى حدوث كثيرٍ من المتغيرات التي تُشاهدُ كثيراً في حياة الفلسطينيين، ومنها هجر الفلسطينيين لأراضيهم ومصادر رزقهم الأصلية.

أخلص مما سبق إلى أن المجتمع الفلسطيني في قرَاه ومُدنه تحوّل إلى برِكس عمال يهجر أرضه، ويُدمّر اقتصاده الوطني من أجل العمل داخل الكيان الصهيوني.

وعلى الرغم من عبودية هؤلاء العمال للكيان الصهيوني كان قِسمٌ كبيرٌ من الشعب الفلسطيني ينظر إليهم كقدوة يُريدُ الاقتداءَ بها؛ فعبد الهادي أثبت كفاءةً في العمل، وأصبح رئيساً للعمال، وصارَ يَطلبُ منه إحصار عمال؛ ولذلك أصبح أهالي قدرون الرّاعِبون في العمل داخل هذا الكيان يسعون إلى مَلاطفتِه، لعلّه يختارهم للعمل؛ فلما رسب عمرعبد الهادي في المدرسة أخذه والده للعمل معه، ثمّ اقتدى به أخوه جواد والتحق بالعمل مع والده.

ومن الأمور المؤكّدة، والتي لا يستطيعُ أن يُجادِلَ بها أحدٌ أنّ العبد لا يُحرّرُ موطناً؛ فالعمال الذين يعملون داخل الكيان الصهيوني كانوا يحصرون تفكيرهم في المشاريع المستقبلية الخاصة من شراء سيارة، أو بناء بيت، وهذا بعيدٌ كلّ البُعدِ عن العملِ الوطني؛ فهذا عبد الهادي دخل ذات مرّة على بيته، وكان هناك الجدّ عثمان؛ فأخبرهم بأنّ إسرائيل صاحبُ المزرعة قد زاد في الأجرة اليومية لجميع العمال، ولا بُدّ من التفكير في المشاريع المستقبلية، ولم يكن عبد الهادي استثناءً؛ فعلي ابن الشهيد صالح قد أصبح معلّم بناء؛ فزادت أجرته؛ ففكر بشراء سيارة⁽¹⁾.

استنتج مما سبق أنّ العمال الذين يعملون داخل الكيان الصهيوني أصبحوا عبيداً لإسرائيل بمحض إرادتهم، ولا يستطيعون الفكاكَ عنها، وأصبحوا يُورثون هذه العبودية لأبنائهم؛ فهذا عمر كان يُحاولُ أن

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، 21-29.

يَتَخَلَّصَ مِنَ الْعَمَلِ مَعَ أَبِيهِ فِي مَزْرَعَةِ إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنَّ وَالِدَهُ كَانَ يَنْهَمُهُ بِالْجُنُونِ، وَحُبُّ الْفَقْرِ؛ فَأَرْضُ جَدِّهِمْ مَا كَانَتْ لِتُعْطِيَهُمْ عَشْرَ هَذَا الْمَبْلَغِ.

وهذه العبودية للكيان الصهيوني انعكست على تفكير العمال، ونظرتهم إلى الأرض؛ فقد أصبحت الأرض عند بعضهم بدون أي قيمة، وأصبحت يسعون بكل الوسائل إلى بيعها للحصول على المال؛ فهذا علي جاء ذات مرة إلى جده عثمان مطالباً بحصته من الأرض؛ فغضب الجد، وقال بأن نصيبكم يصلكم كل عام من الزيت والزيتون والقمح والشعير؛ فوضع علي تبريراً لطلبه بأنه يريد الاهتمام بأرضه، ولكن الجد أجابه بأنه لم يمت.

ومما يدعوني إلى الجزم بأن الأرض لا تعني شيئاً لعلّي أنّ عمه عبد الهادي عندما أراد بناء بيت في أم الضباع، وذهب ليشتري قطعة أرض هناك وجد علياً يبني بيتاً هناك، والذي اقترح عليه أن يبيع له أرضاً لتمويل بناء البيت الذي يريد إقامته، وأنه سوف يبيعه بأعلى سعر؛ فرفض العم ذلك الاقتراح مُعللاً بأن الأرض لا تُباع⁽¹⁾.

أعتقد أنّ أحمد رفيق أخطأ في تصويره للواقع الفلسطيني بطريقة سوداوية؛ فالأرض لم تكن في يوم من الأيام عديمة القيمة، بل كانت قيمتها تزداد عند أصحابها عاماً بعد عام، ولم تتجح السياسات الصهيونية المتعاقبة في إبعاد الفلسطينيين عن أرضهم، وأخطأ أيضاً في تصوير علي ابن الشهيد كسمسارٍ للاحتلال يسعى لتسريب الأرض إلى الاحتلال؛ فالواقع يُخالف ذلك؛ فابن الشهيد حريصاً على قضايا شعبه أكثر من أبيه الشهيد.

وذهب بعض الباحثين إلى أنّ هذا التغيير الاقتصادي من فلاحه الأرض إلى العمل داخل الكيان الصهيوني كان له آثار خطيرة في توجهات الأفراد العقلية والسلوكية؛ فهناك من غرق في التدين مثل جواد، وهناك من غرق في ملذاته وشهواته حتى وقع في وحل التعاون مع الكيان الصهيوني مثل علي.

¹- يُنظر: المصدر السابق، ص 187-195.

وهذا ليس غريباً؛ ففي أيِّ مُجتمعٍ يشهدُ تَغْييراً اِقْتِصادياً وسياسياً لا بُدَّ لأفرادِ المُجتمعِ في غالبيّتهم أن يتجهوا إلى المِلذّات والشّهوات، أو يتجهوا إلى التّصوّف والزّهْد⁽¹⁾.

وكان يتوجّبُ على هؤلاء العُمالِ عدم التّدخُلِ في أمورِ وطنهم؛ فقد دار حوارٌ بينَ زيادٍ وجدّه حول مفهوم الاحتلال اللبيرالي؛ فوضّح زيادٌ هذا المفهوم بأنّ العمل في ورشات الكيان الصّهيوني بسِعْرِ رخيصٍ، ثمّ يُكافئُه على هذا بإقامة مشروع ماءٍ، أو كهرباء، أو فتح شارعٍ، أو الضمّ إلى التّأمين الصّحّي، وفي المُقابلِ يتوجّبُ عليه أن لا يتدخّل في أمورِ وطنه.

ومن الأمور التي سجّلناها الرّواية، والتي يتلمّسها كلّ مَنْ يعيش في الأراضي المُحتلّة أن أغلبيّة الشعبِ الفِلَسطيني تحوّل إلى عُمالٍ وعبيدٍ لدى الكيان الصّهيوني؛ فقد استيقظ زيادٌ فجأةً، ونظر من النّافذة القريبة؛ فرأى مشهداً غريباً؛ فقد كانت باصات العُمالِ تسيّرُ بين البيوت، وعندها استغربَ من ذلك العدد الهائل من العُمالِ؛ وتساءل إذا كان رجال الحيِّ عُمالاً كلّهم؛ فهم يذهبون إلى هناك، ولا أحدٌ يبقى هنا، وهل من المعقول أن نتحوّل كلّنا إلى عبيدٍ هناك؟ أليس لنا أراضٍ وبيوتٌ وأعمالٌ نمارسها؟⁽²⁾.

وذهب بعضُ البّاحثين إلى أنّ الغالب الصّهيوني فرض شروطه على المغلوب الذي لا حول له، وأجبره على العملِ أجيراً، عاملاً عندَ عدوّه، مُغتصبِ أرضه، ومُفَرّقِ الأهلِ والأصحابِ عنه⁽³⁾.

وحاولتُ الرّواية تفسيرَ ظاهرة العبوديّة للكيان الصّهيوني بأنّ هذه الدّولة استولت على ما فوق الأرض، وما تحتها؛ فقد دار حوارٌ بين زيادٍ وهشامِ ابن أحد الجيران؛ فزيادٌ يقول لهشامٍ بأنّه يستغربُ ويحزنُ كلّ صباحٍ عندَ رؤية رجال أمّ الضّبّاع يتحوّلون إلى عبيدٍ للكيان الصّهيوني في النّهار، وفي

الليل يتحوّلون إلى أسودٍ تتقاتلُ فيما بيّنها.

¹- يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفهم، ص100.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 101، ص200.

³- يُنظر: خواجة، علي، عين السّارد، ص142.

وكان ردُّ هشامٍ منطقيّاً على زياد؛ فالناسُ لا يستطيعون العيشَ إذا لم يَعْمَلُوا داخلَ الكيانِ الصّهيوني؛ فالاحتلالُ جعلَ أهلَ الضفّةِ يعتمدونَ عليهِ كُلَّ الاعتمادِ؛ فهو الذي يُطعمُ ويسقي ويُطوّرُ ويبني؛ لأنّه أخذَ الأرضَ، وما في باطنِها.

وفكرُ العبوديّةِ الذي ترسّخَ في عقليّةِ بعضِ العمّالِ لم يقتصرْ على التّهوينِ من قيمةِ الأرضِ، بل تجاوزَ ذلكَ إلى التّهوينِ من قيمةِ التّعليمِ المعروفِ بقديسيّتهِ لدى الفِلَسطينيّين؛ فقد أصبحَ عديمَ الأهمّيّةِ؛ فالكلُّ يطمحُ إلى العملِ داخلَ الكيانِ الصّهيوني؛ فقد جرى حوارٌ بين زياد ووالده عبد الهادي حولَ جارِهِمُ أبي هشامِ الفقيرِ، وسببِ فقره يتمثّلُ في تعليمِ أولادِهِ في المدارس، بالإضافة إلى دراسةِ ابنِهِ هشامَ في الخارجِ؛ فعندَها تساءلَ زيادٌ عن السببِ الذي يدعُو الفِلَسطينيّينَ للإصرارِ على تَعليمِ أولادِهِم؛ فسخرَ منهُ والدُهُ عبد الهادي بقوله أنّ الصّورةَ تغيّرتْ الآن؛ فالأولادُ يتركونَ المدرسةَ؛ لأنّ العاملَ يكسبُ أكثرَ من أحسنِ وظيفةٍ، فعليك أن تُقارنَ بين الذي تكسبه أختك لُبنى، والذي أكسبه أنا، أو جواد⁽¹⁾.

وأرى أنّ هذه النّظرةَ التّشاؤميّةَ خطأً بها أحمد رفيق أيضاً؛ فالتّعليمُ ظلّ مهمّاً جدّاً للفِلَسطينيّين حتّى يومنا هذا، ونسبةُ المتعلّمين بين الفِلَسطينيّين هي الأعلى في جميع أنحاء الوطن العربي؛ ولعلّ هذا التّشاؤمُ مردّه إلى الحياة القاسية التي عاشها أحمد رفيق، والتي جعلته ينظر إلى كلّ شيءٍ بسوداويّة. وهناك من رأى أنّ الكيانِ الصّهيوني سعى جاهداً إلى مُحاربةِ التّقافةِ والتّعليمِ العربيّين بكُلِّ الطّرقِ في الضفّةِ الغربيّةِ وقطاعِ غزّةِ منذُ سُفوطِها في يدِ هذه الدّولة؛ فلمْ تكتفِ بجعلِ الأولادِ يتركونَ مدارسهم، ويعملونَ داخلَ الكيانِ الصّهيوني، بلْ قطعتْ الجسورَ التي تربطُ المواطنِ الفِلَسطينيّين بأصولِهِ العربيّةِ⁽²⁾.

1 - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 242 - 244، ص 249.

2- يُنظر: الشّحادة، يوسف محمد ذياب، الرّواية الفِلَسطينيّة في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة، ص 16.

وتبيّن أنّ هناك إصراراً على العمل داخل الكيان الصهيوني بشكلٍ مُنقطع النّظير؛ فزياداً فكَرَ في حَزَقِ الباص الذي ينقلُ العَمال داخل الكيان الصهيوني؛ ولكنّه وجدَ أنّ هذه الفكرة لن تنفع، وسيطلب العَمال أنفسهم باصاً آخر.

أراد زيادُ العمل على إيقاظ ضمير العَمال، ويجعلُهُم يشعرون بالأسى لعملهم داخل الكيان الصهيوني؛ فتسلّل ذات ليلةٍ إلى بيتِ عالٍ، وعلّق عليه علماً كبيراً لفلسطين؛ فشاهد العَمال في الصّباح العلم يُرفرفُ، واندَهش زياد عندما فُوبل الأمر بسُخريّةٍ ظاهرة؛ فقد قال أبو حسين الذي يعملُ عاملاً بأنّهم علّفوا علماً؛ لأنّهم لا يزالونَ يحلُمونَ بدولةٍ، وأمّا سُلَيْمانُ الذي يُتاجرُ بالحشيش فتحدّثَ بأنّ الفلَسطينيين يتقَاتلون في لبنان؛ فالعربُ جنسٌ وسِخٌ.

تدخّل فتحي بقوله أنّ كلّ شيءٍ بيد الكيان الصهيوني؛ فهو لن يُسحبَ من هُنا، وأمّا أبو حلمي العامل في مصنع الحديد فردّ على ما سبق بأنّنا لن نتحرّرَ بدونَ مجيء المُسلمين الحقيقيين، وتدخّل آخر قائلاً بأنّنا كالأسرى في الضفّة الغربيّة، ولن نستطيع عمل شيءٍ؛ فتعلّق العلم ليس سوى إشارةٍ لمشاعرِ الأسرى فقط، وهذا حُلْمٌ فقط، وكان ردُّ آخر سلبياً إلى أبعد حدٍّ؛ فقد علّق بأنّ الذي رفع العلم لم يُردّ سوى مُضايقة أهل الحيّ؛ فستحضر الشرطة والجيش والمخابرات ويبدؤون بالتحقيق.

ومن المُستغرب أنّ هذا العلم لم يترك ردةً فعلٍ عند أيّ أحدٍ من العَمال فلما سمعوا صوتَ الباصِ من بعيدٍ بحث كلّ واحدٍ منهم عن زوّادته، ثمّ صعدوا جميعاً إليه⁽¹⁾.

ولعلّ ما سبق يُشيرُ إلى أنّ شريحة العَمال الاجتماعيّة داخل الكيان الصهيوني وقعت بين شِقْفي رَحَى الحاجة إلى توفير لُقمة العيش من ناحية، واعتراض المُقاومة الفلَسطينيّة على عملهم دون أن

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 295-296.

تُوَفِّرَ لَهُمُ الْبَدِيلَ الْمُنَاسِبَ، وليس من المنطق في شيء أن يَتِمَّ منع النَّاسِ عن العملِ في مَكَانٍ مَا دُونَ تَوْفِيرِ مَكَانٍ عَمَلٍ بَدِيلٍ يُسَاعِدُهُمْ عَلَى كَسْبِ لُقْمَةِ الْعَيْشِ⁽¹⁾.

ثانياً: العُمَلَاءُ وسِماسرة الاحتلال:

من البديهيَّات المعروفة عن أيِّ احتلالٍ سَعِيهِ الْمُتَوَاصِلِ لإيجادِ عُمَلَاءٍ وَمُتَعَاوِنِينَ مِنْ أَفْرَادِ الشَّعْبِ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِلاحتلالِ؛ وذلكَ لِمْسَاعِدَتِهِ فِي تَنْفِيذِ مَخْطَطَاتِهِ الْكثِيرَةِ؛ وهذا ما وجدته في الرواية .
وهناك بعض الباحثين تطرّفوا إلى تعريف الشخص المرتبط مع سلطات الاحتلال؛ فالدكتور فضل أبوهين عرّف العميلَ بأنه(الَّذِي يَهْدَفُ إِلَى جَمْعِ الْمَعْلُومَاتِ عَنْ أَشْخَاصٍ مَحَلِّيِّينَ، وَتَوْصِيلِهَا إِلَى سُلْطَاتِ الْاِحْتِلَالِ، أَوْ مُحَاوَلَةِ إِسْقَاطِ عُنَاوَرٍ أُخْرَى، وَالتَّأثيرِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ الْارتِبَاطِ مَعَ جِهَازِ الْاِسْتِخْبَارَاتِ الْاِسْرَائِيلِيَّةِ)⁽²⁾.

قامَ الكيان الصّهيوني بِنَشْرِ ظَاهِرَةِ الْعُمَلَاءِ بَيْنَ أبنَاءِ الشَّعْبِ الْفِلَسْطِينِي، وَكَانَتْ تَسْمَحُ لَهُمْ بِحَمَلِ الْأَسْلِحَةِ لِحِمَايَةِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَضَبِ الشَّعْبِ، وَلَمْ يَتَوَقَّفِ الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ تَبَيَّنَ أَنَّ بَعْضَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ الَّذِينَ بَقُوا فِي أَرْضِهِمْ دَاخِلَ الْكِيَانِ الصّهيوني عَمِلُوا فِي صُفُوفِ جَيْشِ الْعَدُوِّ .

بعد قيام علي الرّمحي بِتَطْلِيْقِ زَوْجَتِهِ مِنْ آلِ الطّوَاشِي انْدَلَعَتْ اِسْتِيَاكَاَتُ عَائِلِيَّةٍ بَيْنَ الْعَائِلَتَيْنِ؛ فَقَامَ أَحَدُ آلِ الرّمحي بِإِسْهَارِ مُسَدَّسِهِ فِي وَجْهِ آخِرِ مِنْ آلِ الطّوَاشِي فِي الْمَقْهَى، ثُمَّ انْدَلَعَ عِرَاكٌ شَدِيدٌ بَيْنَ الْعَائِلَتَيْنِ، وَفِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْاِسْتِيَاكَاَتِ اجْتَمَعَ زِيَادُ الرّمحي مَعَ صَدِيقِيهِ مِنْ عَائِلَةِ الطّوَاشِي زكي ورشدي وراءَ صَبَّارٍ أُمَّ أَحْمَدَ؛ فَاقْتَرَحَ زِيَادٌ حَرْقَ بَيْتِ ذَلِكَ الْعَمِيلِ الَّذِي أَشْهَرُ مُسَدَّسًا، ثُمَّ كَتَبُوا وَثِيقَةً بَعْدَ عَزْرِ الدَّبُّوسِ فِي إِبْهَامِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْوَثِيقَةُ تُنصُّ عَلَى أَنَّ الْأَصْدِقَاءَ سَتَدُومُ صِدَاقَتَهُمْ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَنْ يُفَرِّقَهُمْ إِلَّا الْمَوْتُ، ثُمَّ حَفَظُوهَا تَحْتَ الصَّبَّارِ لِتَبْقَى خِضْرَاءَ حَيَّةً، ثُمَّ عَادُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ، وَقَامَ زِيَادٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِحَرْقِ بَيْتِ الْعَمِيلِ .

¹- يُنظَر: أَيُوبُ، مُحَمَّدٌ، الزَّمَنُ وَالسَّرْدُ الْقِصَصِي فِي الرِّوَايَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ، ص 79.

²- الْعَيْلَةُ، زَكِي، صُورَةُ الدَّاتِ وَصُورَةُ الْآخِرِ، ص 38.

وفي زمن الهزيمة تكثُر الوشاية والخيانة؛ فصديقا زياد لم يكونا على قدر المسؤولية، بل إنَّ أحدهم تجاوز الحدَّ بتعاونيه مع الكيان الصهيوني؛ فقام بالاعتراف على زياد بأنه حرق بيت العميل، وعلى إثر هذا الاعتراف اعتُقل ذات ليلة، ووضِع في زنزانه صغيرة .

واتضح خلال مشاهد الاعتقال والتحقيق أنَّ هناك جنوداً وضباطاً ينتمون إلى فلسطين الداخل؛ فمنهم سليمان الذي كان يعمل سجاناً، والذي انهال على زياد ضرباً⁽¹⁾.

ولا أستطيع الجزم في حقيقة أسماء ضباط التحقيق الذين حققوا مع زياد؛ فمنهم أبو ماهر، وأبو علي، ويبقى التساؤل قائماً: هل هؤلاء عرب حقيقة أم أسماء وهمية لضباط يهود؟.

ومنَّ المخزن أنَّ بعض الفلسطينيين أصبَحوا يقفون في صفِّ العملاء في كثيرٍ من الأمور على الرغم من تيقنهم من كونهم يقفون إلى جانب الباطل؛ وذلك طمعاً في المصالح التي يحصلون عليها عن طريق هؤلاء العملاء؛ فالذي يريد أن يتوظف في أيِّ وظيفة لأبد له من عميلٍ يقوم بتسهيل أمر هذه الوظيفة؛ فزيادٌ سجِنَ بعضَ الوقت لإحراقه بيت العميل قاسم الرمحي الذي أشهر مُسدساً في وجه آخر من آل الطواشي، وبعدَ خروجه من السجن وجد أنَّ هذا المتعاون يُطالبُ بتعويضٍ عن حرق بيته؛ ففي اجتماع لعائلة الرمحي في الديوان وقف هذا المتعاون، وصرخ بقوة بأنه لا يكتفي بمجرّد سجن زياد، فالسجن حقٌّ عامٌّ، وأتّه يُطالبُ بالحقِّ العشائري، تدخّل عُثمان عند ذلك، واتهمه بالعمالة؛ فردَّ عليه هذا العميل بأنه عجوزٌ مجنونٌ، وأصابه الخرف .

أصبح هذا العميل يُرسلُ الوفدَ تلوَ الوفدِ طالباً التعويض من عبد الهادي والد زياد، ولكنه لم يستجب له؛ ففوجئ زيادٌ وأسرتهُ أنَّ كثيراً من آل الرمحي يقفون إلى جانب هذا العميل، ويطلبون له

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 130-134، ص 159 - 170.

بالتعويض مع أنهم يعرفون حقيقة هذا العمل؛ ولذلك لم يكن مستغرباً أن يتعرّض للضرب والمضايقة من أفراد العائلة⁽¹⁾.

وواضح أن الاحتلال دعم ظاهرة العملاء، وجعل بأيديهم الحلّ والربط في توظيف أبناء الشعب الفلسطيني في الوظائف والأعمال؛ فأصبح الناس يتفرّجون منهم، ويطلبون ودّهم؛ فلبنى بنت عبد الهادي عندما أرادت أن تتوظّف معلّمة لم يجد والدها إلاّ العمل قاسم الرّمحي الذي أحرق ابنه بيته؛ وذلك بعد أن أنهت تعليمها الجامعي في جامعة النجاح .

ولبنى دنست نفسها بالتوظيف عن طريق أحد العملاء، ولكنها تطهرت في نهاية الرواية عندما ساهمت في قتل ابن عمها علي الذي أصبح عميلاً وسمساراً للاحتلال⁽²⁾.

ويظهر من خلال الرواية نفسية المتعاون؛ فهو إنسان ضعيف ينفاد وراء الرذيلة بفعل طمعه وجشعه، وضميره يختفي تدريجياً حتى يصبح عبداً لمشتريه.

وهذا يتضح من خلال الحوار الذي جرى بين علي وتوفيق الساري المتعاونين مع الكيان الصهيوني؛ فقد قال الثاني للأول بأن المتعاون ضعيف مهزوز الرؤية، ولكنه منطرف قليلاً تماماً كالوطني، وهو يقف على نقيض من المتعاون، وهناك من يرى بأن حشر هذا الكلام غير مقبول؛ وذلك لأنه يبرر للمتعاون أفعاله⁽³⁾.

وهذا الرأي مردود عليه من وجهة نظري؛ فهذا ليس تبريراً لأفعال المتعاون بقدر ما هو تفسير لدوافع التعاون مع الاحتلال .

¹ - يُنظر : عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 177-178.

² - يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص 9.

³ - يُنظر: المرجع السابق، ص 84-86.

وجميلُ السَّلْحُوتِ اسْتَعْرَبَ كَيْفَ تَحَوَّلَ عَلِيٌّ ابْنُ الشَّهِيدِ صَالِحٌ إِلَى إِنْسَانٍ سَيِّئٍ يُقِيمُ الْعَلَاقَاتِ غَيْرَ الْمَشْرُوعَةِ مَعَ نِسَاءِ عَاهِرَاتِ، وَيَتَرَدَّدُ بِاسْتِمْرَارٍ عَلَى الْأَمَاكِنِ الْمَشْبُوهَةِ دَاخِلِ الْكِيَانِ الصَّهْيُونِيِّ، ثُمَّ يُصْبِحُ سِمْسَارًا لِلْاِحْتِلَالِ، وَيَعْمَلُ مَعَهُمْ؟⁽¹⁾

وَأُرِدُّ عَلَى هَذَا الْاِسْتِعْرَابِ بِأَنَّ تَحَوَّلَ ابْنُ الشَّهِيدِ إِلَى سِمْسَارٍ، وَمُتَعَاوَنٍ مَعَ السَّلْطَاتِ الصَّهْيُونِيَّةِ أَمْرٌ نَادِرٌ الْحُدُوثِ؛ فَكَثِيرًا مَا يَكُونُ ابْنُ الشَّهِيدِ مُتَمَسِّكًا بِالْقَضَايَا الْوَطَنِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ وَالِدِهِ، وَيَعْتَبِرُ هَذَا التَّمَسُّكَ وَصِيَّةً مِنْ وَالِدِهِ لِأَبَدٍ مِنْ تَنْفِيذِهَا؛ وَلَكِنِّي أَسْتَطِيعُ تَفْسِيرَ الظَّاهِرَةِ النَّادِرَةَ لِتَحَوَّلِ عَلِيِّ إِلَى سِمْسَارٍ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيطٌ مِنَ الْخَيْرِ وَمِنَ الشَّرِّ؛ فَأَحْيَانًا يَتَغَلَّبُ الْخَيْرُ، وَأَحْيَانًا يَتَغَلَّبُ الشَّرُّ؛ فَعَلِيٌّ عِنْدَمَا صُدِمَ مِنْ رَفْضِ ابْنِهِ الَّتِي يُحِبُّهَا لَهُ أَحْسَنَ أَنْ الْعَالَمَ الَّذِي يُحِبُّهُ قَدْ انْهَارَ؛ فَهَذَا أَخَذَ يَبْحَثُ عَنِ عَالَمٍ آخَرَ يُقَدِّمُ لَهُ الْحُبَّ وَالْحَنَانَ؛ وَهَذَا قَامَ الْكِيَانُ الصَّهْيُونِيُّ بِاصْطِيَادِهِ عَنِ طَرِيقِ أَوْرِيَّتِ؛ فَهَذِهِ الْفَتَاةُ الصَّهْيُونِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ يَنْحَدِرُ أَصُولُهَا مِنَ الْيَمَنِ أَحَبَّهَا عَلِيٌّ حُبًّا كَثِيرًا، وَالَّتِي قَدَّمَتْ لَهُ الْحُبَّ وَالْحَنَانَ، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تُؤَدِّقَهُ لِحِدْمَةِ هَذَا الْكِيَانِ.⁽²⁾

وَالْكِيَانُ الصَّهْيُونِيُّ لَمْ يَكْتَفِ بِجَعْلِ مُعْظَمِ الشَّعْبِ الْفِلَسْطِينِيِّ عُمَّالًا وَعَبِيدًا لَهُ، بَلْ جَعَلَ بَعْضَهُمْ عُمَّالًا وَسِمَاسِرَةً لِلْاِحْتِلَالِ؛ فَهَذَا عَلِيٌّ قَابَلَ ذَاتَ مَرَّةٍ غَابِرِيئِيلَ فِي إِحْدَى مَلَاهِي الشَّدُوذِ فِي تَلِّ أَبِيبِ، وَكَانَ بِصُحْبَةِ غَابِرِيئِيلَ أَسْعَدُ حَمُودَةَ مُخْتَارَ قَرْيَةٍ مِنْ قَرْيِ طُولُكْرَمِ؛ فَطَلَبَ مِنْ عَلِيِّ فِي هَذِهِ الْمُقَابَلَةِ أَنْ يَعْمَلَ فِي شَرِكَةِ الْعَقَارَاتِ الَّتِي زَعَمَ غَابِرِيئِيلُ مِلْكِيَّتَهَا، وَهَذِهِ الشَّرِكَةُ تَشْتَرِي كُلَّ شَيْءٍ، بُيُوتًا، أَرْضًا، أَثَاثًا، وَكُلَّ شَيْءٍ يُمَكِّنُ شِرَاؤَهُ .

يُخْبِرُ غَابِرِيئِيلَ عَلِيًّا أَنَّ عَمَلَهُ يَتَلَخَّصُ بِأَنْ يُصْبِحَ وَكِيلاً لِلشَّرِكَةِ فِي مَنطِقَةِ جَنِينِ مِثْلَ أَسْعَدِ حَمُودَةَ الَّذِي يَعْمَلُ وَكِيلاً لِلشَّرِكَةِ فِي مَنطِقَةِ طُولُكْرَمِ؛ وَهَذَا الْعَمَلُ يَنْطَلُبُ إِقْنَاعَ الْعَرَبِيِّ بِبَيْعِ أَرْضِهِ لَهُ، ثُمَّ بَيْعِهَا

1 - يُنظَرُ: الْخَوَاجِعَةُ، عَلِيٌّ، جَوَائِزُ الْفَحْمِ، ص 84-86.

2 - يُنظَرُ: الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 84-86.

لِغَابِرْيِيلَ؛ فَالْعَرَبِيُّ لِابْتِيعِ لِلصَّهَابِينَةِ مُبَاشِرَةً، وَعَلِي سَيَحْصِلُ عَلَى عُمُولَةٍ تَصِلُ إِلَى عِشْرِينَ بِالمِئَةِ،
وَبالإِضَافَةِ إِلَى هَذِهِ العُمُولَةِ سَيَأْخُذُ عَلِي رَاتِباً شَهْرِيّاً مُقَابِلَ هَذَا العَمَلِ .

تَدَخَّلَ أَسْعَدُ حَمُودَةَ الَّذِي جَاءَ بِصُحْبَةِ غَابِرْيِيلَ مُحَاوِلاً إِقْنَاعَ عَلِي بِهَذَا العَمَلِ؛ فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ هَذَا العَمَلِ
سَهْلٌ جِداً، وَالنَّاسَ جَمِيعُهُمْ يُرِيدُونَ بِيَعِ الأَرْضِ؛ فَهِيَ لَمْ تَعُدْ تُسَاوِي شَيْئاً فِي نَظَرِهِمْ، وَأَنَّهُ يَكْسِبُ
الأَلُوفَ مِنَ اللِّيَرَاتِ⁽¹⁾.

وَمِنَ الجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ العُمَّاءَ وَسِمَاسِرَةَ الاِحتِلالِ أَعْطَاهُمُ الكِيانَ الصَّهْيُونِي بَعْضَ الامْتِيازاتِ،
وَمِنَ تِلْكَ الامْتِيازاتِ عَدَمُ تَطْبِيقِ القَانُونِ الصَّهْيُونِي عَلَيْهِمْ؛ فَعَلِي عادَ مَعَ غَابِرْيِيلَ وَأَسْعَدَ حَمُودَةَ إِلَى
سَيَّارَتِهِ بِالقُرْبِ مِنْ دَارِ السَّيْنِمَا؛ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ سَهَرُوا كَثِيراً فِي إِحْدَى مَلاهي تَلِّ أُبَيْبٍ؛ فَفُوجِئُوا جَمِيعاً
بِتَجْمُهُرِ كَبِيرِ لِرجالِ الشُّرْطَةِ حَوْلِها؛ فَحَشَرَ غَابِرْيِيلَ نَفْسَهُ بَيْنَ رِجالِ الشُّرْطَةِ، وَصارَ يَشْرَحُ لَهُمْ،
وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْتَنِعُوا، ثُمَّ جَازُوا إِلَى عَلِي، وَطَلَبُوا مِنْهُ البِطَاقَةَ الشَّخْصِيَّةَ وَالأوراقَ الثَّبوتِيَّةَ الأُخْرَى؛ فَصاحَ
بِهِ غَابِرْيِيلَ بِأَنَّهُ عَرَبِيٌّ عَلَى كَيْفِكَ، وَلَكِنَّ الشُّرْطِي لَمْ يَهْتَمُّ، وَأَنهَمَكَ فِي تَسْجِيلِ كُلِّ الأُمُورِ الَّتِي تَهَمُّهُ،
ثُمَّ أَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ عَرَبِيٌّ مِنَ الضَّفَّةِ، وَلَا يَحِقُّ لَهُ البِقاءُ داخِلَ حُدُودِ دَوْلَةِ الكِيانِ الصَّهْيُونِي بَعْدَ السَّاعَةِ
الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ؛ وَلِذَلِكَ فَهُوَ مُخالِفٌ للقَانُونِ، وَسَيَقْدِمُهُ لِلْمُحاكَمَةِ؛ فَتَأَبَّطَ غَابِرْيِيلَ ذِرَاعَ الشُّرْطِي، وَسَحَبَهُ
إِلَى بُعْدِ أَمْتارٍ، ثُمَّ أَخَذَ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ؛ فَهَزَّ الشُّرْطِي رَأْسَهُ فَرِحاً، وَقامَ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَسْلِيمِ عَلِي أوراقَهُ،
وَهُوَ يَقُولُ: آسَفٌ عَلَى الإِزْعاجِ...أَنْتَ عَرَبِيٌّ عَلَى كَيْفِكَ⁽²⁾.

وَالعَمِيلُ لِلاِحتِلالِ وَالسَّمْسارِ وَجْهانِ لِعَمَلَةٍ واحِدَةٍ، فَكِلاهُما يَخْدُمُ الأَمْنَ الصَّهْيُونِي؛ فَهَذَا تَوْفِيقٌ
السَّارِي أَحَدَ العُمَّاءِ الَّذِي كانَ يَسْكُنُ فِي قَدْرُونَ فِي حَيِّ أُمِّ الضَّبَّاعِ قَدْ أَعْلَنَ ذاتَ يَوْمٍ إِنَّهُ بِحاجَةٍ إِلَى
عُمالٍ؛ فَتراكِضَ الجَمِيعِ نَحْوَهُ؛ فَاخْتارَ مِنْهُمْ سَبْعَةَ رِجالٍ أَشْداءَ، وَتَوَجَّهَ بِهِمْ إِلَى ورْشَةِ بِناءٍ فِي حِيفاءَ،
وَبَعْدَ أَنْ باشَرَ كُلُّ عَمالٍ عَمَلَهُ انْطَلَقَ تَوْفِيقُ السَّارِي إِلَى شَقَّةِ صَغِيرَةٍ بِالقُرْبِ مِنَ المِيناءِ حَيْثُ يُقِيمُ

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفیق، قدرون، ص 228-233.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفیق، قدرون، ص 234-235.

غَابِرِيْل، وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ جَاءَ غَابِرِيْل، وَمَعَهُ رَجُلَانِ إِلَى الشَّقَّةِ الَّتِي كَانَ يَسْكُنُهَا تَوْفِيْقُ السَّارِي، ثُمَّ انْطَلَقُوا جَمِيعاً إِلَى مَكَانٍ فَسِيحٍ مُحَاطٍ بِسِيَاحٍ مِنَ الْأَسْلَاقِ الشَّائِكَةِ؛ فَشَاهَدَ تَوْفِيْقُ رَجُلًا أَصْلَحَ؛ فَقَدَّمَهُ غَابِرِيْلُ عَلَى أَنَّهُ رَئِيسُ الشَّرْكََةِ الَّتِي يَعْمَلُ بِهَا، وَالَّذِي أَبْدَى إِعْجَابَهُ مِنْ نَشَاطِهِ فِي عِلَاقَتِهِ بِالْكَابِتِيْنَ أَبِي مَاهِرٍ، وَلَكِنَّهُ رَأَى أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى قَلِيلٍ مِنَ التَّدْرِيْبِ عَلَى السَّلَاحِ، وَعَلَى جَمْعِ الْمَعْلُومَاتِ، وَخَلَقَ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةَ، وَبَعْضَ الْمَعْلُومَاتِ الْفَنِّيَّةِ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَتَلَقَّى رَاتِبًا كَبِيرًا، وَيَقِي فِي الْمَكَانِ الْمُحَوِّطِ بِالسِّيَاحِ يَوْمِيْنَ كَامِلِيْنَ لِلتَّدْرِيْبِ عَلَى أَشْيَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ .

عَادَ تَوْفِيْقُ السَّارِي إِلَى الشَّقَّةِ الَّتِي يُقِيمُ فِيهَا فِي حِيْفَا؛ فَجَاءَهُ غَابِرِيْل، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ قَدْ صَدَرَ قَرَارٌ حُكُومِيٌّ بِنِيبَاءِ مُسْتَوْنَةِ قَرَبِ قَدْرُونِ، وَالَّتِي سَوْفَ تَقُومُ عَلَى أَرْضٍ حُكُومِيَّةٍ وَأَرْضٍ خَاصَّةٍ، وَهَذِهِ الْأَرْضُ الْخَاصَّةُ تَعُودُ مِلْكِيَّتُهَا لِرَجُلٍ يُدْعَى عَثْمَانَ الرَّمْحِي؛ فَعِنْدَهَا ضَحْكُ تَوْفِيْقِ، وَقَالَ بِأَنَّ هَذَا جَدُّ عَلِي الرَّمْحِي؛ فَفَرِحَ غَابِرِيْل، وَقَالَ بِأَنَّ هَذَا سَوْفَ يُسَهِّلُ عَلَيْنَا الْعَمَلِيَّةَ⁽¹⁾.

ثَالِثًا: الْإِجْرَاءَاتُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ:

مِمَّا لَاشْكُ فِيهِ أَنَّ أَيَّ احْتِلَالٍ لَأَبْدَ أَنْ يُرْفَقَهُ إِجْرَاءَاتٌ يُؤَكِّدُ سَيْطَرَتَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ الْمُحْتَلَّةِ، وَلَعَلَّ أَهْمَ هَذِهِ الْإِجْرَاءَاتِ نَشْرُ ثِقَافَةِ الْإِحْتِلَالِ، وَمِنْ تِلْكَ الثَّقَافَةِ الدَّعَايَةُ الْمُضَلِّلَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى مَدْحِ الْكِيَانِ الصَّهْيُونِي، وَالَّتِي تَبْنَاهَا الْعَمَالُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ دَاخِلَ هَذَا الْكِيَانِ، وَأَخَذُوا يَنْشُرُونَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعَ أَنَّ الْوَاقِعَ كَانَ يُنَاقِضُ ذَلِكَ؛ فَهَذِهِ لُبْنَى ابْنَةِ عَبْدِ الْهَادِي ذَهَبَتْ لِإِكْمَالِ دِرَاسَتِهَا الثَّانَوِيَّةِ فِي جَنِينِ، وَفِي يَوْمٍ مَاطِرٍ رَأَتْ لُبْنَى دَاخِلَ الْبَوَابَةِ الْكَبِيرَةِ تَجْمَعَاتٍ غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ لِلطَّالِبَاتِ، وَكَانَتْ رِبَابَ تَتَحَدَّثُ مَعَهُنَّ بِجِدَّةٍ، ثُمَّ سَأَلَتْ لُبْنَى عَنِ تَلْبِيَّتِهَا لِنِدَاءِ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْمُنَظَّاهِرَةِ الْإِحْتِجَاجِيَّةِ عَلَى مُمَارَسَاتِ السُّلْطَاتِ تَجَاهَ الْمُعْتَقَلِيْنَ فِي السَّجْنِ، وَعِنْدَهَا اسْتَفْسَرَتْ لُبْنَى عَنِ هَذِهِ الْمُمَارَسَاتِ؛ فَأَجَابَتْهَا بِأَنَّ الْمُعْتَقَلِيْنَ مُضْرِبُونَ عَنِ الطَّعَامِ احْتِجَاجًا عَلَى الْمُعَامَلَةِ السَّيِّئَةِ؛ فَعِنْدَهَا تَذَكَّرَتْ لُبْنَى أَنَّهُ لَا تَذَكَّرُ كَلِمَةً

¹ - يُنْظَرُ: عَوْضُ، أَحْمَدُ رَفِيقُ، قَدْرُونُ، ص 252-256.

واحدةً عَنِ الْمُعْتَقِلِينَ فِي الْبَيْتِ؛ فَوَالِدَهَا وَأَخْوَاهَا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي مَرْعَةِ إِسْرَائِيلَ يَتَحَدَّثُونَ بِأَنَّ إِسْرَائِيلَ يُحِبُّ الْعَرَبَ .

تَجْمَعُ طُلَّابُ الْمَدَارِسِ الْآخَرَى أَمَامَ الْبَوَابَةِ الرَّئِيسِيَّةِ لِلْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ لِلْبَنَاتِ، وَأَخَذُوا يَهْتَفُونَ بِشِعَارَاتٍ تَحْتُ الطَّالِبَاتِ عَلَى الْمَشَارِكَةِ فِي الْمُظَاهِرَةِ، ثُمَّ انْهَالَتْ أَمْوَاجٌ بَشَرِيَّةٌ مِنَ الطَّالِبَاتِ إِلَى الْبَوَابَةِ الرَّئِيسِيَّةِ؛ فَانْجَرَّتْ لُبْنَى مَعَ الْبَحْرِ الرَّآخِرِ، وَفَجْأَةً ظَهَرَ الْجُنُودُ، وَأَطْلَقُوا الرِّصَاصَ، عِنْدَهَا رَمَى النَّاسُ مَا يَحْمِلُونَ مِنْ حِجَارَةٍ وَزَجَاجَاتٍ فَارِغَةٍ، وَفَجْأَةً اخْتَفَى النَّاسُ مِنَ الْمَكَانِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْجُنُودُ، وَكَانَتْ هُنَاكَ جُنَّةٌ مُدَدَّةٌ عَلَى الْأَرْضِ بِلِبَاسٍ أَخْضَرَ، وَأَمَّا لُبْنَى فَلَمْ تَعْرِفْ كَيْفَ وَصَلَتْ إِلَى الْبَيْتِ، وَتَبَيَّنَ فِيهَا بَعْدَ أَنْ الْجُنَّةُ تَعُودَ لِإِحْدَى الطَّالِبَاتِ فِي الْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ، وَتُدْعَى رُقِيَّةَ .

ويظهر من خلال الرواية أن العمال الذين سخروا حياتهم للعمل داخل الكيان الصهيوني كالعبيد قد قاموا بنشر صورة خاطئة عن الاختلال الذي لم يتغير، والذي بقي كعادته يقتل ويعتقل^(١).

ولم يكتف الكيان الصهيوني بالاعتماد على العبيد لنشر الصورة التي تُريدها، بل اعتمدت على نفسها، وروجت لهذه الصورة في الأراضي المحتلة عام 1948م، والتي تُسميها زوراً وبُهتاناً إسرائيل؛ فإثناء وجود علي في الشقة التي يُقيم بها في حيفا وكان معه أوراق ملكية الأرض قال له غابرييل بأنه رتب له موعداً مع الرب شليطا في بيته في طبعون، فانطلقا إليه، ثم وصلا بيتاً كبيراً، فضغط غابرييل على زرٍّ أحمر؛ فإذا بالبوابة تُفتح تلقائياً، ثم دخلا معاً؛ وعندها قام بتعريف علي على الرب شليطا، والذي بدوره أبدى إعجابهُ بعلي لكونه الوحيد الذي يفهم مصلحة العرب الأولى، ثم قال له بأن المستوطنة التي سُقِمتُها بالقرب من قدرون ستكون علامة حضارية، وسيعملُ بها العرب ويكسبون،

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 40-48.

²- يُنظر: المصدر السابق، ص 310-312.

وسَيَتَطَوَّرُونَ مَعَهَا وَبِهَا، وَالْمُسْتَوْتونة وَالاسْتَيْطَان مُفِيدٌ لِلْعَرَبِ فِي يَهُودَا وَالسَّامِرَة (التَّسْمِيَة الصَّهْيُونِيَّة لِلضَّفَّة الْغَرِيبِيَّة)، وَكَمَا أَنَّهَا تُقَرَّبُ مَا بَيْنَ الشَّعْبِيْنِ الْمُتَحَارِبِيْنِ؛ فَالْجُورَ يَخْلُقُ عِلَاقَاتٍ حَسَنَةً، وَسُنُقِيْمٌ فِي هَذِهِ الْمُسْتَوْتونة مَصْنَعًا كَبِيْرًا تُمَوَّلُهُ شَرِكَة أَمْرِيْكِيَّة كَبِيْرَة يَتَسَعُ لِأَلْفِ عَامِلٍ عَرَبِيٍّ؛ فَالرَّابُّ شَلِيْطَا كَانَ لَايَعْتَبِرُ الْكِيَان الصَّهْيُونِي مُحْتَلًّا، بَلْ إِنَّ الشَّعْبَ الْيَهُودِي يَعُودُ إِلَى وَطْنِهِ الْقَدِيْمِ الْجَدِيْدِ .

وَلَمْ يَتَوَقَّفِ الْأَمْرَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مِنْ نَشْرِ الْإِدْعَاءَاتِ الصَّهْيُونِيَّةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا أَيُّ أَسَاسٍ، وَهَذِهِ الْإِدْعَاءَاتُ تَتَشَابَهُ كَثِيْرًا مَعَ الْمَزَاعِمِ الْاسْتَعْمَارِيَّةِ مِنْ نَشْرِ التَّطَوُّرِ، بَلْ إِنَّ الرَّابَّ شَلِيْطَا لَدَيْهِ إِدْعَاءَاتُ دِيْنِيَّةٍ؛ فَهُوَ يَعْتَقِدُ بِأَنَّ الْجَمَاعَةَ الَّتِي يَتْرَأْسُهَا تُؤْمِنُ إِيمَانًا قَاطِعًا أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَهَا لِمَهْمَّةِ تَعْمِيْرِ يَهُودَا وَالسَّامِرَة، وَتُؤْمِنُ بِأَنَّ الْمَسِيْحَ الْمُنتَظَرَ سَيُظْهِرُ فِي السَّامِرَة فِي بُقْعَةٍ جَبَلِيَّةٍ^(١).

وَمِنَ الْأَبْجَدِيَّاتِ السِّيَاسِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي التَّارِيخِ الْفِلَسْطِيْنِي سِيَاسَة الْكِيَان الصَّهْيُونِي فِي طَمْسِ الْمَنَاطِقِ الْفِلَسْطِيْنِيَّةِ، وَإِقَامَة الْمُدُنِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ مَكَانَهَا؛ فَهَذَا عَلِيٌّ ذَهَبَ مَعَ بَعْضِ الْأَصْدِقَاءِ إِلَى بَارَاتِ تَلِ أَبِيبِ، وَعِنْدَ مُرُورِهِمْ بِمَدِيْنَةِ نَتَانِيَا قَالَ أَحَدُ الْأَصْدِقَاءِ مِنْ فِلَسْطِيْنِ الدَّاخِلِ بِأَنَّ هَذِهِ الْمَدِيْنَةَ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ سَبْعِيْنِ عَامًا، وَكَانَ مُقَامًا عَلَيْهَا خَرِبَةٌ أُمَّ خَالِدٍ، وَأَرْضِي هَذِهِ الْخَرِبَةُ كَانَ يَمْلِكُهَا رَجُلٌ غَنِيٌّ؛ فَجَاءَ الْيَهُودُ إِلَيْهِ لِيَسْتُرُوا مِنْهُ هَذِهِ الْأَرْضَ؛ فَرَفِضَ الْبَيْعَ؛ وَلِذَلِكَ قَامَ الْيَهُودُ بِتَسْلِيْطِ النِّسَاءِ وَالْكِيفِ عَلَيْهِ؛ فَاحْتِاجَ الرَّجُلِ إِلَى النُّقُودِ مِمَّا جَعَلَهُ يَنْدْفِعُ إِلَى بَيْعِ الْمَزِيْدِ وَالْمَزِيْدِ مِنَ الْأَرْضِي الَّتِي يَمْلِكُهَا، وَفِي آخِرِ صَفْقَةٍ بَاعَ كُلَّ مَا يَمْلِكُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَلِمِ الْقِسْمَ الْأَكْبَرَ مِنَ الْمَبْلَغِ، وَبَعْدَ أَنْ تَهَجَّرَ مِنْ بَيْتِهِ سَنَةَ 1948م ذَهَبَ إِلَى طُولُكْرَمَ؛ فَلَمَّا تَذَكَّرَ أَنَّهُ بَاعَ أَرْضَهُ وَلَمْ يَسْتَلِمِ نَفُودَهُ جُنَّ جُنُونَهُ، وَتَحَوَّلَ إِلَى مَجْنُونٍ يَهْذِي فِي شَوَارِعِ طُولُكْرَمِ .

¹- يُنْظَرُ: عَوْضٌ، أَحْمَدُ رَفِيْقٌ، قَدْرُونٌ، ص 40-48.

²- يُنْظَرُ: الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص 143-144.

جاء بعد ذلك مُقاوِل من بُولندا إلى خِربة أمّ خالد؛ فأزال تلك الخرائب، وبنى هذه العِمَارَات

المُسْتَقِيمة، وسُمِّيَتْ نَتَانِيَا بعد ذلك، وهِي تَعْنِي عَطِيَّة الرِّبِّ، أو هَدِيَّة الرِّبِّ (١٠).

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ أُسْتَدِلُّ عَلَى أَنَّ الْكِيَانَ الصَّهْيُونِيَّ اسْتُخْدِمَ كُلَّ الْوَسَائِلِ لِطَمْسِ الْمَعَالِمِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ،

وإِنشَاءَ مُدُنٍ صَهْيُونِيَّةٍ عَلَى النَّمَطِ الْغَرْبِيِّ.

صَوَّرَتِ الرِّوَايَةُ أَشْعَى شَيْءٍ فِي الْإِجْرَاءَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ، وَهِيَ الْإِعْتِقَالُ فِي الرِّزْنَازِينِ؛ فزِيَادٌ اعْتُقِلَ ذَاتَ

لَيْلَةٍ بَعْدَ أَنْ أُحْرِقَ بَيْتُ ذَلِكَ الْمُتَعَاوِنِ، وَوُضِعَ فِي زَنْزَانَةٍ صَغِيرَةٍ؛ فَاصْطَدَمَ بِدَلْوٍ مَعْدِنِي تَدَخَّرَجَ؛ فَشَمَّ

رَائِحَةَ كَرِيهَةً جِدًّا، وَتَحَسَّسَ الْأَرْضَ فَوَجَدَهَا رَطْبَةً، ثُمَّ وَجَدَ فَرِشَةً وَبَطَانِيَّةً؛ فَارْتَمَى عَلَيْهَا، وَلَكِنَّهُ وَجَدَهَا

رَطْبَةً، ثُمَّ فَتَحَتِ الزَّنْزَانَةَ مِنْ أَحَدِ السَّجَّانِينَ الَّذِي سَمَّاهُ لِأَنَّهُ قَضَى لَيْلَتَهُ يَسْبَحُ فِي الْبُرَّازِ؛ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ

الدَّلْوُ عِبَارَةً عَنِ بُرَّازٍ بَشْرِيٍّ؛ ثُمَّ أَعْطَاهُ السَّجَّانُ لِيَأْسًا وَاسِعًا لِيَلْبَسَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ ضَابِطَ الْمُخَابِرَاتِ يُرِيدُ

أَنْ يُحَقِّقَ مَعَهُ، وَيَعَدَّ أَنْ لَيْسَ رَأَى السَّجَّانَ؛ فَانْفَجَرَ ضَاحِكًا، وَعِنْدَهَا صَرَخَ زِيَادٌ فِي وَجْهِهِ قَائِلًا: تَوَقَّفْ

عَنِ الضَّحْكِ كَالْعَاهِرَاتِ .

وَعِنْدَهَا انْهَالَ عَلَيْهِ السَّجَّانُ ضَرْبًا، ثُمَّ وَاصَلَ الضَّحْكَ؛ فَذَهَبَ إِلَى إِحْدَى الْمُحَقِّقِينَ الصَّهْيَانِيَّةِ وَكَانَ

يُدْعَى أَبُو مَاهِرٍ؛ فَحَاوَلَ فِي الْبَدَايَةِ مُلَاطَفَتَهُ، وَتَقْدِيمَ الشَّايِ لَهُ؛ وَذَلِكَ طَمَعًا فِي تَعَاوُنِ زِيَادٍ مَعَهُ

لِلْوَصُولِ إِلَى أَسْمَاءِ الَّذِينَ طَعَنُوا أَحَدَ الْمُتَعَاوِنِينَ، وَعِنْدَمَا رَفَضَ زِيَادُ النَّعَاوِنِ مَعَهُ قَامَ أَبُو مَاهِرٍ بِضَرْبِهِ

ضَرْبًا مُؤَلِمًا، ثُمَّ أَرْجَعَهُ إِلَى الزَّنْزَانَةِ .

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ قَامَ السَّجَّانُ بِإِرْجَاعِهِ إِلَى ضَابِطِ التَّحْقِيقِ؛ فَوَجَدَ شَخْصًا آخَرَ يُدْعَى أَبُو عَلِيٍّ، وَأَخْبَرَهُ

بِنَتِجِيَّةِ أَبِي مَاهِرِ عَنِ التَّحْقِيقِ لِقَسْوَتِهِ، ثُمَّ حَاوَلَ الْحُصُولَ مِنْ زِيَادٍ عَلَى بَعْضِ الْمَعْلُومَاتِ وَعِنْدَمَا رَفَضَ

وَجَهَهُ بوثيقة اعترافٍ مِنْ أَحَدِ أَصْدِقَائِهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ الَّذِي أَحْرَقَ بَيْتَ الْمُتَعَاوِنِ مِنْ آلِ الرَّمَحِيِّ، وَعِنْدَهَا سُجْنٌ فِتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ⁽¹⁾.

وَلَا يَقُولُ الْاِعْتِقَالُ بَشَاعَةً عَنِ سِيَّاسَةِ مُصَادَرَةِ الْأَرْضِيَّةِ الَّتِي انْتَهَجَهَا الْكِيَانُ الصَّهْيُونِيُّ بِشَكْلِ مُنْظَمٍ تَحْتَ حِجَجٍ مُخْتَلَفَةٍ، ثُمَّ تَهْوِيدِهَا .

وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنَ التَّشَابِهِ بَيْنَ الْاِعْتِقَالِ وَمُصَادَرَةِ الْأَرْضِ؛ فَالْأُولَى تَهْدَفُ إِلَى تَطْوِيعِ الْإِنْسَانِ، وَالثَّانِيَّةُ تَهْدَفُ إِلَى تَطْوِيعِ الْأَرْضِ لِلْمُخَطَّطَاتِ الصَّهْيُونِيَّةِ، فِي يَوْمٍ مَاطِرٍ وَجَدَ زِيَادٌ وَجَدَهُ عُثْمَانُ أَنَّ هُنَاكَ رِجَالًا وَأَلْيَاتٍ ثَقِيلَةً تَقْفُ دَاخِلَ حُدُودِ أَرْضِهِمْ؛ فَسَأَلَهُمْ زِيَادٌ عَنِ شَخْصِيَّاتِهِمْ، فَرَطَنَ أَحَدُهُمْ بِكَلَامٍ غَيْرِ مَفْهُومٍ، ثُمَّ سَأَلَ أَحَدُهُمْ بِالْعَرَبِيَّةِ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي يُرِيدَانِهِ؛ فَأَجَابَهُ الْجَدُّ عُثْمَانُ بِأَنَّهُ صَاحِبُ الْأَرْضِ، وَعِنْدَهَا رَدٌّ عَلَيْهِ هَذَا الرَّجُلُ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ اشْتَرَاهَا الرَّابُّ شَلِيطًا مِنْ صَاحِبِهَا، وَنَحْنُ نَعْمَلُ فِي الْوَرَشَةِ، وَطَالِبُهُمَا بِالْخُرُوجِ مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ دَارَتْ مَعْرَكَةٌ حَامِيَةِ الْوَطَيْسِ بَيْنَ زِيَادٍ وَجَدَهُ مِنْ جِهَةٍ وَهَوَّلَاءِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْأَرْضِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الرَّابُّ شَلِيطًا مُطْلَقًا رِصَاصَةً فِي الْهَوَاءِ، فَحَدَّثَهُمْ بِكَلَامٍ تَرْجَمَهُ الْمُتَرْجِمُ بِأَنَّهُ اشْتَرَى هَذِهِ الْأَرْضَ مِنْ عَلِيِّ الرَّمَحِيِّ، وَمَعَهُ جَمِيعَ الْأُورَاقِ الَّتِي تُثَبِّتُ مِلْكِيَّتَهُ لِلْأَرْضِ، وَعِنْدَهَا دَارَتْ الْأَرْضُ بِالْجَدِّ، ثُمَّ انْقَلَبَ الْبَيْتُ رَأْسًا عَلَى عَقَبِ، وَأَصْبَحَ لَا يُطَاقُ؛ فَقَدْ تَشَاجَرُوا كَثِيرًا، وَاتَّهَمَتْ بُنْيَنَةٌ بِسُرْقَةِ أُورَاقِ مِلْكِيَّةِ الْأَرْضِ، وَالَّتِي بِدَوْرِهَا قَدْ أَنْكَرَتْ ذَلِكَ⁽²⁾.

وَمِنَ الْإِجْرَاءَاتِ الصَّهْيُونِيَّةِ الْمُكْمَلَةِ لِلْأُمُورِ السَّابِقَةِ صَبَغَ الْأَرْضَ الْعَرَبِيَّةَ بِالصَّبْغَةِ الْغَرِيبِيَّةِ؛ فَبَعْدَ مُصَادَرَةِ الْأَرْضِ الْعَرَبِيَّةِ، وَطَمْسِ الْمَعَالِمِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ، وَإِقَامَةِ الْمُدُنِ الصَّهْيُونِيَّةِ كَانَ لِأَبْدٍ مِنْ قِطْعِ الصَّلَةِ بِالْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ فَهَذَا عَلِيٌّ أَتَى سِيرَهُ بِسَيَّارَتِهِ فِي شَوَارِعِ تَلِّ أَبِيبٍ لِلذَّهَابِ مَعَ أَصْدِقَائِهِ إِلَى إِحْدَى الْبَارَاتِ رَأَى النِّسَاءَ اللَّوَاتِي يَلْبَسْنَ مَلَابِسَ مُثِيرَةً تَنْسَجُ مَعَ مَلَابِسِ النِّسَاءِ الْغَرِيبَاتِ، وَبَعْضُ

¹- يُنْظَرُ: عَوْضٌ، أَحْمَدُ رَفِيقٌ، قَدْرُونَ، ص 159-170.

²- يُنْظَرُ: الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص 313-319.

النساء العجائز كانت تَسْحَبُ كلاباً قصيرة وراءهنّ، وفي البارات كانت النساء تعرضن أنفسها على الرجال بطريقةٍ مُنحَلّة (1).

ومن مظاهر الحياة الغربيّة في الأرض المُحتلّة وجود الشذوذ جنسياً في المُجتمع بصورةٍ طبيعيّة، وهذا مُخالفٌ لواقع الحياة العربيّة، والتي لا تَسْمَحُ لِمِثْلِ هَؤُلاءِ بِالظُّهور، وأما في الأرض المُحتلّة فَهُمُ يَتَبَوَّؤنَ المَناصِبَ، وَيَتَزَوَّجُونَ مِنْ نَفْسِ جِنْسِهِمْ بِدونِ أيِّ اعْتِراضٍ؛ فقد اكتشف علي أنّ غابريئيل الذي سيصبح وكيلاً له في صفقات بيع الأراضي وتهويدها، مُتَزَوِّجُ من رفيقٍ له، وهذا الرّجل كان يعمل في كُلى شيء؛ فقد كان مرّةً مسؤولاً عن الدّعاية الانتخابيّة لحزبٍ كبير، ومرّةً كان مُصدراً للمُجوهرات، وكان لفترةٍ مسؤولاً ثقافياً في السّفارة الصّهيونيّة في إحدى الدّول الشّرقيّة، و كان يعمل أيضاً في المُخابرات الصّهيونيّة (2).

وهذا ليس غريباً إذا عَرَفَ الإنسان أنّ الشّواذَ جنسياً قد أخذوا الصّورة الطّبيعيّة داخل الدّولة المُسمّاة إسرائيل، فقد أسست معابد يهوديّة لهم، وتمّ تعيين حاخامات شواذَ جنسياً، وتمّ سنة 1988م تَتَوِيجُ الصّورة الطّبيعيّة للشّواذَ جنسياً عن طريق إصدار الكنيست الإسرائيلي قانوناً بإلغاء القانون الذي يُحرّم العلاقات الجنسيّة الشاذة (3).

والصّبغة الغربيّة التي اصطبغت بها الأراضي المُحتلّة عام 1948م لم تتوقّف عند حدّ العطل الرّسميّة في العمل؛ فقد كانت العطلة يوم السّبت، وليس يوم الجمعة؛ وقد جاراها في تلك العطلة العمّال الذين يعملون داخل الكيان الصّهيوني، والذين كانوا يُقلّدونهم في كلّ شيء حتّى عطّلهم؛ فهذا يوم السّبت قد أصبح منذ زمن يُنافس يوم الجمعة، فوفي هذا اليوم تتيمّ الرّيجات والدّعوات والصّكوك العشائريّة، وفيه تطبخ ربّة المنزل الأكل المُفضّل الخاصّ، وعندما اتّفقت أمّ علي مع ابنها علي على

1- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 145-151.

2- يُنظر: المصدر السابق، ص 223-227.

3- يُنظر: العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر، ص 93-94.

أَنْ تَخْطُبَ لَهُ ابْنَةَ عَمِّهِ لَمْ تَجِدْ أَنْسَبَ مِنْ يَوْمِ السَّبْتِ؛ فَفِيهِ جَمِيعُ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ سَيَكُونُونَ فِي الْبَيْتِ، وَلَنْ تَجِدَ أَحَدًا ذَاهِبًا إِلَى عَمَلِهِ؛ فَذَهَبَ عَلِيٌّ مَعَ أُمَّهِ وَأَخَوَاتِهِ إِلَى بَيْتِ عَمِّهِ، وَهُنَاكَ وَجَدَ عَمَّهُ عَبْدَ الْهَادِيَّ وَوَلَدَيْهِ جَوَادَ وَعَمْرَ، وَأَمَّا لُبْنَى فَكَانَتْ فِي الْمَدْرَسَةِ .

وَعِنْدَ عَوْدَةِ لُبْنَى مِنَ الْمَدْرَسَةِ رَفَضَتْ هَذَا الزَّوْجَ لِقِيَامِ عَلِيٍّ بِمُحَاوَلَةِ الْاِعْتِدَاءِ عَلَيْهَا ذَاتَ مَرَّةٍ؛ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ هَذَا الْأَمْرَ بِالنَّجَاحِ⁽¹⁾.

رَابِعًا: الْفَسَادُ الْأَخْلَاقِي:

رَكَزَتْ الرِّوَايَةُ عَلَى فِسَادِ أَخْلَاقِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُمَّالِ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى الْكِيَانِ الصَّهْبِيُونِيِّ؛ فَهَوْلَاءُ كَانُوا يَرُونَ أَشْيَاءَ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ أَنْ شَاهَدُوهَا دَاخِلَ مُدِينِهِمْ وَقَرَأَهُمْ مِنْ نِسَاءِ عَارِيَاتٍ، وَعَاهِرَاتٍ يَنْتَشِرْنَ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ فَهَذَا عَلِيٌّ عَمِلَ عَامِلًا لِلْبِنَاءِ فِي قَيْسَارِيَّةٍ، وَفِي فَصْلِ الصَّيْفِ كَانَتْ النِّسَاءُ الْبَيْضَاوَاتُ يَتَنَازَرْنَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ بِالقُرْبِ مِنْهُ، وَهُنَّ عَارِيَاتٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَا يَتَوَجَّبُ سِتْرُهُ، وَعِنْدَمَا رَأَى عَلِيٌّ هَوْلَاءِ النِّسْوَةِ دَارَ رَأْسِهِ أَلْفَ دَوْرَةٍ، وَلَا حِظَّ الْعُمَّالِ انْتِشَاعَهُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِنَّ؛ فَحَدَّثُوهُ ضَاحِكِينَ بِأَنَّ مِنْهُنَّ عَاهِرَاتٌ كَثِيرَاتٌ، وَنَصَحُوهُ بِاللْتِفَاتِ إِلَى الْعَمَلِ، وَكَانَ الْعَمَلُ قَاسِيًا، وَنَتِيجَةً لِرَغْبَتِهِ الْجِنْسِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَجِدْ لَهَا مَتْنَفَسًا أَصْبَحَ عَلِيٌّ عَنيفًا وَقَاسِيًا مَعَ أُمَّهِ وَأَخَوَاتِهِ .

وَفِسَادُ أَخْلَاقِ الْعُمَّالِ وَصَلَ مُنْعَطَفًا خَطِيرًا نَتِيجَةً رَوِيَّةً الْعَارِيَاتِ بِكَثْرَةٍ؛ فَعَلِيَ الَّذِي كَانَ مُوَلَعًا بِمُشَاهَدَةِ النِّسَاءِ الْبَيْضَاوَاتِ الْعَارِيَاتِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ أَنْتَاءَ عَمَلِهِ قَامَ بِمُحَاوَلَةِ الْاِعْتِدَاءِ عَلَى شَرَفِ حَبِيبَتِهِ وَابْنَةِ عَمِّهِ لُبْنَى .

سَأَلَ الْجَدَّ عُثْمَانَ لُبْنَى ذَاتَ مَرَّةٍ عَنْ سَبَبِ امْتِنَاعِهَا عَنْ زِيَارَةِ بَيْتِ عَمِّهَا الشَّهِيدِ صَالِحٍ؛ فَأَجَابَتْ بِأَكْبِيَّةٍ أَنَّهَا لَمْ تَعُدْ تَرْغِبُ، وَتَذَكَّرَتْ أَشْيَاءَ سَابِقَةً حَصَلَتْ لَهَا فِي هَذَا الْبَيْتِ؛ فَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ جَاءَتْ

¹- يُنْظَرُ: عَوْضُ، أَحْمَدُ رَفِيقٌ، قَدْرُونَ، ص 75-92.

إلى هذا البيت عصراً؛ فوجدتُ علياً وحده؛ ففرحتُ كثيراً، ثمَّ قاذها إلى الدّاخل، ودونَ سابقِ إنذارٍ انقضَّ عليها علياً تقبيلاً وضمّاً، ولما أحسَّتِ الخطرَ على شرفها قاومتُهُ بعنفٍ؛ فقام علي عنها، ثمَّ غادرتِ البيت، وقالتُ لهُ باحتقارٍ: أنت حيوان، وانطلقتُ تجري إلى خارجِ البيت، وامتنعتُ عن الدّهاب إلى بيت عمّها منذُ ذلك اليوم⁽¹⁾.

ومنَ الأمور التي تدلُّ على فسادِ أخلاقِ العُمال الذين يعملون داخلِ الكيانِ الصّهيوني؛ وتدني قيمهِم انتشارُ الإباحيةِ بينهم، وتحوُّلُ بعضهم لإشباعِ غرائزهِم الحيوانيةِ كالحمي؛ فهذا علي بعد أن عملَ في قيساريةِ لمدّةِ عامين أصبحَ يبحثُ عن العاهراتِ لإشباعِ غرائزِهِ، وذلك بعد أن أكثرَ مِنَ النَّظرِ والتدقيقِ في أجسادِ السّائحاتِ والإسرائيلياتِ شبّه العارياتِ على شاطئِ البحر؛ فاتفقَ مع زميلٍ لهُ في العملِ على الدّهابِ إلى مُستوطنةِ جنوبِ قيساريةِ تُدعى (مخمورت) بعدَ انتهاءِ العمل؛ فذهبا إلى تلك المُستوطنة التي تعدّ مقهى بحرياً كبيراً، وتخلو من السّاكنين؛ فأشار الزميلُ علي علي بأنّ العاهراتِ هُنَاك؛ حيثُ الشريطُ الطويلُ من شجرِ الكينا، وأحسَّ علي بالِم عند رؤيةِ مجموعةٍ منهنَّ لا يلبسنَ شيئاً تقريباً؛ ثمَّ مدَّ الزميلُ يدهُ إلى إحداهنَّ، فسألَ عن المبلغِ الذي سوفَ تأخذهُ؛ فقالتُ لهُ رقماً أكبرَ من أجرتهِ اليوميّة، وعندها صاح الزميلُ بأنّ في حيفا أرخصَ بكثير، ثمَّ شدتُ علي عاهرةً أُخرى بعدَ ذلك، وسألتهُ أولَ مرّةٍ؛ فأجابها بنعم، ثمَّ سألتُهُ عن المبلغِ الذي مَعهُ؛ فقبلتُ علي مضض، وتمدّدتُ عاريةً على قطعةٍ مِنَ البلاستيكِ أمامَ خلقِ الله، ثمَّ أمرتهُ بأن يفعلَ ما يحلو له؛ ولكنَّ علي لم يشعرَ بشيءٍ تجاهها، ولم تُعدْ تُثيرُهُ، ثمَّ غادرَ المكانَ بعد أن شعرَ بالقرفِ والاشمئزازِ من مُمارسةِ الجنسِ مع شخصٍ لا يعرفه أمامَ النَّاس؛ فبحثَ عن صديقه؛ فرأه من بعيدٍ تحتَ شجرةٍ نصفَ عارٍ مُستبكاً مع أُخرى؛ فازدادَ إحساسه بالقرف، وبعد مجيء صديقه أخبرهُ بأنّ ما يشعر به يحصلُ لأيِّ شخصٍ يأتي

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 32-37.

أول مرة، ونصحهُ بأنّه إذا جاء مرةً أُخرى فلا بُدَّ أن يتصرّف كالجمار الذي يُعلن عن رغبته، ويعرضُ
آلتهُ أمام الجميع، ثمّ يبحث عن أنثى يُعَارِكُهَا أمام الجميع .

وأمام هذه المشاعر السلبية من القرف والاشمئزاز أخذَ علي قراراً بعدم العودة إلى هذا المكان مرةً
أُخرى⁽¹⁾.

ويرى بعض الباحثين أنّ هناك مساومة قد جرت بين عاهرةٍ يهوديةٍ وعلي، وتحوّل الجنس فيها إلى
نوعٍ من النهبِ والسلبِ والحيوانية⁽²⁾.

وعمل العُمال داخل الكيان الصهيوني جعلهُم يتأثرون كثيراً بالحياة الغربية؛ فمنهُم من أدمنَ على
شرب الخمر، ومنهُم من أصبحَ يعرف العاهرات، وهذا ما سبّبَ لَهُم كثيراً من المشكلات الزوجية،
والتي انتهت بطلاق بعض هؤلاء العُمال من زوجاتهم؛ فعلي أقام علاقةً غراميةً مع يهوديةٍ يمنيةٍ تُدعى
أوريت، وكان ينامُ عندها كثيراً .

ولم يكن علي استثناءً؛ فأوريت أخبرت علياً ذات مرةً أنّها تعمل في مصنعٍ، فيه عربٌ كثيرون، ولا
تُلبث أن تتحدّث مع أحدهم حتى يعرضُ عليها حُبّه، أو يعرضُ عليها جسده؛ فهُم يحسبون كل يهوديةٍ
عاهرة .

وقد انعكست علاقة علي بأوريت على علاقته بزوجه السّمينة من آل الطّواشي؛ فقد استاءت كثيراً
من تدنّي أخلاق علي؛ فهو كان يأتي متأخراً كل ليلةٍ، وهو سكران، وكما أنّها سمعت من العُمال الذين
يعملون داخل الكيان الصهيوني عن علاقته بأوريت؛ فتفجّرت المشاكل الزوجية؛ فغادرت علي إثر ذلك
إلى بيت أبيها؛ فاجتمع علي في إحدى المرات مع أسرة زوجته؛ فأخبر والدها بأن ابنتك لا تنفع زوجة،
وأنته يريد أن يُطلقها؛ فكان جوابُ والدها بأنّه سيخسر .

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 66-72.

²- يُنظر: العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر، ص 89.

وبعدَ هذه الحادثة بِعِدَّةِ أَيَّامٍ ذهبَ علي إلى مقهى صغير يلتقي بِمُدخني الحشيش؟ ولَمَّا اسْتَدَارَ وجدَ ثلاثةَ شُبَّانٍ مِنْ عَائِلَةِ الطَّوَّاشِي، ودارتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ علي معركةٌ عَنيفَةٌ، وَالتِّي تطوَّرتْ إلى اشتباكاتٍ عَائِلِيَّةٍ بَيْنَ آلِ الرَّمحِي وآلِ الطَّوَّاشِي، وَالتِّي اسْتُخدمَ في بعضها السِّلَاحُ النَّاري^(١).

أستدلُّ مِمَّا سبقَ إلى أَنَّ أخلاقَ بعضِ العُمالِ ساهمَ في بعضِ حالاتِ الطَّلَاقِ، وَالتِّي أفضتْ إلى اشتباكاتٍ عَائِلِيَّةٍ.

ومن المَحْزَنِ أَنَّ تَسوُدَ الخِلافاتِ العِشائريَّةِ والقَبليَّةِ، وتَتَعَدُّ الوِلاءاتُ المَحليَّةَ خِلالَ حَقبةِ السَّبْعينيَّاتِ، وَهي بَدِيةُ الاِحتلالِ الإِسْرائيليِّ للضَّفَّةِ الغَربيَّةِ، وَهَذِهِ الخِلافاتُ ما كانَ يَنبغي لها أنْ تَكونَ؛ فَهيَ التي ساعدتْ الاِحتلالَ على تَنفيذِ مُخطَّطاتِهِ، وَهيَ التي أَحبطتْ مُحاولاتِ التَّطوُّرِ الفِكريِّ والحضاري^(٢).

خامساً: المشاعر السَّلبِيَّة:

عند وجودِ أيِّ اِحتلالٍ لا بُدَّ أنْ يُصاحِبُهُ مشاعرُ سَلبيَّةٌ كَثيرةٌ لَدَى أَهلِ الأَرْضِ المُحتلَّةِ؛ فَمِنْ تِلْكَ المشاعرِ السَّلبِيَّةِ الخوفُ، فقد خافَ أَصحابُ البيوتِ المُقامةِ على أراضِي الغائِبينَ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَيَّةِ شَكوى إلى السُّلطاتِ الصَّهيونيَّةِ لأخذِ حُقوقِهِم المَشروعةَ مِنْ ماءٍ وكَهْرَباءٍ؛ فقدَ نَشَبَ خِلافٌ بَيْنَ أَهالي حَيِّ أمِّ الضَّبَّاعِ والمجلسِ البلديِّ حَولَ مُطالبَةِ هَذَا الحَيِّ بِتَمديدِ الماءِ والكَهْرَباءِ؛ فَطَلَبَ توفيقُ السَّاري مِنْ أَهالي الحَيِّ التَّوَقيعَ عَلى عَريضةٍ تُطالبُ المجلسَ البلديِّ بِالماءِ والكَهْرَباءِ؛ وَهَدَدَ في حالةِ عَدمِ الاستِجابةِ بِتقديمِ شَكوى لَدَى الحاكمِ العسْكريِّ؛ فَخافَ أَهلُ البيوتِ على بيوتِهِم؛ فَذلكَ يعني تذكيرَ الحاكمِ العسْكريِّ بِأَملاكِ الغائِبينَ؛ فالأَرْضُ المُقامةُ عَلَيْها هذهِ البيوتِ يَعُدُّه الكيانُ الصَّهيونيُّ حَقًّا لَهُ .

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 109-125.

²- يُنظر: عبد الغني، مُصطفى، في نقد الذات للزواية الفلسطينية، ص 107.

وكان من المشاعر السلبية أيضاً ظهور الانتهازية لدى كثير من الناس في حيّ أم الضباع؛ فلمّا ظهر عددٌ من مُتعهدي العَمال في هذا الحيّ أخذَ جميع سكّان الحيّ يتقربون منهم، وربّما تودّدت إليهم إحدَى زوجات العَمال العاطلين عن العمل؛ وذلك طمعاً في فرصة عملٍ داخل الكيان الصّهيوني⁽¹⁾. ولعلّ الانتهازية جاءت من خلال الاحتكاك اليومي، والمباشر مع الصّهاينة؛ فالانتهازية ظاهرة غريبة غير موجودة في المجتمع العربي الأصيل؛ فالكيان الصّهيوني الذي قام على أساس غربي انتشرت فيه قيم غريبة كثيرة من التفكير في كلّ شيءٍ من مُنطلق الرّبح والخسارة؛ ولذلك ظهر عندهم الانتهازية، والتي انتقلت إلى المجتمع الفلسطيني من خلال ذهاب العَمال إلى الكيان الصّهيوني، وإيابهم.

ومن تلك المشاعر السلبية أيضاً ظهور الحسرة؛ فهذه الحسرة اتّضحت عارياً تماماً عند عبد الهادي العامل في مزرعة إسرائيل؛ وذلك عندما صرخ: أصبحت عبداً لإسرائيل، أي لليهودي مُشغله، وكان يُردّد باستمرار مُعزّياً نفسه: كلُّنا عبيد لله... أصبحت عبداً بسبب الهزيمة، وكلّ ذلك تعبير صريح عن الشّعور بالحسرة⁽²⁾.

ومن الأمور التي تُحسبُ للرّواية تسجيلها لمشاعر العَملاء؛ فبعد أن أرجع الشّرطي إلى علي أوراقه الثبوتية، وعدل عن قراره بتحويله إلى المحكمة بتهمة البقاء داخل حدود دولة إسرائيل بعد الثانية عشرة ليلاً، وقال له بأنك عربي على كيفك؛ فتولّد لدى هذا العميل إحساسٌ بالذنب، وفكّر كثيراً في عبارة عربي على كيفك، وهل هي أفضل من عربي ليس على كيفك؛ فعندها شعر بالوحدة والعجز، وأنه منبوذ.

وهذه المشاعرُ السلبية للعميل ناتجةٌ من تأنيب الضمير؛ ففي ذات ليلة كان توفيق الساري مُشغلاً مع علي الرّمحي بوضع الخُطط للاستيلاء على أكبر قدرٍ من الأراضي لتسريبها إلى الاحتلال، وكانا

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص3-4، ص10.

²- يُنظر: خواجة، علي، عين السارد: قراءات في أعمال أحمد رفيق عوض، ص 147.

يشريان معاً؛ فتحدثنا بأنّ المتعاون أكثر الناس مُعاناةً وخوفاً وجُبناً وطمعاً، وهو يُعاني من أمراضٍ كثيرة؛ منها أنّه يُحبّ بشدّة ويكره بشدّة، وكذلك يكون مُتوتّر الأعصاب؛ ولذلك يُعاني في كلّ الحالات من الضّعف، والمتعاون لا يتعاون إلّا بعد أن يشعر أنّ المجتمع الذي يُحبّه قد انهار من أمامه .
والمتعاون يحتقر نفسه في بعض الأحيان، ويندم في أحيانٍ كثيرة، ويتمنى الموت، أو الهرب، أو الغوص ألف مترٍ في باطن الأرض، وإذا كانتِ النَّاسُ تكره المتعاون؛ فإنّهم لا يعرفون أنّ المتعاونين يكرهون أنفسهم⁽¹⁾.

أستدلّ ممّا سبق أنّ علياً وتوفيقاً اللذين كانا متعاونين يُورانِ حقائق عدّة عن المتعاون؛ فهو شخصيّة غير سويّة، ومضطربة أيضاً، ويُعاني من أمراضٍ نفسيّة كثيرة.

والمشاعر السلبية عند العمل امتدّت لِتطال السّمسار الذي يكسبُ المبالغ الماليّة الضخمة جرّاء تسريبه الأرض إلى الاحتلال؛ فهو يشعر بالذنب بالرغم من المكاسب الماليّة الضخمة التي يكسبها؛ فهذا علي بعد أن أجرى عمليّة بيع أرضٍ جدّه للرّاب شليطا، ووقع على الأوراق الخاصّة بذلك انتظر نفوذه؛ فجاء الرّاب شليطا بعد فترة زمنيّة حاملاً شيكاً بالمبلغ، وأخبره بأنّه يستطيع صرفه من أيّ بنكٍ .
قام علي بتسليم الشيك بيدٍ ترتجف، ولحظةٍ أحسّ أنّه يُشاهد أمّه عارية، وودّ لو يَفقأ عينيه، ولو كانتِ كلّ لحظاتِ الحياة مثلها لأصيب من يشعر بها بالجنون⁽²⁾.

أخلصُ إلى أنّ العودة الناقصة في رواية قدرون قد تمثّلت في عودة بعض الفلسطينيين إلى الأراضي المحتلّة عام 1948م على شكل موجاتٍ من العمّال، وهذه العودة كانت عودة الدليل المهزوم؛ ولذلك عمِل هؤلاء العمّال كالعبيد على تهويد الأرض الفلسطينيّة، وتطوير الاقتصاد الصّهيوني؛ وبعضهم تحوّل عن طريق هذا العمل إلى سمسارٍ وعميلٍ للاحتلال، وأثناء هذه العودة يُشاهد العائد طمس معالم

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 234- 235، ص 256-260.

²- يُنظر: المصدر السابق، ص 312-313.

المُدن الفِلسطِينِيَّة، وإقامة المُدن الصَّهْيُونِيَّة مكانها، والتي اسْتندتْ في إقامتها على أُسس الحياة الغربيَّة التي ينتشر فيها قيم الانحلال الأخلاقي؛ ولذلك ساهمتْ هذه العودة في فساد أخلاق كثيرٍ من العُمَّال. يشعر العائد عند مشاهدة السُّلبيَّات السَّابِقة بمشاعر سلبية لا حدود لها من ألمٍ، وعجزٍ، ووحدة، وحسرة، وخوف؛ فالعودة إلى الوطن تحت حِراب الاحتلال هي عودة ناقصة لا ينبغي لها أن تكون كونها ستصبُّ لصالح الاحتلال.

والعودة الناقصة في رواية قدرون كانتْ قبل اتِّفَاقِيَّة أوسلو، وفي المبحث الثَّاني سيكون عن العودة الناقصة بعد اتِّفَاقِيَّة أوسلو في روايات أحمد رفيق عوض، والتي سيكون لها سلبِيَّات كثيرة تتشابه مع العودة الناقصة قبل اتِّفَاقِيَّة أوسلو في بعضها، وتختلف عنها في بعضها الآخر.

المبحث الثالث: صور العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض بعد اتفاقية
أوسلو:

أولاً: صور العودة الناقصة في مقامات العشاق والتجار.

ثانياً: صور العودة الناقصة في آخر القرن.

ثالثاً: صور العودة الناقصة في بلاد البحر.

أولاً: صور العودة الناقصة في مقامات العُشَّاق والتُّجَّار.

مُلخَصُ الرِّوَايَةِ:

أظهرت الانتفاضة الشعبانية الفلسطينية عام 1987م استحالة استمرار الحكم العسكري الصهيوني إطاراً للسيطرة على الشعب العربي الفلسطيني، كما أنها أيقظت الكيان الصهيوني من وهم أن فلسطين أرض بلا شعب .

ونتيجةً لمفاوضات سرّية استمرت في أوسلو تسعة شهور بين منظمة التحرير الفلسطينية وحكومة الاحتلال تمّ في 1993/9/30م الاتفاق على تشكيل سلطة فلسطينية ذاتية⁽¹⁾. وللأسف هذه الاتفاقية تضمنت اعترافاً متبادلاً منقوصاً بين إسرائيل ومنظمة التحرير؛ فالاعتراف بمنظمة التحرير من جانب الكيان الصهيوني كممثل للشعب الفلسطيني لا يعني بالضرورة اعترافاً بدولة فلسطينية⁽²⁾.

والناس منقسمون منذ بداية التاريخ إلى عشاق وتجار؛ فالعاشق هو الذي ينتمي للقيم، ويساهم في صياغة وجود البشرية، والتجار يسلمون أنفسهم لفتنة المال وغواية السلطة؛ وذلك لإخفاء ذواتهم الرخوة في هيكل خارجي صلب، وما أكثر التجار في مرحلة ما بعد أوسلو! وهي المرحلة التي انهارت فيها القيم⁽³⁾.

وهذه الرواية تدور حول أناسٍ عشقوا فلسطين، وقدموا التضحيات من أجلها في فترة ما قبل اتفاقية أوسلو، ولكن معظمهم تحوّلوا إلى تجار يفكرون في مشاريعهم الخاصة بهم في فترة ما بعد اتفاقية أوسلو.

وهناك في هذه الرواية شخصيات مهزومة إلى حد كبير، ومن ضمنها شخصية محمد الحامض الذي كان قبل أوسلو مناضلاً يسارياً، ومطارداً في الكهوف والجبال، وبعد اتفاقية أوسلو يصبح مفاوضاً

¹- يُنظر: العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر، ص136.

²- يُنظر: أيوب، محمد، الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة، ص110.

³- يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص119.

للإسرائيليين في فنادق جنيف ومدريد، ثم يُصبح مُستشاراً لأحد نُجُوم المال في رام الله (البَعْبُول)،
والَّذِي كَانَ عَمِيلاً فِي فِتْرَةٍ مَا قَبْلَ اتِّفَاقِيَّةِ أَوْسَلُو، وَالَّذِي قَامَ مُحَمَّدَ الْحَامِضُ بِأَخْطَافِهِ فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ.
شَخْصِيَّةٌ أُخْرَى تُدْعَى عَطَا اللهُ أَحَدُ الْمُنَاضِلِينَ الَّذِي سُجِنَ عِنْدَ الْإِحْتِلَالِ سِنَوَاتٍ عِدَّةً، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ
السَّجْنِ؛ فَتَنْزَوِجُهُ إِحْدَى النِّسَاءِ الْمُطْلَقَاتِ، وَتَشْتَرِيهِ، وَيُقِيمُ مَعَهَا فِي الْقُدْسِ، ثُمَّ تَسْتَخْرِجُ لَهُ زَوْجَتَهُ وَتَأْتِي
مَقْدِسِيَّةَ إِسْرَائِيلِيَّةً .

يَعْمَلُ عَطَا اللهُ فِي إِحْدَى مَحَلَّاتِ زَوْجَتِهِ فِي بَيْعِ الْأَدْوِيَةِ، ثُمَّ يَصْبِحُ يَتَاجَرُ فِي الْأَدْوِيَةِ الْمُهْرَبَةِ؛
فِيَجْمَعُ فِي فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ أَكْثَرَ مِنْ مِليُونٍ وَنِصْفِ دُولَارٍ .
وَتَشَارِكُ عَطَا اللهُ مَعَ الْإِعَادِ التَّاجِرِ الْإِسْرَائِيلِيِّ فِي مَكْتَبِ عَقَارِي هَدْفُهُ شِرَاءَ الْعَقَارَاتِ وَالْأَرْضِي فِي
الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ فِي الْقُدْسِ، وَكَانَ الْإِتِّفَاقُ بَيْنَهُمَا يَنْصُ عَلَى أَنْ يَتَوَلَّى عَطَا اللهُ شِرَاءَ أَمْلاكِ الْمَقْدِسِيِّينَ
مُقَابِلَ عِشْرِينَ بِالْمِئَةِ عَنْ كُلِّ عَمَلِيَّةٍ بَيْعٍ، وَهَكَذَا تَحَوَّلَ الْمُنَاضِلُ إِلَى سِمْسَارٍ لِلْإِحْتِلَالِ يُسَلِّمُ الْعَقَارَاتِ
وَالْأَرْضِي لِهِمْ مُقَابِلَ الْمَالِ .

وَمِنْ الشَّخْصِيَّاتِ أَيْضاً عَائِدَةٌ أَحَدُ كَوَادِرِ حَزْبِ الْيَسَّارِ، وَبَعْدَ اتِّفَاقِيَّةِ أَوْسَلُو تُصْبِحُ شَخْصِيَّةً انْتِهَازِيَّةً
تَسْتَعْمِدُ جَسَدَهَا لِتَحْقِيقِ أَحْلَامِهَا .

وَمِنْ تِلْكَ الشَّخْصِيَّاتِ أَيْضاً كَمَالُ نَاجِي أَحَدُ مُؤَسَّسِي جَمَاعَةِ الْفَهْدِ الْأَسْوَدِ؛ فَيُصْبِحُ بَعْدَ اتِّفَاقِيَّةِ
أَوْسَلُو ضَابِطاً لَدَى الْأَجْهَزَةِ الْأَمْنِيَّةِ، وَيَعْمَلُ فِي السَّجْنِ الَّذِي عُذِبَ بِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُحِسُّ بِالسَّعَادَةِ؛ وَذَلِكَ
لَأَنَّهُ لَا يَقُومُ بِخِدْمَةِ شَعْبِهِ كَمَا كَانَ يَتَمَنَّى⁽¹⁾ .

وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ مُحَاوَلَةٌ لِجَعْلِ الْحَاضِرِ الْاجْتِمَاعِيِّ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ، وَمُحَاوَلَةٌ لِاسْتِنْتِطَاقِ الْمَاضِي
(مَرْحَلَةُ الْإِنْتِقَاضَةِ)؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَاضِي يُفْهَمُ عَلَى ضَوْءِ الْحَاضِرِ⁽²⁾ .

¹- يُنْظَرُ: عَوْضُ، أَحْمَدُ رَفِيقُ، مَقَامَاتُ الْعِشَاقِ وَالتَّجَارِ، ص 1-229.

²- يُنْظَرُ: الْخَوَاجَةُ، عَلِيٌّ، جَوَائِزُ الْفَحْمِ، ص 115.

رواية مقامات العُشّاق والتّجّار هي تشخيصٌ حقيقي لِمَا تراه العين على أرض الواقع من علاماتٍ للهزيمة وقراننها، والتي طالت أدمغة النّاس وعقولهم؛ فجعلت كثيراً من الفلسطينيين يُفضلون منافع الذات ومكاسبها على هُوم المجموع⁽¹⁾.

أهمّ صور العودة الناقصة في رواية مقامات العُشّاق والتّجّار:

أولاً: تبدّل القيم:

من الملاحظ في هذه الرواية أنّ المشاريع الخاصّة للفلسطينيين قد انتعشت بعد قدوم السّلطة الفلسطينيّة؛ وذلك على حساب ضياع الهَمّ الوطني؛ ومن تلك المشاريع التي انتعشت قطاع البناء في رام الله؛ فقد أخذت ناطحات السحاب تتسابق في الارتفاع، وما إن تُبنى العمارة حتّى يتسابق إليها رجال الأعمال، ثمّ يُعلّقون تحت الشّبابيك لافتاتٍ ضخمة تُعلن عن مؤسّساتهم.

وكوّن هؤلاء أموالاً لا تخطر على بال أحد؛ فهذا جابر جابر أحد الدّين استأجروا مكتباً في إحدى هذه العمارات كان قد صنع ثروةً ضخمةً، واشترى سيّارة، وأصبح له رصيدٌ في البنك .

ولم تتوقّف الأرباح الماليّة على رجال الأعمال، بل تعدّت ذلك إلى سَماسرة الأراضي؛ فهذا السّمسار أبو رامي باع قطعة أرضٍ بالقربٍ من حيّ الماصيّون الرّاقّي بنصفِ مئُون دينار أردني .

استدلّ ممّا سبق على أنّ الأموال تدفقت على رام الله لجعل الشّعب الفلسطينيّ يُنسى همومه الوطنيّة، ويُرَكز على القيم الماديّة والاستهلاكيّة .

وفي ظلّ تبدّل القيم لا بدّ أن يرتفع شأنُ العملاء الذين باعوا أنفسهم للأعداء، وكذلك ستتخفّض قيمة المناضلين الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الوطن؛ فهذا مُحمّد الحامض يتحاوّر مع كمال ناجي عن تقلّب الأمور في سماء رام الله، فيُخبره عن مُحمّد(أبو) معروف الذي كان يُلقبهُ النّاس في قدرون بالبعبُول، والذي كانت مُختلف القوى الوطنيّة قبل اتفّاقية أوسلو قد خطفتُهُ، وحققت معه؛ فاعترف أنّه

¹- يُنظر: الديك، نادي ساري، علامات مُتجدّدة في الرواية الفلسطينيّة، ص29.

يعمل لصالح الموساد الإسرائيلي، واعترف كذلك بأنه أسقط عدّة شبابٍ وفتياتٍ في شبكةٍ كبيرةٍ للتجسس، وهرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك خوفاً على حياته؛ فإذا به يعود بعد اتفاقية أوسلو ليسكن في فيلا كبيرة بعد أن أصبح أحد كبار التجار، ثم يوجه محمد الحامض حديثه لكمال ناجي بأنه لا يجدُ ثمنَ سجنه بعد نضاله الطويل ضد الاحتلال، ثم يحدثه عن نفسه بأنه الآن يُفاوضُ الإسرائيليين الذين طاردوه كثيراً، ويُقيم في الفنادق الضخمة في واشنطن وجنيف وباريس⁽¹⁾.

وهذه الظاهرة لها ما يُفسرها إذا عرفت أن الشعب الفلسطيني قد تحوّل من شعبٍ مقاومٍ إلى شعبٍ تحكمه سلطة وطنية تُفرضها اتفاقيات مفروضة حسب شروط المنتصر الصهيوني⁽²⁾. ونتيجةً لتحكّم اتفاقية أوسلو بالشعب الفلسطيني زادت الشخصيات المهزومة والنفعية في المجتمع، والتي تنتكر في العادة لقيمها وانتماءاتها السابقة باحتة عن ذاتٍ جديدةٍ تمنحها الوجهة والموقع الحياتي النقيض لكل ما آمن به من أفكار.

ورصدت الرواية شخصيات كثيرة مهزومة، منها:

شخصية عطا الله التي ذقت ويلات السجن بسبب الالتزام ببرامج الانتفاضة عبر حزبه اليساري، ولكن بعد خروجه من السجن يتخلّى عن حزبه، وبيع نفسه لجورجيت؛ فيتزوجها، ثم يسكن في بيتها ببلدة بيت حنينا، وتسعى بكل جهدها لاستخراج الجنسية الإسرائيلية حتى يتم ذلك؛ وليدير بعدها مخازن الأدوية، وليستمر في انحداره ليعمل في تهريب الدواء دون حسيبٍ أو رقيبٍ عن طريق تاجر إسرائيلي من هرتسليا؛ مما أدى إلى جعله ثرياً؛ ففي سنواتٍ قليلة جمع حوالي مليون ونصف من الدولارات، ثم اشترى مطعم دلال في البلدة القديمة من القدس.

أحست جورجيت بخيانة زوجها؛ فقالت له ذات مرة بأن عليه أن يعرف بأن كل شيءٍ مُسجّل باسمها؛ وأنه لا يساوي قشرة بصل؛ فابتسم، ثم أكمل حياته، وكان يسكر كثيراً في بارات فنادق القدس

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتجار، ص 1-229.

²- يُنظر: البوجي، محمد بكر، صراع الثقافات في الرواية العربية في فلسطين، ص 56.

الشَّرْقِيَّة، ثُمَّ ذَهَبَ بَعْدَ ذَلِكَ لِيَسْكُرَ فِي بَارَاتِ فَنَادِقِ الْقُدْسِ الْغَرْبِيَّةِ، وَهُنَاكَ تَعَرَّفَ عَلَى إِعَادِ وَرَوْجِيَّةِ غَرْتَسِيَا الْفَانِقَةِ الْجَمَالِ، وَقَدَّمَا نَفْسِيهِمَا عَلَى أَنَّهُمَا يَعْمَلَانِ فِي تِجَارَةِ الْمَجُوهَرَاتِ وَالذَّهَبِ، ثُمَّ عَقَدَ مَعَهُمَا الصِّفَقَاتِ التِّجَارِيَّةِ، وَالَّتِي كَانَتْ أَرِيحُهَا عَظِيمَةً، ثُمَّ أَقَامَ شَرَاكَةً مَعَ إِعَادِ لِشِرَاءِ الْأَرْضِي وَالْعَقَارَاتِ فِي الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ فِي الْقُدْسِ مُقَابِلَ عِشْرِينَ بِالمِئَةِ عَنْ كُلِّ عَمَلِيَّةٍ بِيَعٍ؛ فَافْتَتَحَ مَكْتَبًا فِي الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ، وَقَامَ بِتَسْرِيْبِ الْعَدِيدِ مِنَ الْأَرْضِي وَالْعَقَارَاتِ إِلَى إِعَادِ، وَالَّذِي أَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِذَفْعِ ثَمَنِ عَقَارٍ لِيَمْتَلِكَهُ بَعْدَ عِشْرِينَ عَامًا، أَوْ ثَلَاثِينَ عَامًا، أَوْ حَتَّى خَمْسِينَ عَامًا .

وَهَكَذَا أَصْبَحَ عَطَا اللَّهِ الْمُنَاضِلِ السَّابِقِ سَمْسَارًا، وَمُهْرَبًا لِلأَدْوِيَّةِ؛ وَبِذَلِكَ تَكُونُ اتِّفَاقِيَّةُ أَوْسَلُو سَاهَمَتْ فِي تَبَدُّلِ الْمَوَاقِفِ، وَتَغْيِيرِ الشَّخْصِيَّاتِ مِنَ الشَّيْءِ إِلَى نَقِيضِهِ⁽¹⁾.

وَاتَّضَحَ لِعَطَا اللَّهِ بِأَنَّ هُنَاكَ دَوْرًا لَغَرْتَسِيَا وَرَوْجِيَّتَا فِي خِدْمَةِ الْمَخَابِرَاتِ الصَّهْيُونِيَّةِ؛ فَسَأَلَ غَرْتَسِيَا عَنْ طَبِيعَةِ هَذَا الدَّوْرِ؛ فَأَجَابَتْهُ بِأَنَّ الْيَهُودَ شَعْبُ اللَّهِ الْمُخْتَارِ، وَأَنَّ مُسْتَقْبَلَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ هُوَ الْقَبُولُ بِالْحَلِّ الْإِسْرَائِيلِيِّ، وَأَنَّهُ لَا مُسْتَقْبَلَ لِلْأَقْلِيَّاتِ⁽²⁾.

مُنَاضِلُو الْأَمْسِ تَوَقَّفُوا عَنْ النِّضَالِ بَعْدَ مَجِيءِ السُّلْطَةِ الْوَطْنِيَّةِ؛ وَذَلِكَ بِسَبَبِ التَّعَارُضِ بَيْنَ النِّضَالِ وَالِاسْتِقْرَارِ الَّذِي تَنْشُدُهُ طَبَقَةُ أَصْحَابِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ، وَهَؤُلَاءِ وَجَدُوا مَصْلَحَتَهُمْ مَعَ أَصْحَابِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ⁽³⁾.

وَلَمْ يَتَوَقَّفْ تَبَدُّلُ الْقِيَمِ عَلَى الْمُنَاضِلِينَ؛ فَقَدْ امْتَدَّ هَذَا التَّبَدُّلُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَالَّذِينَ أَصْبَحُوا يَبْحَثُونَ عَنْ النِّزَاءِ السَّرِيعِ؛ فَهَذَا جَابِرُ جَابِرٍ يَسْأَلُ صَدِيقَهُ سَامِحَ اللَّدَّائِي عَنِ الطَّرِيقِ إِلَى الدُّوْلِ الْمَانِحَةِ وَفُرُوضِهَا وَمُسَاعَدَاتِهَا، فَأَجَابَهُ سَامِحٌ بِأَنَّ نُنْشِئَ مَنظَمَةً غَيْرَ حُكُومِيَّةٍ تُعْنَى بِالْحُرِّيَّاتِ وَالِدِّيْمُقْرَاطِيَّاتِ؛ فَأَخْبَرَهُ جَابِرٌ بِأَنَّ هُنَاكَ كَثِيرًا مِنَ الْمُنظَّمَاتِ فِي الْمَدِينَةِ، وَبَقِيَا يَتَنَاقَشَانِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ؛ فَافْتَرَحَا

¹- يُنْظَرُ: الْعِيْلَةُ، زَكِي، صُورَةُ الذَّاتِ وَصُورَةُ الْآخَرِ، ص 30 - 31؛ عَوْضُ، أَحْمَدُ رَفِيقُ، مَقَامَاتُ الْعُشَّاقِ وَالتَّجَارِ، ص 77 - 84.

²- يُنْظَرُ: الْعِيْلَةُ، زَكِي، صُورَةُ الذَّاتِ وَصُورَةُ الْآخَرِ، ص 91.

³- يُنْظَرُ: الْبُوجِي، مُحَمَّدُ بَكْرُ، صِرَاعُ التَّقَاتِ فِي الزَّوَابِةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي فِلَسْطِينَ، ص 76.

إنشاء مُنظمةٍ نسائيةٍ، أو مُنظمةٍ تُعنى بِشؤونِ الطّفل، أو دار نشر الكُتبِ الأمريكيّة، أو البريطانيّة، أو سوق مالي، أو جمعيّةٍ ماسونيّة، أو مطعمٍ لِعليّةِ القوم، ولكنَّهُما وجدا أنّ هذا لن ينفعهما في شيء؛ فهناك كثير من هذه المُنظمات .

ودار النّقاشِ إلى ما لا نهاية، وكان السّؤال دائماً كيف يُمكنُ تكوين ثروة بأسرع ما يُمكن، وكان جابر قد عمِلَ بائعاً في متجرٍ، ثمّ بائعاً مُتجولاً يحملُ على كتفه حقائب مليئةً بِملابسِ النّساءِ الداخليّة، ثمّ عمِلَ جابياً للضرائب في مصلحةِ المياهِ ثمّ الكهرباء، وكما عمِلَ في مصانعِ الأدويةِ والنسيجِ.

استأجرَ سامح وجابر مكتباً صغيراً في عمارة البعبول من شريكه عطاالله، وقالوا للنّاس بأنّ هذا مكتب للخدمات العامّة، ولم يعرفوا بالضبط ما هي الخدمات العامّة التي يُمكنُ أن يُقدّمها للنّاس، ولكنه اكتشفَ بعدَ أسبوعٍ أنّ أحداً لم يهتمّ بِمكتبه؛ فكان الحلُّ إغلاقَ هذا المكتب، والعودة إلى سيارته (الفولسكفاجن)، وبيع الخُضروات عليها.

ذهب سامح إلى مكتب عطاالله ليُرتّبَ معه مسألةَ أجره المكتب، فوجد هناك جُورجيت وحدها، والتي أفنعتهُ بأنّ يبقى في المكتب، وأنّ لا يُغلّفه، وأنّها تتكفّل بِجميعِ مصاريفِ هذا المكتب مُقابلَ أن يبقى بالقربِ منها؛ فهي مُعجبةٌ به.

وبعد يومين جاء عطاالله إلى المكتب، و سألَ عن سامح، ثمّ أخبره بأنّه سوف يُصبحُ سائقَ زوجته الخاصّ، وأمّا جابر فقد أخبره بأنّ له عنده عملاً كثيراً، ثمّ أخذهُ معه ليوزعَ الأدوية على الصيدليّات في مُختلفِ مُدن الضّقة الغربيّة، وشجعه عطاالله على تخزينِ الأدوية في مكتبه، والقيام ببعض الصّفات بِنفسه، وإذا بالنّفود تجرّي في يديه بِشكلٍ لم يحلمَ به يوماً؛ فاشترى سيارته، وطلب من زوجته أن لا تعمل في الخياطة، وقال لها بأنّ تنزع موانع الحمل لتتجب طفلاً.

وكانت نهاية جابر وصديقه سامح مؤلمة؛ فقد دخل جابر السّجنَ بِتهمةِ ترويحِ الأدوية الفاسدة؛ وذلك لأنّ الأجهزة الأمنيّة وجدته يُخزّنُ الأدوية في مكتبه، وفي ظروفٍ لا يُراعي المعايير الصحيّة في

التّخزين، ولا يلتزم بالتّسعيرة، وفي زِنَانَةِ السّجْنِ وجد صديقه سامح يَبْكِي فقد قَرَفَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا
لِامْرَأَةٍ كَالْبُرْمِيلِ؛ فسرقَ مَصَاعِهَا وهرب، ولكنّه اعْتُقِلَ في اللّيلة ذاتها⁽¹⁾.

وذهب بعض الباحثين إلى القول بأنّ شخصيّات هذه الرّواية لَيْسُوا عَشَاقًا وَتُجَارًا شُرَفَاءَ، بَلْ
شَهْوَانِيُونَ وَلُصُوصٌ وَقَوَادُونَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَإِنَّ مَصِيرَهُ كَمَصِيرِ كَمَالِ نَاجِي الَّذِي أَسَّسَ جَمَاعَةَ
الفهد الأسود، واعتُقِلَ وعُدِّبَ؛ فكانَ مَصِيرُهُ التّهميشَ؛ فَهُوَ يَعْمَلُ ضَابِطًا فِي أَحَدِ الْأَجْهَازَةِ الْأَمْنِيَّةِ،
ويجلس بِالْقُرْبِ مِنَ الْغُرْفَةِ الَّتِي عُدِّبَ بِهَا مِنْ قِبَلِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، ولكنّه دائماً يتساءل: لماذا لا يحسّ
بالسّعادة⁽²⁾.

يرى بعضُ الباحثين في هذه الرّواية أنّ مناضلي الأُمس قد تمكّنوا مِنْ تَحْوِيلِ مُعَانَاةِ الشّعبِ
الْفِلَسْطِينِيِّ وتضحياتهم إلى مصالح نفعيّة(مُؤَسَّسات مَشْبُوهة، لِقَاءَاتٍ مَعَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، مَنَاصِبِ
ورواتب)، ومُنْتَقِلِينَ مِنْ عِلَاقَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَمِنْ تَنَازُلٍ إِلَى آخَرَ، وَمُنْتَكِرِينَ لِلْقَضِيَّةِ الَّتِي حَاولُوا فِي يَوْمِ
حَمَلِ شِعَارَاتِهَا⁽³⁾.

وتبدّل القِيمِ كَانَ قَدْ تَجَاوَزَ كُلَّ الْحُدُودِ بِامْتِدَادِهِ إِلَى الطّبَقَةِ الْمُتَقَفَّةِ، حَيْثُ أَصْبَحَ الْمَالُ مُتَحَكِّمًا فِي كُلِّ
شَيْءٍ؛ فهذا أحد الشعراء كان له شِلَّةٌ يَلْتَقِي بِهَا كُلَّ مَسَاءٍ فِي مَقْهَى الْخَيُْولِ، وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ انْضَمَّ
زَهِيرُ الْبَاشِقِ إِلَى الشِّلَّةِ، واندمجَ فِيهَا سَرِيعًا، وَكَانَ زَهِيرٌ قَدْ نَشَرَ الْعَدِيدَ مِنَ الْقِصَصِ النَّاجِحَةِ، وَنَشَأَتْ
بَيْنَ هَذَا الشّاعِرِ وَزَهِيرٍ عِلَاقَةٌ صَدَاقَةٌ قَوِيَّةٌ؛ فَأَسْرَ زَهِيرٌ لِهَذَا الشّاعِرِ بِأَنَّ لَهُ صَدِيقَةً تُدْعَى عَابِدَةَ
يَكْتَبُ لَهَا كِتَابًا عَنِ الْحَرَكَةِ النَّسُويَّةِ فِي فِلَسْطِينِ، وَ أَنَّهُ نَظِيرَ هَذِهِ الْكِتَابَةِ حَصَلَ مِنْهَا عَلَى عَمَلٍ ثَابِتٍ
فِي شَرِكَةِ (إِنْتِرَآكْشِن) لِصَاحِبِهَا الْبَعْبُولِ، وَأَنَّهُ وَضَمِنَ بِذَلِكَ دَخْلًا ثَابِتًا يُعِينُهُ فِي دِرَاسَتِهِ لِلْمَاجِسْتِيرِ فِي
جَامِعَةِ النَّجَاحِ، وَضَمِنَ كَذَلِكَ مُسَاعَدَةً أَهْلَهُ فِي الْقَرْيَةِ؛ فَاسْتَعْرَبَ هَذَا الشّاعِرُ مِنْ زَهِيرٍ كَيْفَ يَكْتَبُ

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتّجار، ص 90-91، ص 101-106.

²- يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص 112.

³- يُنظر: العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر، ص 37.

كتاباً لغيره؛ فأجابهُ بأن هذه تجارةٌ رائجةٌ، وأنه مارسها فيما قبل عندما كتب مقالات صحفية لرجل أعمالٍ آخرهوَ خليل (أبو) خليل الذي دفع مبالغ طائلة من أجل عدّة مقالات حول البلديات والاقتصاد والبنى التحتية، و أنه رغبَ بذلك في لفت أنظار القيادة السياسية إليه ليفوزَ بمنصبٍ ما، ثم أضافَ له أن كثيرين يكتبون لغيرهم مقابلَ المال .

طلب هذا الشاعر من زهير أن يدبرَ له أحد الأشخاص؛ ليكتب له شعراً، أو تراجم من الانكليزية، أو ما شابه ذلك، وفي ذات مساء يُفاجأ هذا الشاعر من أن زهيراً يجرُّ وراءه محمّد الحامض، والذي طلب منه بعد ذلك ترجمة بعض المقالات والفصول إلى العربية، والتي تُشكّل الأساس الاستراتيجي لعمل وزارته؛ فوافق دون تردّد⁽¹⁾.

أستدلُّ ممّا سبق أن كلَّ شيءٍ في فلسطين أصبح يُباع ويُشترى بعدَ اتفاقية أوسلو حتّى الأمور الأدبية الخاصة أصبحت عرضةً لذلك.

وتبدّل القيم ساعد على انتشار الانتهازية؛ فلقد أصبح الانتهازيون أسياد المرحلة الجديدة، فيما أمسى الذين ضحوا بحياتهم موظفين صغاراً أمثال كمال ناجي⁽²⁾.

والتبدّل في القيم ناتجٌ عن وجود المؤسسات الفلسطينية الخاضعة للشروط الصهيونية؛ ولذلك أشار بعض الباحثين إلى ضرورة إعادة النظر في كثير من هذه المؤسسات، مثل: اتحاد، ولجان، ومؤسسات مالية، واقتصادية، وفكرية... إلى غير ذلك من المؤسسات التي أصبحت الآن تُمثلُ عائقاً لحركة النضال الثوري⁽³⁾.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشق والتجار، ص 109-112.

²- يُنظر: الأسطة، عادل، أدب المقاومة، ص 20.

³- يُنظر: عبد الغني، مصطفى، في نقد الذات للرواية الفلسطينية، ص 143.

ثانياً: انتشار الفساد:

هذه الرواية كانت الرواية الأولى التي وضعت يدها على مظاهر الفساد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الطارئ على المجتمع الفلسطيني بعد اتفاقية أوسلو.

وهذه الرواية كانت لا تخدم سياسات كثيرة من المؤسسات الفلسطينية عند صدورها سنة 1996م؛ ولذلك جرى حجُبها وحجب أهميتها⁽¹⁾.

ولفساد في أيّ زمانٍ ومكانٍ شقان؛ فهناك الفساد الإداري في مؤسسات الدولة، الذي يتفرع عنه إهدار المال العام، وهناك الفساد الأخلاقي الذي قد يصيب معظم طبقات الشعب.

وأبدأ بالفساد الإداري، ومن أهم سماته تولّي أناسٍ فاسدين زمام الأمور في مؤسسات الدولة؛ وهذا ما حصل في المؤسسات الفلسطينية بعد اتفاقية أوسلو؛ فهذا هاشم (أبو) سليمان الذي كان يتولّى إدارة إحدى المؤسسات قد بدأ حياته عاملاً في أحد المخازن الكبرى بمدينة رام الله، ثم طرد منه بعد أن اتهم بسرقة المخزن؛ فسافر إلى الولايات المتحدة، وغاب سبعة أعوام عاد بعدها إلى الوطن، وهو يدعي أنه يحمل شهادة في الإدارة؛ فصدّقه الناس لسببين؛ فالأول أنه عاد ومعه مالٌ كثيرٌ، والثاني أنه يحمل جنسية أمريكية، وله زوجة أمريكية أيضاً، ولكنّها ماتت بعد سنة واحدة في ظروف غامضة تماماً؛ فعاد هاشم إلى الولايات المتحدة مرةً أخرى؛ وغاب سنتين عاد بعدها نحيفاً مريضاً بدون مالٍ، وقضى ثلاث سنواتٍ أخرى في الوطن، وهو يدور في الشوارع بدون عملٍ تقريباً إلى أن التقطته جماعة شركة الاستثمار عبر البحار، وهناك بدأت حياته مرةً أخرى، وأصبح الولد المدلل لمدير الشركة وزوجته الفرنسية نتيجة علاقته القويّة بالأخيرة، والتي أجبرت زوجها على دعم هاشم إلى أن وصل إلى درجة مديرٍ في هذه الشركة .

¹- يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفهم، ص18-19.

فَمِنَ الواضِحِ أَنَّ هاشمًا كانَ فاسدًا ومُستَعِدًّا للوَصولِ إلى أَهْدافِهِ بالطَّرُقِ غيرِ المَشْرُوعَةِ مِن سَرِقَةٍ،
وَعَرَامِيَّاتٍ...إلخ .

وَبِقُدُومِ السُّلْطَةِ الوَطَنِيَّةِ دَعَتْ ضَرُورَاتِ التَّنْمِيَةِ والمُجْتَمَعِ الحَدِيثِ إلى إِنْشاءِ مُؤَسَّساتٍ كَثِيرَةٍ؛ فَتَحَرَّكَ
هاشم بِدَعْمِ شَرِكَةِ الاسْتِثْمارِ عَبرَ البَحارِ، واسْتِطاعَ النِّجَاحَ في إِنْشاءِ هَذِهِ المُؤَسَّسَةِ؛ ولِهذا أَصْبَحَ أَحَدُ
كِبَارِ المُوظَّفِينَ فِيها، وَهَكَذا تَوَلَّى هاشم (أبو) سُلَيْمانَ أَحَدَ الفاسِدِينَ زِمَامَ الأُمُورِ في أَحَدِ المُؤَسَّساتِ
الفِلسطِينِيَّةِ .

وَمِنَ البَدِيهِى أَنَّ المُؤَسَّسَةَ الَّتِي تُبْنَى عَلى شَخْصٍ فاسِدٍ لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُؤَسَّسَةً فاسِدَةً، وَهذا ظَهَرَ
في إِدارَتِهِ لِلأُمُورِ في هَذِهِ المُؤَسَّسَةِ مِن تَعْيِينِ أَحَدِ أَصْدِقائِهِ، وَأَصْبَحَ لا يَتَعاملُ مَعَ مُوظَّفِيهِ إِلاَّ مِن
خِلالِ المورِقِ، والتَّعْلِيماتِ، ثُمَّ صارَ يُفَرِّقُ بَيْنَ المُوظَّفِينَ مِن خِلالِ الدَّرَجاتِ والعَلاواتِ والامْتِيازاتِ .
والتَّقدُّمِ في الدَّرَجاتِ والعَلاواتِ لا يَعمَلُ بِالإِخْلاصِ في العَمَلِ، أوِ الانْتِماءِ إِلَيْهِ بِقَدْرِ ما هُوَ تَدبِيرٌ
لِلأُمُورِ، وَمُصْطَلِحٌ (تَدبِيرِ الأُمُورِ) مُصْطَلِحٌ غامِضٌ في فِلسطِينِ؛ فَهو يَعمَلُ بِقِضاءِ حاجَتِكَ عَن طَرِيقِ
التَّنْظِيمِ، أوِ القَرابَةِ، أوِ صِلاتِ جُغرافيَّةٍ، أوِ عَشايرِيَّةٍ، وَقَدْ يَعمَلُ بِتَوازُناتٍ سِياسِيَّةٍ وَطائِفِيَّةٍ .

وَمِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ التَّقدُّمَ في العَمَلِ داخِلَ هَذِهِ المُؤَسَّسَةِ مَبْنِيٌّ عَلى أُسُسٍ شَخْصِيَّةِ الأَنسَةِ مِى عَندِما
تَطَوَّرَتْ عَلاقَتُها بِمَديرِها هاشم (أبو) سُلَيْمانَ حَذَرُها أَحَدَ الزُّملاءِ مِن مَغَبَّةِ تلكِ العَلاقَةِ؛ فَاسْتَهانَتْ
بِالأَمْرِ، وَقالتِ بِصِراحَةٍ إِنَّ ذلكَ لَنْ يُكَلِّفَها شَئِئًا ما دامتِ سَتَحْصَلُ عَلى الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ (1)؛ وَبِهذا
يَتَبَيَّنُ أَنَّ الكِفاءَةَ في العَمَلِ في المُؤَسَّساتِ الفِلسطِينِيَّةِ غيرِ مَطْلُوبَةٍ لِلتَّقدُّمِ في العَمَلِ.

وَهَكَذا مَهَّدَ وَجودَ المَراةِ الفِلسطِينِيَّةِ داخِلَ المُؤَسَّساتِ (الأَنسَةِ مِى مِثْلاً) بَعْدَ قُدُومِ السُّلْطَةِ الوَطَنِيَّةِ
لِلفِسادِ الأَخْلاقِيِّ في بَعْضِ الحَالاتِ (2).

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشاق والتَّجار، ص121-124.

²- يُنظر: عبد الهادي، فيحاء قاسم، نماذج المرأة/البطل في الرواية الفِلسطِينِيَّة، ص73.

وتُنبهُ الرّواية إلى العدوّ الداخلي داخل المُجتمع الفلسطيني، والمُتمثّل بالفاسد، والمُؤسّسات الفاسدة ومُديرها (1).

ولم يكن الفساد الإداري قاصراً على المُؤسّسات الحكوميّة، بلُ تعدّى ذلك إلى الفساد في المُؤسّسات الأجنبيّة، فرشيد مهباش أحد كوادر حزب التّحرير الإسلامي هربَ بعدَ عام 1967م إلى العراق، ثمّ إلى الكويت، وهناك عملَ محرراً فنيّاً في إحدى المجلّات، وتزوَّج ابنةَ أحد كبار التّجار الفلسطينيين وكوّن ثرواتٍ طائلة، وكان قد أنجب من زوجته ثلاثة بنين، وبناتاً واحدة، وكلّهم كانوا يدرسون ويعملون في أمريكا، وبعد حرب الخليج عام 1991م تُصادر جميع مُمتلكاته، ويعود إلى رام الله فقيراً ومُضطرباً عقليّاً؛ فينزلُ في بيتٍ قريبه الدُّكتور منصور عبد الهادي إحدى قيادات حزب اليسار؛ فتتوسّط عايدة أحد كوادر حزب اليسار في المُؤسّسة الأجنبيّة التي تعملُ بها؛ لتجد له وظيفةً تكفيهِ شرّاً الاعتمادِ على الآخرين .

وهذا دليلٌ لا يقبلُ الشكَّ أنّ الفساد الإداري كان قد تسرّب إلى المُؤسّسات الأجنبيّة؛ فالتّعيين يئمُّ بها عن طريق الواسطة، وهذه الحادثة تدلُّنا على انهيار القيم؛ فهذه عايدة المُناضلة اليساريّة أصبحتْ تعملُ مع المُؤسّسة المُمولة من قبلِ الدّول الغربيّة؛ فهي قد نسيتُ الحزب، وانهمكتْ في العمل مع هذه المُؤسّسة؛ وذلك مُقابل راتبٍ كبيرٍ؛ ولذلك لم يكنُ غريباً أن تشتري شقّة (2).

وعايدة بعد أن عمّلت في الأوساط النّسويّة بتوجيه من الحزب تمكّنت من إقناع المُستر مارتين الألماني بدعمِ الجمعيّة النّسويّة التي تنتمي إليها؛ لتتحول الجمعيّة إلى مشروع ألماني، وأضحّت هي مُنسقةً لأعماله في الصّفّة الغربيّة براتبٍ ضخمٍ بعيداً عن أطروحات الحزب، ولم يتوقّف انهيار القيم

¹- يُنظر: خواجة، علي، عين السارد: قراءات في أعمال أحمد رفيق عوض، ص152.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشّاق والتّجار، ص15-28.

عند هذا الحدِّ بل أصبحت تنتقلُ من علاقةٍ إلى أخرى، ومن رجلٍ إلى آخر بحثاً عن منفعةٍ خاصةٍ دون أن تُقيم وزناً للمبادئ أو الأخلاق⁽¹⁾.

ولابدَّ للفسادِ الإداري أن يُلازمه الفسادُ الأخلاقي في مؤسسات الدولة؛ فعبد الرحمن الصوفي أحد المناضلين السابقين يرى مجتمعاً جديداً قد تشكَّل بعد اتفاقية أوسلو؛ فهم يُجاهرون بالكفر والفسوق، وكانت النَّاس تشتم الذات الإلهية في الشارع، وعلى مسمعٍ من بعضهم بعضاً؛ فلا يغضبُ أحدُهم لله . عملَ عبدالرحمن الصوفي في المؤسسات الفلسطينية؛ فرأى الفساد الإداري والأخلاقي؛ وعندها شكَا مُديره المباشِر هاشم(أبو) سليمان إلى المدير العام صفوان رزق، وتوسَّم فيه الخير؛ فإذا بكتابه يرجع إلى هاشم(أبو) سليمان؛ فاستدعاه على الفور، وسأل إن كان يريدُ إقامة الدين في مألطة، وأنه سيُشتمُّ الذات الإلهية وقتماً شاء .

ووجد عبد الرحمن الصوفي في تلك المؤسسة نساءً كثيرات يلبسن تنانير قصيرة، ويبتاطير من تحت أباطهنَّ عطرٌ مُثير .

وذات يوم استدعى هاشم(أبو) سليمان عبدالرحمن الصوفي، وسأله عن سببِ رفضه الذهاب إلى مكتب الأنسة مي، وأخذ مُصادقتهَا على البيانات الرسمية؛ فأجابهُ أن الأنسة مي لا تكاد تضع شيئاً على جسدها، وكما أنها تتهكَّم عليه وعلى لحيته .

وعند سماع هذا الكلام انفجر هاشم(أبو) سليمان ضاحكاً، وقال بأننا نعملُ في هذه المؤسسة، و لا نستطيعُ أن نأمر النَّاس بارتداء أنواعٍ مُعيَّنةٍ من الملابس .

¹- يُنظر: العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر، ص31.

ونظراً لالتزام الإسلامي عند عبدالرحمن؛ فقد وصفته الأنسة مي بأنه مُعَقَّد، ثُمَّ أَطْلَقَتْ عَلَيْهِ اسْمَ
ابْنِ عَرَبِيٍّ؛ فِشَاعَ هَذَا الْاسْمِ بَيْنَ الزُّمَلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئاً عَنْ شَخْصِيَّةِ ابْنِ عَرَبِيٍّ؛ فَهُمْ يَجِيدُونَ
الْحَدِيثَ فَقَطْ عَنِ الْجِنْسِ وَالنُّقُودِ⁽¹⁾.

ومِمَّا يَدْعُمُ نَظْرِيَّةَ انْتِشَارِ الْفَسَادِ الْأَخْلَاقِيِّ دَاخِلَ هَذِهِ الْمَوْسَسَةِ أَنَّ أَحَدَ الْمُوظَّفِينَ نَشَأَتْ لَهُ عِلَاقَةٌ
قَوِيَّةٌ بِالْآنِسَةِ مِي؛ فَكَانَتْ تُطْلِعُهُ بِاسْتِمْرَارٍ عَلَى أَسْرَارِ هَاشِمِ (أَبُو) سُلَيْمَانَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ الْوَسِيطَ
فِي تَرْوِيجِ عَمَّتَيْهَا الْعَانِسِ إِلَى صَاحِبِ الْبَيْتِ الَّذِي يَسْكُنُ فِيهِ، وَقَدْ اسْتَطَاعَ هَاشِمِ (أَبُو) سُلَيْمَانَ أَنْ
يُطَارِدَهُ بِالْأَوَامِرِ الْإِدَارِيَّةِ الظَّالِمَةِ وَالْمُجْجِفَةِ وَالْخُصُومَاتِ غَيْرِ الْمُبَرَّرَةِ؛ مِمَّا دَفَعَ هَذَا الْمُوظَّفَ إِلَى
التَّفْكِيرِ بِالِانْتِقَامِ مِنْهُ؛ فَفَكَّرَ أَنْ يَتَّصَلَ بِرُؤُوسِهِ مِثْلًا، وَيُنْقَلِ لَهَا مُغَامِرَاتٍ زَوْجَهَا فِي فَنْدَقِ الْأَمِيرِكَانَ
كُولُونِي، حَيْثُ عَرَفَ أَنَّهُ كَانَ يَلْتَقِطُ الْأَجْنَبِيَّاتِ، وَيَأْخُذُهُنَّ إِلَى الْفَنْدَقِ فِي الْقُدْسِ الْعَرَبِيَّةِ، وَفَكَّرَ أَيْضاً
فِي قَتْلِهِ⁽²⁾.

وَلَعَلَّ سَبَبَ هَذَا الْفَسَادِ الْأَخْلَاقِيِّ كَوْنَهُ يَدُورُ دَاخِلَ مَدِينَةِ رَامِ اللَّهِ، وَدَوْرَ الْمَدِينَةِ لَا يَنْحَصِرُ فِي كَوْنِهَا
تَجْمَعاً سَكَّانِيًّا كَبِيراً، بَلْ إِنَّ الْمَكَانَ يُؤَثِّرُ فِي سَاكِنِيهِ وَيَتَأَثَّرُ بِهِمْ؛ فَإِنَّ لِلْمَدِينَةِ بِمِظَاهِرِهَا الْمَادِيَّةِ وَالرُّوْحِيَّةِ
سُلْطَتَهَا الْوَاضِحَةَ عَلَى تَرْكِيبَةِ وَعِي الْإِنْسَانِ وَالْمُجْتَمَعِ وَتَتَفَاعَلُ مَعَهَا فِي عِلَاقَةٍ جَدَلِيَّةٍ مُسْتَمِرَّةٍ؛ وَبِمَا أَنَّ
رَامَ اللَّهِ تَطَوَّرَتْ عَلَى أَيْدِي بَعْضِ الْفَاسِدِينَ؛ فَإِنَّ الْفَسَادَ الْإِدَارِيَّ وَالْأَخْلَاقِيَّ قَدْ انْتَشَرَ بِهَا كَثِيراً⁽³⁾.

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ الْوَحِيدَةُ عَلَى انْتِشَارِ الْفَسَادِ الْأَخْلَاقِيِّ دَاخِلَ الْمَوْسَسَاتِ الْفِلِسْطِينِيَّةِ؛ فَهَذَا (أَبُو)
نَاصِرٍ أَحَدِ سُكَّانِ مُخَيِّمِ الْجَلْزُونِ عِنْدَمَا عَانَى مِنَ الْبَطَالَةِ وَشَحَّ النُّقُودَ ذَهَبَ إِلَى هَاشِمِ (أَبُو) سُلَيْمَانَ
الَّذِي تَرَبَّطَهُ بِهِ عِلَاقَةٌ مَا لِيَتَوَسَّطَ لَهُ فِي إِجَادِ عَمَلٍ مَا؛ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فِي الصَّبَاحِ، وَوَجَدَهُ يَتَحَدَّثُ
بِالْهَاتِفِ طَوَالَ الْوَقْتِ، وَمَا إِنَّ سَتَحَتَّ الْفُرْصَةَ لِلْكَلامِ حَتَّى دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مُعْطَرَةٌ تَلْبَسُ تَنْوَرَةً قَصِيرَةً إِلَى

¹- يُنْظَرُ: عَوْضٌ، أَحْمَدُ رَفِيقٌ، مَقَامَاتُ الْعُشَّاقِ وَالتَّجَارِ، ص 41-43.

²- يُنْظَرُ: الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص 123-124.

³- يُنْظَرُ: الْجَوَارِيشُ، عَدْنَانُ عُثْمَانَ، حَرَكَةُ التَّجْرِبِ فِي الرِّوَايَةِ، ص 72-75.

الغرفة، وما إن شاهدها هاشم(أبو) سليمان حتى قام عن كرسيه الدوار وأخذها إلى أحضانها، وتبادلا القبل على مرأى منه، والذي بدوره انطلق عائداً إلى بيته (1).

الأحظ في المشهد السابق أن هناك بعض المبالغة في تصوير الفساد الأخلاقي داخل المؤسسات الفلسطينية؛ والقبل لن تكون علانية بين المدير وسكرتيرته تحت أي ظرف.

ولعل السبب الأهم في كون الشخصيات النسائية في روايات أحمد رفيق تميل إلى الانحلال والفساد الأخلاقي قد تكون فشله في حبه الأول والوحيد في حياته، والذي جعله لا يكرّر الحب مرةً أخرى مع أي فتاةٍ أخرى؛ فنظرته إلى المرأة تنطلق من عقدةٍ نفسيةٍ لديه؛ فهو يراها مُعادلاً للدمار والهلاك، ويُضاف إلى ذلك وجود بعض الفساد الأخلاقي داخل المؤسسات الفلسطينية في رام الله.

ولم يتوقف الفساد الأخلاقي داخل المؤسسات الفلسطينية، بل امتدَّ خارجها؛ فمحمد الحامض أقام مع عابدة علاقةً حارةً وحميميةً بعد أن التقى بها في أمستردام، ففي إحدى المرات كان محمد الحامض ينتظر عابدة التي كانت تستحم على بُعد أمتارٍ في حمامٍ رخامي في إحدى العمارات في مدينة رام الله. وبناءً على ما سبق أرى أن شخصيات هذه الرواية تركض وراء مصالحها وشهواتها، وتتخلى عن أفكارها؛ فكاتبت هذه الرواية من أوائل الكتاب الذين يكتبون بهذه الجرأة؛ فالمكان (رام الله) هو مكانٌ تعددي وليبرالي، وهو الدافع لتلك الإباحية (2).

وظهر الفساد الأخلاقي في الرواية جلياً عن طريق انتشار الرّنا؛ فهذا عطا الله احتفل مع إعاد وزوجته غرتسيا في فندق هيات بمناسبة الأرباح العظيمة لأحد الصفقات، وفي تلك الليلة نام عطا الله مع غرتسيا الفاتحة الجمال، والتي علّنت ذلك بأنها تريد تجريب الفلسطينيين؛ فأخبرها عطا الله بأنه يحمل الجنسية الإسرائيلية مثلها بالضبط (3).

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتجار، ص 66-67.

² - يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص 127.

³ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتجار، ص 81.

وامتدَّ الفساد الأخلاقي إلى داخلِ الشَّرَكَاتِ الخاصَّة؛ فهَذَا شريف عبد المنعم أحد العُمَالِ فِي شركة (إنترآكشن) رأى ذات مرَّةٍ داخلَ مكتبِ البعبولِ أَنَّ زوجته هالة تتبادل النظرات مع محمَّد الحامض أحد الموظَّفين فِي الشركة؛ فعرف أَنَّ هُنَاكَ أَشْيَاءَ مَخْفِيَّةً بَيْنَهُمَا؛ وتأكَّدتْ هَذِهِ المُلَاحَظَةُ عِنْدَ مُشَاهِدَةِ شريف لِمُحَمَّدِ الحامض وهالة يَزُورَانِ الورشةَ وَيَتَقَدَّانَهَا، ثُمَّ يتبادلانِ القُبْلَ مع بعضِهِمَا وراءَ الأعمدة، وفُوجئَ أَنَّ رشيد مهباش والد هالة رأى كُلَّ شَيْءٍ، ولم يَتَكَلَّمْ بِكَلِمَةٍ واحدة.

وبعد فترةٍ جاء عطا الله السَّمَسار شريك البعبول إلى مكتبه؛ فأخذ شريف عبد المنعم إلى مكتب محمَّد الحامض القريب من مكتب البعبول، وهُنَاكَ وجد معه امرأةً مُمْتَلِنَةً تلبس ثياباً ضيقةً ومُثِيرَةً؛ فلَمَّا رآهَا عطا الله صرَّخَ: عابدة !

قدَّمتْ عابدة عطا الله إلى محمَّد الحامض بأنَّه زميلٌ قديمٌ فِي الجامعة، ثُمَّ رَحَّبَ بِهِ محمَّد الحامض، وقال لَهُ بأنَّه مُتأكَّد أَنَّهُ كَانَ عاشقاً لهذه المرأة الجميلة؛ فانسحبَ شريف عبد المنعم من المكان؛ فلم يَعدْ لوجوده أَيَّ معنى (1).

أستدلُّ مِمَّا سبق أَنَّ محمَّد الحامض المُناضِلِ السَّابِقِ قد تخلَّى عن كُلِّ مَبَادِيهِ، وأصبح يَتَّقَلُّ مِنْ امرأةٍ لِأُخْرَى سَعِيًّا لِإشباعِ غرائِزِهِ الحيوانِيَّةِ بِدُونِ مُراعاةِ لآيَةِ ضوابطِ أخلاقيَّةِ.

تعمد أحمد رفيق عوض تشويه صورة المُناضِلين فِي مرحلة ما بعد اتِّقافِيَّةِ أوْسَلُو وتعميمها؛ وذلك للإشارة إلى أَنَّ الزَّمنَ لم يَعدْ يَتَّقَبَلُ منطق المُناضِلين؛ فمن أراد الارتقاء فِي المُجتمعِ الجَدِيدِ لا بُدَّ لَهُ أَنْ يُفَكِّرَ بِمنطقِ التَّجَارِ.

وتتوالى الحوادث فِي الرواية الَّتِي تدلُّ على فساد الأخلاق؛ فَهَذِهِ سعيدة زوجة الدُّكتور مَنْصور عبد الهادي تتحاورُ مع زَوْجِهَا عَلَى فسادِ أخلاقِ المُجتمع؛ فأخبرتهُ بِأَنَّ هالة زوجة البعبول أُسْرَتْ لَهَا بِاتِّهامِ زَوْجِهَا لَهَا أَنَّهَا على علاقةٍ بِموظَّفٍ جَدِيدٍ يُدْعَى محمَّد الحامض، وهذا الشَّخْصُ اشْتَرَكَ مَعَ

¹- يُنظر: المصدر السَّابِقِ، ص 90-91.

آخرين بخطب زوجها والتحقق معه في قدرون في السنوات الأولى للانتفاضة، ثم أضافت أن محمداً الحامض كان على علاقة بامرأة أخرى اسمها عايدة، والتي تعمل في مؤسسة خيرية، ولكنها تركته، وهي الآن على علاقة مع شاب آخر يدعى زهير الباشق، وهو صحفي يدرس الماجستير في جامعة النجاح .

وتتأكد علاقة عايدة بزهير الباشق عندما جاءت لزيارة الدكتور منصور، وكانت تجرُ زهيراً وراءها، ثم قدمته للجميع بأنه زهير الباشق، وهو يكتب القصة ويعكف على كتابة رسالة الماجستير في فكر الدكتور منصور وكتبه، ثم تركت هذا الشاب مع الدكتور، وجاءت إلى سعيده في المطبخ الذي تحبه، وقالت لها بأن زهيراً قرويٌّ خجولٌ تعرفت عليه خلال ندوة ثقافية وضبطته، وهو ينظر إلى ساقها، ثم تحدثت بأن محمداً الحامض حقيرٌ، فهو قد تركني من أجل قريبكم هالة؛ وهي التي ضمنت له وظيفة براتبٍ ضخماً⁽¹⁾.

وبعد اتفاقية أوصلو أصبح الرجال ينقادون وراء شهواتهم، ويتنقلون من امرأة إلى أخرى؛ فهذا جابر الذي عمل مع عطا الله يتحدث بأن عطا الله شخصٌ فاسدٌ، و أنه يعرف عدداً لا بأس به من النساء، ولكن المرأة التي تستأثر بكامل اهتمامه امرأة تدعى عايدة، وقد تشاجر معها مراتٍ عدة بسبب علاقتها بشخص آخر يدعى زهير الباشق؛ فقالت له بأنها تستغله من أجل أن يكتب لها كتاباً عن الحركة النسائية، ثم سألها عن علاقتها بمحمد الحامض؛ فأجابت بأنه كان مهتماً لاستعادة وضعها في الحزب .

وامتدَّ فساد الأخلاق إلى الطبقة المتفككة، ومنهم الشعراء؛ فأحد الشعراء كان يسكن عند (أبو) رامي السمسار في إحدى الشقق، وكان معظم راتبه يذهب لإيجار هذه الشقة؛ فعرض عليه (أبو) رامي تخفيض أجره الشقة مقابل تعليم ابنته هيام اللغة الإنكليزية؛ فوافق، وعند ذهابه إلى بيتهم أول مرة

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشاق والشَّجار، ص 96-98.

جلس وإياها في الشرفة، وكان واضحاً أنها تُدبّر أمراً، ومُنذُ الدرس الأول تركته يعبثُ بصدرها، وفي الدرس الثاني حدّثته بما لم يحظر على بال .

وبقيت شقة (أبو) رامي مكاناً للفساد الأخلاقي؛ ففي إحدى المرات ذهب إلى شقة (أبو) رامي؛ فوجد هياماً في ثوب منزلي، وكان شفافاً مليئاً بالخُيوطِ المُتَشَابِكَةِ، وما هي إلا لحظات حتى دخلتُ صبيبةً أخرى تُدعى هياماً في عُمرِ الأولى؛ فسلمتُ عليه بدون حياءٍ؛ وشعر أنها تعرفُ سرهما، ولكن هيام طمأننتُ هذا الشاعر بأن انضمام منال إلى الدرس خير وقايةٍ وأفضلُ حماية .

وهذا الشاعر لم يكن بذلك، بل شاهد الفساد الأخلاقي لبعض مناضلي الأمس، والذين أصبحوا يتبعون أهواءهم؛ فقد كان يعمل في ترجمة بعض المقالات والفصول لمحمد الحامض؛ فجاءه ذات عصرٍ بارد، وحمل إليه ما أنجزه من عملٍ؛ فطرق الباب مرّاتٍ عديدة قبل أن يفتح، وعندها شعر بأن محمداً متضايقاً، ولكنّه أدخله إلى المكتب عن طريق المطبخ، وليس عن طريق الممر الذي يؤدي إلى غرفة الجلوس؛ فشمت رائحة امرأة؛ فطلب منه أن يعمل حتى يفرغ؛ فلم يستطع العمل؛ فتسلل بحفية إلى غرفة الجلوس، ومنها إلى باب غرفة النوم؛ فسمع محمداً يتحدث مع عايده، واتهمها بأنها تلعب بالجميع؛ فأخبرته عايده بأنه حُبها الوحيد، وأما الآخرون فهم أدوات⁽¹⁾، وهكذا يرى بعض الباحثين أن الرواية تُنبئ المجتمع الفلسطيني إلى الفساد، وقد اشتمت رائحته قبل دعوات الإصلاح بسنوات عديدة⁽²⁾.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشّاق والتجار، ص 108، ص 111-112.

²- يُنظر: خواجة، علي، عين السارد: قراءات في أعمال أحمد رفيق عوض، ص 134.

ثالثاً: مظاهر الحياة الغريبة:

صوّر الحياة الغريبة كانت قد تسرّبت إلى المُدن الفلسطينية أكثر من بيئة القرية والمُخيمات؛ فالمدينة تحلُّ أهميةً كبيرةً في الضفّة الغربيّة، وقد كانت رام الله من أهمّ المُدن الفلسطينية التي تسرّبت إليها مظاهر الحياة الغريبة (1).

ومن أهمّ صور الحياة الغريبة التي كانت قد انتشرت في سماء رام الله بعد اتفاقية أوسلو انتشار الشركات الرّبحيّة، والشركات الاستثماريّة، والتي لا تُفكّر إلا في الرّبح فقط؛ وذلك أدّى إلى تعاظم الأموال في أيدي أصحاب هذه الشركات ووكلائها على حساب عامّة الشعب؛ فهذا مُحمّد البعبول هرب إلى أمريكا بعد أن سرّب أراضي وعقارات كثيرة إلى الاحتلال، وهناك تعرّف على هالة ابنة رشيد مهباش الفلسطينية الأصل، والمولودة في الكويت أثناء لقاءٍ صحفي في المجلّة التي تعمل بها؛ فأعجب بها كثيراً، وهالة كانت تستخدمُ جسمها لتصل إلى أهدافها؛ فيتزوَّج البعبول بهالة بعد أن نام معها في إحدى الفنادق، وعندما اتّصل به أحد الأشخاص مُخبراً عن حقيقة زوجته أجابه بأننا كلنا غاهرون، ثمّ قدّم البعبول إلى رام الله مع زوجته ليُصبح وكيلاً لثلاث شركات صناعيّة كبيرة، وذلك بمساعدة أشقاء زوجته، والذين نصحوه أن يستثمر أمواله في قطاع البناء بمدينة رام الله، وأنفقوا على نسب الأرباح في شركة تجاريّة أسموها (إنترآكشن).

بدأت بعد فترةٍ مشاريع (إنترآكشن) التجاريّة من إعلاناتٍ تجاريّة، وعماراتٍ ضخمة، ومساهماتٍ في البنوك، وغيرها .

يتّضح ممّا سبق أنّ الشركات والوكالات أخذت تتسابقُ للعمل في رام الله؛ وذلك لجني الأرباح على حساب عامّة الشعب (2).

¹- يُنظر: ذياب، يوسف محمّد، الرّواية الفلسطينية في الضفّة الغربيّة وقطاع غزة (رسالة ماجستير)، ص 130.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشّاق والنُّجار، ص 55-59.

رابعاً: انتشارُ عملاءِ الاحتلالِ وسماسرتهم:

انتشرت ظاهرة العملاء والمتعاونين في المجتمع الفلسطيني بعد الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية؛ وذلك تمثل في قيام المخابرات الصهيونية بالدخول إلى ترقية المجتمع الفلسطيني عن طريق زرع العملاء والمتعاونين بين الأهالي، وظهرت هذه الظاهرة بصورة جلية بعد اتفاقية أوسلو⁽¹⁾.

وهؤلاء العملاء والسماسرة كانوا مُنفذين لكل ما يطلبه الاحتلال منهم؛ فهذا عطا الله بعد أن سرب العديد من الأراضي والعقارات إلى الاحتلال قام شريكه الصهيوني إعاد بتعريفه إلى عددٍ من السماسرة داخل مدينة القدس؛ فقد كان أغلبهم من الشبان الذين لم يتجاوزوا مُنتصف الثلاثينات؛ فقد كانوا أذكيا وطموحين وقلقين، وكانوا يحملون هواتف مُتحرّكة، واجتمع عطا الله معهم في إحدى المقاهي في شارع يافا القدس، وحينها تحدّثوا عن الصفقات التي نجحوا بها، وسخروا من صمود الشعب الفلسطيني وكفاحه، وتحدّثوا عن مُحادثات السلام في مدريد أنّها عودةٌ إلى الحُضنِ الصهيوني.

وكانت لديهم مقاهيم مغلوطة؛ فقد اعتقدوا بأنّ الكيان الصهيوني لن تتخلى عنهم حتى في أفضل معاهدة سلام، وهذا مخالفٌ للوقائع التاريخية⁽²⁾.

وهؤلاء السماسرة كانوا مُنحطين أخلاقياً؛ فقد كانوا يتباهون أمام عطا الله بأنهم ضاجعوا غزتسيا جميعاً في فندق هيات مثله تماماً؛ فغزتسيا لم تكن سوى طعم لأولئك الذين استبدلوا الرذيلة بالقيم والمثل؛ فكان فُجورهم وبالأعلى شغبهم .

أمّا بالنسبة للعملاء في هذه الرواية؛ فقد كان مُحمّد أبو معروف (البعبول) ممثلاً لشخصية العميل مُنذُ بداية حياته؛ فقد عمل بتشجيع من الاحتلال مُديراً لمكتب العمل، ثم صار رئيساً لإحدى روابط القرى التي هدفت في مرحلة السبعينيات إلى إلغاء دور منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد فشل الروابط عينته سلطات الاحتلال رئيساً لإحدى بلديات محافظة جنين، وعندما اندلعت الانتفاضة حاول شراء الذمم

¹- يُنظر: الشحادة، يوسف محمّد ذياب، الرواية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، ص65.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشّاق والتجّار، ص83.

والضمانر بأمواله، لكن ذلك لم يمنع القوى الوطنية من اختطافه؛ فأعترف بدوره في سقوط العديد من الشباب والفتيات في شبكة للتجسس.

وبعد قدوم السلطة الوطنية يعود البعبول إلى رام الله من الولايات المتحدة التي فر إليها، وأثناء عودته كان برفقة زوجته هالة رشيد مهباش التي تزوجها بصفتها مشروعاً استثمارياً رغم الإشارات التي وصلتته، تتهمها بأنها عاهرة⁽¹⁾.

وكانت قضية العملاء والسماسة تشغل بال السلطات الإسرائيلية باستمرار، وهذا ملاحظه المفاوضات الفلسطينية؛ فهذه القضية تستحوذ منهم مجهوداً كبيراً فائقاً.

ولوحظ أنه أثناء إجراء المفاوضات كانت الصحف الإسرائيلية تخرج، وكلها تركز على ضرورة توفير الأمن والحماية للمتعاونين.

ولعل هذه المحاولة الشكلية من قبل الاحتلال لتوفير الحماية للعملاء والسماسة هدفها جعل هذه الشريحة المنحرفة أن تعمل لصالح الكيان الصهيوني دون كلل أو خوف⁽²⁾.

خامساً: الاعتزال:

ومن الناس من لم يحتمل رؤية الفساد الذي نشأ في المجتمع الجديد؛ فاعتزل الحياة، ومن هؤلاء كان عبد الرحمن الصوفي الذي تخرج من جامعة الخليل الذي لم يستطع أن يحصل على أي وظيفة حكومية بسبب شروط الاحتلال الأمنية؛ فاضطر إلى العمل في ورشات البناء.

وعندما جاءت السلطة الوطنية يعمل في وظيفة حكومية مزموقة في إحدى مؤسسات السلطة، ويكتشف بعد ذلك أنه يتعامل مع مجموعة من اللصوص والانتهازيين، حين يرفع مديره المباشر تقريراً سرياً

¹- يُنظر: العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر، ص 91، ص 41.

²- يُنظر: عبد الغني، مُصطفى، في نقد الذات للرواية الفلسطينية، ص 18.

يَتَّهَمُهُ بِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى أُمُورٍ وَأَفْكَارٍ تَتَعَارَضُ مَعَ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ؛ فَلَمْ يَجِدْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِزَاءَ هَذَا الاضْطِهَادِ سُوءَ الْعُزْلَةِ، وَالْأَنْزِوَاءِ فِي أَحَدِ الْجِبَالِ بَحْثًا عَنِ الْخَلَاصِ مِنْ وَاقِعِ الْخِيَابِتِ⁽¹⁾.

سادساً: الإجراءات الإسرائيلية:

اتِّفَاقِيَّةٌ أَوْسَلُو لَمْ تَغَيَّرَ مِنْ وَاقِعِ الْاِحْتِلَالِ شَيْئًا؛ فَقَدْ بَقِيَتْ أَعْمَالُ مُصَادَرَةِ الْأَرْضِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ تَحْتَ ذِرَاعٍ كَثِيرَةٍ؛ فَهَذِهِ طَمَّونَ الْقَرْيَةِ الْوَأَقِعَةَ قُرْبَ طُوبَاسِ كَانَ لِأَهْلِهَا رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ مَا بَيْنَ الْقَرْيَةِ وَالغُورِ؛ فَفِي الشِّتَاءِ كَانُوا يَزْرَعُونَ فِي الْغُورِ الْبَنْدُورَةَ وَالْبَامِيَاءَ وَالْقِتَاءَ، وَفِي الْغُورِ كَانُوا يَبْنُونَ بِيوتًا مِنْ قَصَبٍ وَبِلَاسْتِيكٍ، وَيَعِيشُونَ بِالْقُرْبِ مِنْ نَبَاتَاتِهِمُ الَّتِي تَنْمُو بِبُطْءٍ شَدِيدٍ؛ فَتَنْبَهَ الْمُحْتَلُونَ لِهَذِهِ الْأَرْضِ؛ فَصَادَرُوا كَثِيرًا مِنْهَا، وَأَعْلَنَتْ كَثِيرًا مِنْهَا أَمْلاكَ الْغَائِبِينَ، وَلَمْ يَكُونُوا غَائِبِينَ، بَلْ هَارِبِينَ مِنَ الْاِحْتِلَالِ، وَقَايَصَ الْمُحْتَلُونَ الْأَهْلِي بِأَرْضٍ بَعِيدَةٍ؛ فَقَبِلَ الْبَعْضُ وَرَفَضَ الْبَعْضُ الْآخَرَ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَتَكَرَّرُ كَثِيرًا⁽²⁾.

وَكَانَ هَدَفُ الْكِيَانِ الصَّهْيُونِيِّ مِنْ مُصَادَرَةِ الْأَرْضِ، أَوْ شِرَائِهَا طَرْدَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ مِنْ فِلَسْطِينَ لِیُصَبِّحَ الْكِيَانُ الصَّهْيُونِيُّ نَقْطَةً خَالِيَةً مِنْ سُكَّانِهَا الْأَصْلِيِّينَ، فَهَذِهِ نَظَرِيَّةُ (التَّرَاسْفِير) الَّتِي يُنَادِي بِهَا الْمُسْتَوْطِنُونَ⁽³⁾.

وَقِيَامَ السُّلْطَةِ الْوِطْنِيَّةِ بِمُوجِبِ اتِّفَاقِيَّةِ أَوْسَلُو سَنَةَ 1993م لَمْ تَمْنَعْ أَعْمَالَ الْمُقَاوِمَةِ ضِدَّ الْإِجْرَاءَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ عَمُومَ الشَّعْبِ الْفِلَسْطِينِيِّ كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّ عَوْدَةَ السُّلْطَةِ الْوِطْنِيَّةِ إِلَى أَرْضِ الْوِطَنِ لَنْ تَمْنَعَ سَلْبَ الْأَرْضِ أَوْ مُصَادَرَتَهَا؛ فَهَذَا جَاسِرٌ أَحَدَ الْعُمَّالِ فِي قَدْرُونَ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ؛ فَيَطْلُبُ مِنْهُ (أَبُو) أَحْمَدَ مَسْئُولَ أَحَدِ التَّنْظِيمَاتِ بِأَنْ يَقْتَلَ ضَابِطَ الْمُخَابِرَاتِ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي سَوْفَ يَلْتَقِيهِ فِي النَّاصِرَةِ فِي يَوْمِ غَدٍ؛ فَذَهَبَ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ إِلَى الشَّقَّةِ الَّتِي تَعَوَّدَ أَنْ يَلْتَقِيَ فِيهَا بِضَابِطِ الْمُخَابِرَاتِ فِي

¹- يُنْظَرُ: الْعِيْلَةُ، زَكِي، صُورَةُ الذَّاتِ وَصُورَةُ الْآخَرِ، ص 26-27.

²- يُنْظَرُ: عَوْضُ، أَحْمَدُ رَفِيقُ، مَقَامَاتُ الْعُشَّاقِ وَالنَّجَّارِ، ص 46-47.

³- يُنْظَرُ: الْبُوجِي، مُحَمَّدُ بَكْرُ، صِرَاعُ التَّقَاتِ فِي الزَّوَابِةِ الْعَرَبِيَّةِ، ص 64.

النَّاصِرَة، ولمَّا طَرَقَ الضَّابِطُ بَابَ الشَّقَّةِ فَتَحَ لَهُ جَاسِرًا، وَأَطْلَقَ الرِّصَاصَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَرَّ مِنَ الْمَكَانِ؛ فَقَامَتْ إِسْرَائِيلُ بِمُحَاصِرَةِ قَدْرُونَ، وَامْتَلَأَتْ بِكُلِّ جُنُودِ الْإِحْتِلَالِ؛ فَاعْتَقَلُوا كَثِيرًا مِنَ السُّكَّانِ، ثُمَّ هَدَمُوا بَيْتَ جَاسِرٍ وَشَرَّدَ وَالِدَهُ وَأُمَّهُ وَإِخْوَتَهُ الْإِثْنَا عَشَرَ .

وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ تَرَكَ شَرِيفٌ عَبْدَ الْمُنْعَمِ قَدْرُونَ لَيْلًا، وَهُوَ يَحْمِلُ مُسَدَّسَهُ، وَمَشَى عَلَى الْأَقْدَامِ كُلِّ الْمَسَافَةِ مَا بَيْنَ جَنِينٍ وَتَابَلِيسَ، وَهُنَاكَ التَّقَى بَعْضَ الْإِخْوَةِ الْمُطَارِدِينَ فِي الْقَرْيَةِ الْمُتَنَازِلَةِ عَلَى أَكْتَافِ الْجِبَالِ، وَهُنَاكَ عَلِمَ أَنَّ (أَبُو) أَحْمَدَ قَدْ قُتِلَ فِي اسْتِنَاكِ مَعَ جُنُودِ الْإِحْتِلَالِ فِي قَدْرُونَ .

وَصَلَ شَرِيفُ عَبْدِ الْمُنْعَمِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى رَامَ اللَّهِ؛ فَطَلَبَ مِنْهُ أَحَدَ الْإِخْوَةِ أَنْ يُعْطِيَ نَفْسَهُ بِعَمَلٍ دَاخِلِ الْمَدِينَةِ؛ فَقِيلَ لَهُ أَنَّ الْبَعْبُولَ ابْنَ قَرَيْتِهِ يَمْتَلِكُ شَرِكَةً كَبِيرَةً؛ فَفَصَدَهُ لِذَلِكَ الْغَرَضِ؛ فَجَعَلَهُ مُرَاقِبًا عَلَى الْعَمَالِ فِي وَرْشَةِ بَيْتُونِيَا، وَهُنَاكَ وَجَدَ الْمَأْوَى؛ فَانْتَبَهَ إِلَى الشَّارِعِ الَّذِي يَشُقُّ بَيْتُونِيَا، وَيَسْتَعْمِلُهُ الْمُسْتَوِطُونَ يَوْمِيًّا بِالْقُرْبِ مِنْ تِلْكَ الْوَرْشَةِ؛ وَفِي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ صَوَّبَ شَرِيفٌ مُسَدَّسَهُ بِاتِّجَاهِ سَيَّارَةِ أَحَدِ الْمُسْتَوِطِينَ؛ فَلَمْ يُصَبِّ بِأَذَى، وَلَكِنَّهُ أَطْلَقَ الرِّصَاصَ عَلَى شَرِيفٍ وَأَصْحَابِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ أَحَدِ الْإِخْوَةِ، وَالَّذِي عَالَجَهُ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَبَعْدَ يَوْمٍ كَامِلٍ انْسَحَبَ جُنُودُ الْإِحْتِلَالِ مِنَ الْمَكَانِ؛ فَتَقَلَّ إِلَى الْمُسْتَشْفَى، وَهُنَاكَ تَعَرَّفَ عَلَى نَاصِرٍ مِنْ مُخِيْمِ الْجَلْزُونَ، وَالَّذِي رَافَقَ شَرِيفًا أَثْنَاءَ ذَهَابِهِ إِلَى الْقُدْسِ لِلْقِيَامِ بِأَحَدِ الْعَمَلِيَّاتِ الْاسْتِشْهَادِيَّةِ(1).

أَسْتَنْتَجُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ قِيَامَ السُّلْطَةِ الْوَطْنِيَّةِ لَمْ تَمْنَعِ الْمُقَاوِمَةَ، وَلَمْ تَمْنَعِ الْإِجْرَاءَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةَ ضِدَّ الْفِلَسْطِينِيِّينَ .

وَتَطَرَّقْتُ الرَّوَايَةَ إِلَى شَخْصِيَّةِ الْمُطَارِدِ؛ وَالَّتِي تَبْقَى مُلَازِمَةً لِلْحَيَاةِ وَفَاعِلَةً فِيهَا مَا بَقِيَ الْإِحْتِلَالُ جَائِمًا فِي الصُّدُورِ وَالْعُقُولِ وَالْفُضَاءِ، وَهَذَا الْأَمْرُ جَعَلَهُ صَدِيقًا لِلطَّبِيعَةِ(2).

1- يُنْظَرُ: عَوْضُ، أَحْمَدُ رَفِيقُ، مَقَامَاتُ الْعُشَّاقِ وَالنَّجَّارِ، ص 85-92.

2- يُنْظَرُ: الذِّيكُ، نَادِي سَارِي، عِلَامَاتُ مُتَجَدِّدَةِ فِي الرَّوَايَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ، ص 56-57.

وبسبب الإجراءات الإسرائيلية وأعمال المقاومة لم يتحسن الوضع الاقتصادي للشعب الفلسطيني، بل ازداد سوءاً وتعقيداً؛ فقد خرج ناصر من المستشفى بعد إصابته بالرصاص ليجد والده عاطلاً عن العمل بسبب الإغلاق العسكري الإسرائيلي لمدينة القدس؛ فحاول استصدار تصريح يسمح له بالعودة إلى عمله في مصنع (تليوت)، ولكنه فشل في ذلك، وزاد من فقر عائلة ناصر أنهم كانوا سبعة أشقاء ما بين الخامسة عشرة والثامنة والعشرين، وكان منهم شقيقان يعملان في قوات الأمن الوطني منذ سبعة أشهر بدون راتب، وأما بقية أشقائه فقد امتنعوا عن الذهاب إلى القدس للعمل بسبب عدم استصدار الكيان الصهيوني التصاريح اللازمة لهم .

وهكذا لم تُغير اتفاقية أوسلو شيئاً على الأرض؛ فالإجراءات الصهيونية قد ازدادت شراسة، وردت المقاومة على تلك الإجراءات لم تتوقف⁽¹⁾.

سابعاً: تفكك النسيج الاجتماعي:

كان من صور العودة الناقصة انتشار الشائعات في المجتمع الجديد المتشكل بعد اتفاقية أوسلو؛ فهذه الاتفاقية أوجدت تفاوتاً طبقياً؛ فهناك أناس يتلقون رواتب أضعاف رواتب أناس آخرين؛ فالمظلومون يُلقون الشائعات ضد الظلمة المحنكرين لكل شيء؛ وهذا يظهر في الحادثة التالية: الموظفون الصغار تساءلوا عن موضوع الخلاف بين المدير العام صفوان رزق، ومدير المؤسسة هاشم (أبو) سليمان؛ فدارت الشائعات - وهي الحبيبة إلى القلوب - فقالوا: إن الخلاف يدور حول الأنيسة مي التي لاحظوا اكتئابها الشديد في الآونة الأخيرة، وقال آخر: إن الخلاف يدور حول أمور إدارية وفنية، وقال ثالث: إن الأمر يتعلق بسرقة كبيرة، وقال رابع: إن الخلاف يتمحور حول رفض الأستاذ صفوان توظيف أقران الأستاذ هاشم والعكس أيضاً صحيح، ولم تكن الحقيقة تعنيهم كثيراً؛ فالإشاعة -

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشاق والشجار، ص 66.

وهي كَذِبٌ عُمُومًا - هي السِّلَاحُ الأفضَلُ لمحاربة مَنْ يتقاضى أضعافَ رواتِبِهِمْ، ويَحْظَى بامتيازاتٍ كثيرة، وَيَتَحَكَّمُ فِي رِقَابِهِمْ⁽¹⁾.

فَرِحَ الْمُوظَّفُونَ فِي المُؤَسَّسَةِ فَرَحًا شَدِيدًا لِاتِّسَاعِ الخِلافِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، وَتَوَقَّعُوا المَصَائِرَ المُخزِيَةَ لِلرَّجُلَيْنِ، وَلَكِنَّ التَّوَقَّعاتِ قَدْ تَبَخَّرَتْ، وَبَقِيَ الرَّجُلَانِ عَلَى رَأْسِ عَمَلِيهِمَا، وَانْتَهَتْ الخِلافَاتُ بِشَكْلِ لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُوظَّفِينَ؛ فَالمُجْتَمَعُ الفِلَسْطِينِي طَوَّرَ مَعَ الزَّمَنِ نِظامًا خَاصًّا لِحَلِّ المُشْكِلاتِ وَتَطْوِيقِهَا بَعِيدًا عَنِ المَحَاكِمِ وَمَرَاكِزِ الشُّرْطَةِ .

وَأَنْصَحَ اسْتِيَاءَ هاشم (أبو) سُلَيْمانَ مِنْ نَشْرِ أَحَدِ المُوظَّفِينَ لِكَثِيرٍ مِنَ الإِشاعاتِ حَوْلَ عِلاقَتِهِ بِالأَيْسَةِ مي، وَحَوْلَ دَوْرِهِ فِي طَرْدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصُّوفِيِّ مِنَ الوَظيفَةِ، وَكانَ رَدُّهُ بِأَنَّ هَذِهِ المُؤَسَّسَةَ سَتَعْمَلُ بِهِ وَبِدُونِهِ، وَكَلَامُهُ عَنِ الفِسْقِ وَالفُجُورِ وَالتَّجاوِزاتِ غيرِ صَحيحٍ أبدأً؛ فَالحرِّيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ وَالحرِّيَّةُ الاجْتِماعِيَّةُ شَرَطٌ مِنْ شُرُوطِ التَّقَدُّمِ فِي المُجْتَمعاتِ الحَدِيثَةِ، وَالَّذِي نَشَرَ هَذِهِ الإِشاعاتِ لَيْسَ طاهِراً؛ فَقَدْ وَصَلَتْهُ عِدَّةُ تَقارِيرٍ تُفيدُ بِأنَّهُ كانَ عَمِيلاً ذاتَ يَوْمٍ، وَلولا أَنَّهُ مَدْعومٌ بِأَخْرينَ لَطَرَدَهُ شَرٌّ طَرْدُهُ؛ فَعَلَيْهِ بِتَنْظِيفِ نَفْسِهِ أَوْلًا⁽²⁾.

وَبِناءٍ عَلَى ما سَبَقَ ذَهَبَ بَعْضُ الباحِثِينَ إِلى أَنَّ العَدُوَّ الصَّهْيُونِي دَاخِلَ الأَرْضِ المُخْتَلَّةِ أَدْرَكَ أَنَّ ثَمَّةَ طَرِيقاً واحداً يَسْتطِيعُ بِها التَّغَلُّبُ عَلَى مُقاوِمَةِ الشَّعبِ، وَهِيَ زَرْعُ بِدُورِ الخِلافِ بَيْنَ أبنائِهِ، وَمِنْ ثَمَّ السَّعْيِ إِلى الفِتْنَةِ⁽³⁾.

وَالخِلافَاتُ الكَثِيرَةُ الَّتِي عَصَفَتْ بِالمُجْتَمَعِ الفِلَسْطِينِي أَفْضَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيانِ إِلى مُحَاوَلَةِ القَتْلِ؛ فَهَذَا أَحَدُ المُوظَّفِينَ فِي المُؤَسَّسَةِ الَّتِي يُدِيرُها هاشم (أبو) سُلَيْمانَ يُحاوِلُ قَتْلَهُ بَعْدَ أَنْ تَعَرَّضَ إِلى ظُلْمٍ

¹ - يُنظر: الخِواجة، علي، جوائز الفهم، ص 109 - 110.

² - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتجار، ص 119-121.

³ - يُنظر: عبد الغني، مُصطفى، في نقد الذات للرواية الفلسطينية، ص 114.

شديد على يديه؛ فقد ضربته على أم رأسه ببطة حادة، والتي جعلته لا يتحرك بعدها، وهذا الموظف تعمّد عدم ترك آثار على جريمته؛ ثم ذهب لزيارة صديقه عبد الرحمن الصوفي على قمة الجبل؛ فأخبره بالقصة كاملة، وعندها يلومهُ على هذا الإخبار، وإنه جعله شريكاً في إنمِه بهذا الإخبار. لم تنتشر الصحف خبراً عن هذه الجريمة؛ فيكلم صديقه في المؤسسة، والذي لا يُخبره بشيء؛ فيعود هذا الموظف إلى المؤسسة؛ فنحدثه الأنيسة مي بتعرض هاشم (أبو) سليمان لضربة بلطة من مجهول، وأنها ترجح أن هذا المجهول أخوها؛ فهي عادت بسيارة هاشم من إحدى السهرات في الفصليّة الفرنسيّة، وعند توصيلها إلى البيت يرى شقيقها الأكبر هاشمياً (أبو) سليمان يمد يديه على شقيقته؛ فيهجّم عليه وينهدّها بالقتل؛ فنزلت الأنيسة مي من السيّارة، وحاولت تفهيم شقيقها الموضوع، ولكنّه لم يفهم، والظاهر أنّه نفذ وعده، وزوجة هاشم والأنيسة مي استطاعتا إقناعه بعدم إخبار الشرطة لئلا يفضح المسثور؛ ولذلك لم يعتقل شقيقها⁽¹⁾.

والصراعات الفكرية بين شخصيات هذه الرواية طبيعية؛ فهي انعكاس لمجتمع رام الله، وهي المدينة المتعددة الطبقات والطوائف، وهي أرض خصبة لإنشاء الصراع، وكما أنّها مدينة عربية غزاها التغريب والتحديث، وهناك يحس الشخص بالغيرة؛ فالمدينة بمادتها تخلق صراعاً عنيفاً يدور حول المال والنساء⁽²⁾.

رواية مقامات العشاق والتجار كحال جميع الروايات الفلسطينية التي راحت تكرر الخشية من الاختلافات الفكرية والتباينات القبلية والمنازعات الكيدية⁽³⁾.

أخلص إلى أنّ العودة الناقصة في رواية مقامات العشاق والتجار قد تمثلت في عودة السلطة الوطنية إلى الأراضي المحتلة عام 1967م، والتي كانت لها سلبيات كثيرة؛ من أهمها: تبدل القيم؛ فبعض

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتجار، ص 125-129.

²- يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص 130.

³- يُنظر: عبد الغني، مُصطفى، في نقد الذات للرواية الفلسطينية، ص 173.

المُناضلين قد تحوّلوا إلى سماسرة للاحتلال، وأمّا من أُصرّ على منطق العشق لفلسطين من هؤلاء المُناضلين؛ فإنّه وجد نفسه على هامش الحياة؛ فالزّمن بعد اتّفاقيّة أوسلو لا يقبل إلاّ منطق التّجّار. وانتشر الفساد الإداري والمالي والأخلاقي داخل المؤسّسات الفلسطينيّة، وهذا يُنبّه المُجتمع إلى أخطار تُهدّد المشروع الوطني الفلسطيني، والتي لا تقلّ خطورةً عن خطر الكيان الصّهيوني. وهذه الصّور للعودة النّاقصة قد تتشابه مع صور العودة النّاقصة في رواية آخر القرن، والتي سوف تأتي بعد قليل؛ فالعودة إلى الوطن في ظلّ الاحتلال لا ينبغي لها أن تكون.

ثانياً: صور العودة الناقصة في آخر القرن.

مُلخَص الرّوَاية:

تدور هذه الرّوَاية حول المُفاوض الفلسطيني محمود عبد الرّحمن السّلوادي المولود في سلّواد سنة 1952م، ولكنّ أصوله تعودُ إلى حيفا، وهذا المُفاوضُ كان صاحبَ تاريخِ نضالي مُشرف؛ فقد اعتُقل أكثر من مرّة، وبعد أن رأى القرارات في دائرة المُفاوضات تُتخذ بالفوضى والعشوائية قرّر الانتقال من هذه الدائرة إلى إحدى المُؤسّسات الحُكوميّة، والتي لم يلبثُ فيها مُدّةً طويلةً؛ فقد انتقل إلى شركةٍ تُهيّ سليمان للاستيراد والتّصدير؛ وذلك طمَعاً في الرّاتب الذي يحلُمُ به؛ فيشترّي بيتاً وسيارة.

يقوم محمود بالعودة إلى حيفا الموطن الأصلي لأبيه وأمه، ولكنّ عودته منقوصة؛ فهو عاد ليُفاوض الصّهاينة حول تقديم المزيد من التّنازلات، وأثناء إحدى جولات التّفاوض يجد كلَّ شيءٍ قد تهوّد؛ فقد اكتشف أنّ قرية البُطمة التي جمعت والده عبد الرّحمن مع أمّه رُقيّة قد تحوّلت إلى قريةٍ سياحيّةٍ يهوديّة تُسجّت حولها الأساطير التّوراتيّة.

وكان لمحمود عدّة إخوة: خالد، ماجد، سامية، كريمة؛ فالأول (خالد) قُتل على أيدي الجنود الإسرائيليّين أثناء عودته من الأردن بعد حرب عام 1967م، والثّاني (ماجد) كان يعمل في المُستوطنات منذُ تلك الحرب نظراً لاعتقال والده وشقيقه محمود المُتكرّر، وليقوم بتغطية نفقات الأسرة، وأمّا سامية فقد استشهدت مع زوجها بالقرب من الخليل، وكريمة سافرت مع زوجها إلى خارج البلاد.

والشقيق المُتبقّي لمحمود داخل الوطن (ماجد) كان له من الأبناء شابٌ يدعى أسامة، وصبيّة تُدعى رهام، وابنه أسامة كان طالباً في جامعة بير زيت، وقد أحبّ سميحة التي تكبره في العُمُر، والتي كانت تعملُ في أحد البنوك، والتي أنتقلت بعد ذلك للعمل في شركةٍ تُهيّ سليمان للاستيراد والتّصدير، ولحقّ بها أسامة بعد تخرجه من الجامعة حيث تمّ تعيينه في تلك الشركة عن طريقها، هذا العمل، فسعّر بحجم الفساد داخل هذه الشركة؛ فترك العمل فيها، ثمّ انتظم مع جماعةٍ دينيّةٍ تركت الدنيا وما فيها لتحقيق هدفٍ أُسمى، ألا وهو حتُّ الناس على الصّلاة والعبادة.

وأما رهام ابنة ماجد السلوادي فقد تعرّفت على وسيم صاحب معرض الثياب في رام الله، والذي كان يحمل الجنسية الأمريكية؛ فتزوجت منه، وكان يكلفها بإدارة معرض الثياب الذي يملكه في أثناء انشغاله في أعماله الكثيرة، وفي أثناء إدارتها لهذا المعرض تنهمر الأموال بين يديها بشكل لم تحلم به، وتصبح من الأغنياء.

وكان وسيم يعمل وكيلاً لشركة نهي سليمان التي كانت أحد المتنفذين في إحدى المؤسسات الفلسطينية، وهي متهمّة بالفساد واستغلال منصبها للمنفعة الخاصة⁽¹⁾.

أهم صور العودة الناقصة في رواية آخر القرن:

أولاً: الإجراءات الصهيونية:

واصل الكيان الصهيوني إجراءاته الكثيرة بحق الأرض الفلسطينية بعد اتفاقية أوسلو، بل إن هذه الإجراءات ازدادت وطأتها بعد هذه الاتفاقية، ولعل من أهم هذه الإجراءات سياسة التهوديد الممنهجة: دأب الكيان الصهيوني دائماً على تضخيم الآثار اليهودية التي يزعم زوراً وبطلاناً وجودها في فلسطين، وفي سبيل ذلك يكون الصّهيوني رجلاً ضليعاً في أساطير العهد القديم⁽²⁾؛ ولذلك سيطر على عقول الغرب؛ ونجح بامتياز في إقناعهم بحقه في أرض فلسطين؛ فقد جعل الصّهاينة الحجارة والجبال والسّهول على هيئة ما بحيث تثبت أنهم السكّان الأصليون لهذه الأرض، وذلك باختلافهم قصصاً لا أساس لها من الصّحة⁽³⁾.

وقد تجلّى في هذه الرواية؛ فقد قام الوفد المفاوض الصهيوني ببعث الوفد الفلسطيني في إحدى جولات التفاوض إلى أحد متاحف الصّهيونية في سهل الرّوحة في حيفا، وهذا المتحف تقدّمه المضيفة الصّهيونية على أنه قرية (بُطّ - مين)، وهي عبارة عن منتجع سياحي.

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 1-276.

² - ينظر: كنفاني، غسان، في الأدب الصّهيوني، ص 105.

³ - ينظر: جوهر، إبراهيم، مرايا الأقلام من مدينة السلام، ص 65.

قالت المضيفة- بما معناه - (إن هذه القرية تُسمى (بُط - مين)، وهي تعني بالعبرية بنت الجنس، أو متعلقة بالجنس، وإن أول من بناها هو أمنون بن داود الذي ضاع أخته تamar، ثم هرب من وجه أبيه اتقاء لشره، واضطر إلى بناء هذه القرية ليسكن فيها حتى يهدأ غضب أبيه؛ فهذه القرية بُنيت بسبب فضيحة جنسية قديمة).

سأل محمود عن شجرة البطم في هذه القرية، فأجابته المضيفة بأنها أشهر شجرة في هذه القرية؛ فهي مزروعة وسط الكنيس القديم الذي بناه أمنون؛ وذلك على عادة الشعوب القديمة الذين كانوا يزرعون شجرة دائمة الخضرة بالقرب من معابدهم؛ فعندها تذكر محمود ما قالت له أمه عن تأسيس هذه القرية، وعن هذه الشجرة (1).

وهذه القصة ملخصها بأن هذه القرية أُُنشئت في أواسط الثلاثينيات من القرن الماضي؛ فقد استقرت عشائر الدائيمات في سهول الروحة الواقعة جنوبي حيفا بعد تجول امتد من اللد إلى سيناء إلى الكرك في الأردن إلى الجليل.

في سهول الروحة نولد رقية راشد أبو رقية والدة المفاوض الفلسطيني محمود السلواي، وهناك تتعرف على زوجة أبيها خضرة التي أتت بها أبوها من مزارب بني سهيل قرب تبوك، والحاجة خضرة كانت روحاً خالقة، وقد تعلمت منها رقية أشياء كثيرة، مثل: علم الحركات، وعلم الأنواء، وعلم الاصوات، وغير ذلك.

وبعد عامين من وجود الحاجة خضرة في سهول الروحة؛ فإنها تختفي وتحل روحها في شجرة البطمة القريبة، ولا يعثر أحد على جنتها، ولقد كان آخر شخص قد شاهدها صبي في العاشرة؛ فيقول بأنّه رآها تدخل شجرة البطمة القريبة.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 172-173.

تَوَافَدَ النَّاسُ عَلَى الشَّجَرَةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ يَطْلُبُونَ مِنْهَا أَنْ تَجْلِبَ لَهُمِ الْخَيْرَ وَالسَّعَادَةَ؛ وَلِذَلِكَ فَقَدَ عَافُوا عَلَى أَغْصَانِهَا الشَّرَائِطَ الْمُخْتَلِفَةَ؛ وَذَلِكَ طَلَبًا لِلوَدِّ، أَوْ لِفِكَ مَرْبُوطٍ، أَوْ لِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّةٍ.

وَلِأَهْمِيَّتِهَا فَقَدَ بَنَى رَاشِدُ أَبُو رُقْبَةَ وَالِدَ رُقَيْيَةَ (أُمُّ مَحْمُودِ السَّلُودِيِّ) حَوْلَ الشَّجَرَةِ مَقَامًا مِنْ أَرْبَعَةِ جُدْرَانٍ بِدُونِ قُبَّةٍ.

يَلْتَجِئُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّلُودِيُّ الْهَارِبُ مِنَ الْإِنْجِلِيزِ إِلَى قَرْيَةِ الْبُطْمَةِ، وَيَخْتْفِي عِنْدَ الشَّجَرَةِ؛ فَهُوَ كَانَ مُقَاتِلًا مَعَ الشَّيْخِ عَزِّ الدِّينِ الْفَسَّامِ، وَيُكَلِّفُ رَاشِدُ أَبُو رُقْبَةَ ابْنَتَهُ رُقَيْيَةَ بِجَلْبِ الطَّعَامِ لَهُ؛ فَيُعْجِبُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِهَا وَيُحِبُّهَا، ثُمَّ تُسَاعِدُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْهَرَبِ مِنْ وَجْهِ الْإِنْجِلِيزِ، وَيَعُودُ بَعْدَ عَفْوِ الْإِنْجِلِيزِ عَنْهُ لِيَتَزَوَّجَ رُقَيْيَةَ⁽¹⁾.

وَعِنْدَ تَذَكُّرِ مَحْمُودِ لِنَتِلكَ الْقِصَّةِ يُخْبِرُ الْمُضِيْفَةَ بِأَنَّ هَذِهِ الْقَرْيَةَ الَّتِي تَدَّعَيْنَ أَنَّ أُمْنُونَ بِنِ دَاوُودَ بَنَاهَا، مَا هِيَ إِلَّا قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ بَنَاهَا بَدْوِي يُدْعَى رَاشِدُ أَبُو رُقْبَةَ، وَهُوَ بِالْمُنَاسِبَةِ جَدُّهُ.

وَأَمَّا هَذِهِ الشَّجَرَةُ فَهِيَ شَجَرَةُ الْحَاجَّةِ خَضْرَةَ الَّتِي قِيلَ أَنَّ رُوحَهَا حَلَّتْ فِيهَا؛ فَقَامَ جَدِّي بِنَاءَ هَذِهِ الْجُدْرَانِ حَوْلَ الشَّجَرَةِ تَخْلِيدًا لِذِكْرِ رَوْجَتِهِ.

وَبَعْدَ كُلِّ هَذَا التَّوْضِيحِ أَصْرَتِ الْمُضِيْفَةَ بِأَنَّ هَذَا ادِّعَاءٌ وَاحِدٌ ضِمْنَ ادِّعَاءَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلَكِنَّ الَّذِي بَنَى هَذِهِ الْقَرْيَةَ هُوَ أُمْنُونَ.

وَعِنْدَ عَوْدَةِ مَحْمُودِ إِلَى بَيْتِهِ سَأَلَ أُمَّهُ عَنِ أُمْنُونَ بِنِ دَاوُودَ وَأُخْتِهِ تَامَارَ؛ فَأَجَابَتْ بِعَدَمِ مَعْرِفَتِهَا بِهِؤَلَاءِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ أُخْبِرَهَا بِأَنَّ الْكِيَانَ الصَّهْبِيونِي يَقُولُ بِأَنَّ مَنْ بَنَى قَرْيَةَ الْبُطْمَةِ هُوَ أُمْنُونَ بِنِ دَاوُودَ قَبْلَ ثَلَاثَةِ آلَافِ عَامٍ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَجَرَتُهُمْ، فَدَقَّتِ الْأُمُّ عَلَى صَدْرِهَا، وَسَأَلَتْ عَنْ رُوحِ الْحَاجَّةِ خَضْرَةَ مَاذَا فَعَلُوا بِهَا؟⁽²⁾.

¹- يُنْظَرُ: الْخَوَاجَةُ، عَلِي، جَوَائِزُ الْفَحْمِ، ص 165-166.

²- يُنْظَرُ: عَوْضُ، أَحْمَدُ رَفِيقُ، آخِرُ الْقَرْنِ، ص 173-176.

واستذكار محمود السلّودي لقصة قرية البُطمة يندرج ضمن نطاق الاستذكار المزجي، والذي يرجع مداه إلى نقطة سابقة لبداية السرد الأول (تاريخ هذه القرية)، ويصل مداه إلى نقطة لاحقة لتلك البداية (مواجهة المضيعة الصهيونية بهذا التاريخ) (1).

وباليت التهويد اقتصر على المكان، بل تعدى ذلك إلى الإنسان الذي يقطن في هذا المكان؛ فالذهاب إلى الأراضي المحتلة عام 1948م يجد بعض العرب الباقين هناك يتمسك بجنسيته الإسرائيلية، ويطالب بمساواته مع جميع الصهاينة.

وهذا طبيعي أن يتأثر الإنسان بالدولة التي يعيش فيها عقوداً طويلة؛ فتنشأ علاقة ما بين تلك الدولة - وإن كانت محتلة - وبين الفلسطيني الذي يسعى بكل الطرق لأخذ حقوقه الأساسية؛ وذلك حتى يتسنى له العيش بكرامة؛ فيحاول فهم قوانين هذه الدولة - القوانين الإسرائيلية - ويستوعبها؛ ومن تلك القوانين: قانون الجنسية والمواطنة التي تقرر حقوق المواطن وواجباته.

واتضح هذا عندما دعي محمود السلّودي لزيارة يافا من قبل أحد أعضاء اللجنة المكلفة بترميم مسجد حسن بك في يافا، وفوجئ عند الزيارة بالعربي من يافا الذي عاش تحت حكم الكيان الصهيوني لأكثر من أربعين عاماً؛ وبالرغم من وجدانه العربي إلا أنه مضطراً إلى اعتبار دولة الكيان الصهيوني دولته ليستطيع من خلال ذلك تثبيت عروبه (2).

ومن الإجراءات الصهيونية أيضاً عبثية المفاوضات، ومحاولة خداع المفاوض الفلسطيني باستمرار؛ ففي أي مفاوضات هناك قوتان تتصارعان على أرض واحدة، وفي المفاوضات الفلسطينية الصهيونية هناك تصارع بين قوتين غير متكافئتين؛ فالقوة محسومة لصالح الطرف الصهيوني، الذي يتحكم في مسار هذه المفاوضات (3).

1- ينظر: حطيني، يوسف، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية، ص 157.

2- ينظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 13.

3- ينظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص 147.

إنّ المُفاوض الصّهيوني كان يُحاول باستمرار خِداع المُفاوضِ الفِلسطِيني عَن طريق إقناعهم بأنّ اتّفاقيّة أوسلو نصرٌ للعرب؛ وذلك لتخفيف التوتّر عند الفِلسطِينيين؛ فهذا حاييم شلومو يشكو في أحد الاجتماعات مع محمود السّلوادي من حرارة حزينان، ولكنّه استطرد بأنّه يُحبُّ هذا الشّهر جدّاً؛ فعلق محمود على ذلك بأنّه شهر الانتصار على العرب.

وعندها توتّر محمود السّلوادي كثيرًا، وشعَرَ حاييم بذلك؛ فبادرهُ بالقول بأنّ اتّفاقيّة أوسلو انتصارٌ أكيدٌ للفِلسطِينيين؛ فهذا الاتّفاق مَنحهم أرضًا من أرض إسرائيل الكاملة، وجعل شعبهم موحّدًا. ولم يقتصر خِداع المُفاوض الفِلسطِيني على هذا، بل تعدّى ذلك إلى قلبِ الحقائق والمُسلّمات؛ فعند حديث المُفاوضِ الفِلسطِيني محمود عَن مُعانةِ اللّاجئين من أبناءِ الشّعبِ الفِلسطِيني يتّجاجأ بحديث المُفاوض الصّهيوني عَن مُعانةِ اللّاجئين من الشّعبِ الإسرائيلي⁽¹⁾.

وهكذا يُصوّر المُفاوض الصّهيوني بديهياتِ القضيةِ الفِلسطِينيّة وحقائقها؛ فكّلها معكوسة لديه؛ فهو يخلق تاريخاً وهمياً للشّعب الإسرائيلي استناداً إلى التّعاليم التّوراتيّة والتّموديّة، وهذا التّاريخ المزوّر يُصبح عقيدة راسخة لدى المُفاوض الصّهيوني لا تقبل الطّعن، أو الشّكّ.

ويتوجّب على المُفاوض الفِلسطِيني أن يتناقش مراراً وتكراراً مع المُفاوض الصّهيوني، وأن يستخدم المُصطلحات الكثيرة الموجودة في هذا التّاريخ الوهمي، وعليه أن يُثبت زيفها.

وبعدَ الجولاتِ التّفاوضيّة الكثيرة يُكتشفُ محمود السّلوادي أنّ التّفاوض مع الصّهيوني مُعلقٌ، ومُفاجئٌ، ومُثيرٌ للسّخرية؛ فهو في كلّ مرّة يدور بلا نتيجةٍ وبلا هدفٍ، ويتّمحورُ حولَ قضايا هامشيّة، مثل: مكان انعقاد المُحادثات، وشكل المائدة، واللّغة المُستخدمة، وكما أنّ المُفاوض الصّهيوني يُنطلقُ

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 14-15.

مِنْ فَنَاعَاتٍ يَعْتَبِرُهَا حَقَائِقَ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِ، مِثْلَ أَنَّ فَلَاسْطِينَ كَانَتْ أَرْضًا بِلَا شَعْبٍ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ أُعْطِيَتْ لِلْيَهُودِ بِوَعْدِ إِلَهِهِ⁽¹⁾.

وَأَعْتَقِدُ بِصِحَّةِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْكُتَّابِ فِي شَأْنِ حُورِ الْمُفَاوِضَاتِ بِأَنَّهُ كَانَ عِبْتِيًّا وَمُرْتَبِطًا بِمَشِيئَةِ الْمُفَاوِضِ الصَّهْيُونِيِّ (الْغَالِبِ) الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَسْعَى إِلَى سَلَامٍ دَائِمٍ، وَإِنَّمَا إِلَى مُفَاوِضَاتٍ مُمْتَدَّةٍ مُتَّكِنًا إِلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِبْتِرَازِ، وَالتَّعْطِيلِ، وَاتِّقَاءِ الْخِيَارَاتِ، وَفَرَضِ الْأَوْهَامِ⁽²⁾.

إِنَّ الْمُفَاوِضَاتِ الَّتِي تَتَمَخَّضُ عَنْ اتِّفَاقِيَّةِ سَلَامٍ عَادِلٍ لِأَبْدٍ لَهَا أَنْ تَجْرِي بَيْنَ قَوَّتَيْنِ مُتَكَافِئَتَيْنِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمُفَاوِضَاتِ سَوْفَ تَتَمَخَّضُ عَنْ اتِّفَاقِيَّةِ اسْتِسْلَامِ الْقُوَّةِ الضَّعِيفَةِ لِلْقُوَّةِ الْقَوِيَّةِ، وَهَذَا مَا حَصَلَ فِي الْمُفَاوِضَاتِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ، فَهِيَ كَانَتْ تَجْرِي بَيْنَ قَوَّتَيْنِ غَيْرِ مُتَكَافِئَتَيْنِ، بَيْنَ غَالِبٍ وَمَغْلُوبٍ، وَالطَّرْفِ الْغَالِبِ كَانَ يَسْعَى لِفَرَضِ إِجْرَاءَاتٍ تَتَوَافَقُ مَعَ مَصْلَحَتِهِ.

وَمِنْ تِلْكَ الْإِجْرَاءَاتِ الَّتِي سَعَى الطَّرْفُ الْغَالِبِ (الصَّهْيُونِيُّ) إِلَى تَحْقِيقِهَا: مَوَاصِلَةُ السَّيْطَرَةِ عَلَى الْأَرْضِ بِكُلِّ مَا أُوتِيَتْ مِنْ قُوَّةٍ بَعْدَ اتِّفَاقِيَّةِ أُوسْلُو؛ وَلِذَلِكَ تَصَاعَدَ الْإِسْتِيطَانُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي تُسَمِّيهَا إِسْرَائِيلُ أَرْضِي دَوْلَةٍ، وَكَذَلِكَ اسْتَمْرَتْ فِي مُصَادَرَةِ الْأَرْضِ فِي الْمَنَاطِقِ الْمُصَنَّفَةِ (ب)، وَكَذَلِكَ اسْتَمْرَتْ فِي عَمَلِ شَبَكَةِ طُرُقِ التَّفَاقِيَّةِ الَّتِي تَلْتَهُمُ الْأَرْضَ، وَتُبْعِدُ الْمُسْتَوَطِنِينَ عَنِ الْإِحْتِكَافِ بِالْمَوَاطِنِينَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، وَاسْتَوْلَتْ كَذَلِكَ عَلَى الْمَخْزُونِ الْمَائِيِّ فِي الْمَنَاطِقِ الْمُحْتَلَّةِ؛ فَحَمُودُ السَّلْوَادِيِّ أَثْنَاءَ وُجُودِهِ فِي غَزَّةٍ يُخْبِرُهُ مَازِنٌ مِنْ دَائِرَةِ الْمُفَاوِضَاتِ بِأَنَّ هُنَاكَ اجْتِمَاعًا عَاجِلًا فِي الْمُنْتَدَى لِمَنَاقِشَةٍ مَا وَرَدَ فِي تَقْرِيرِهِ الَّذِي قَدَّمَهُ لِلْقِيَادَةِ؛ وَفِي هَذَا الْجَمْعِ سَأَلَ أَبُو يَزْنَ كَبِيرُ الْمُفَاوِضِينَ عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُرِيدُهَا إِسْرَائِيلُ مِنْ هَذِهِ الْمُفَاوِضَاتِ؛ فَأَجَابَ الْمُهَنْدِسُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ خَبِيرُ الْمِيَاهِ بِأَنَّ إِسْرَائِيلَ تَعْمَلُ الْآنَ بِقُوَّةٍ وَتَوَاصَلَ وَإِصْرَارٍ عَلَى السَّيْطَرَةِ الْفِعْلِيَّةِ عَلَى مُعْظَمِ مَوَادِرِ الْمِيَاهِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ وَأَحْوَاضِهَا، وَكَانَ هَذَا جَانِبٌ مِنَ الْإِجْرَاءَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ عَلَى الْأَرْضِ.

¹- يُنْظَرُ: الْخَوَاجَةُ، عَلِي، جَوَائِزُ الْفَحْمِ، ص 195.

²- يُنْظَرُ: الْعَيْلَةُ، زَكِي، صُورَةُ الذَّاتِ وَصُورَةُ الْآخَرِ، ص 138.

وأورد الدكتور شفيق جانباً آخر من هذه الإجراءات؛ فهي تعمل بوتيرة عالية على استيطان الأراضي المحتلة، وكذلك تُصدرُ أراضي المواطنين في المناطق المُصنَّفة (ب)، وتعملُ كذلك على حماية المُستوطنين بشبكة الطرق الالتفافية، وفي النهاية تُلقِي مَسْؤُولِيَّةَ الأَمْنِ الداخلي على السُلْطَة الوطَنِيَّة. ويُخبرهم أبو يزنٍ بعد ذلك أن كلَّ ما ورد سابقاً من الإجراءات الصَّهْيُونِيَّة لا تَجْعَلُ وَجْهَ الكيان الصَّهْيُونِي يَتَلَوَّثُ في العالم مهما فعلوا؛ فَهُنَاكَ قُوَى وَمَصَالِحٌ وَعَقَلِيَّاتٌ تَقْفُ وراءَ الكيان الصَّهْيُونِي دائماً⁽¹⁾.

وبناءً على ما سبق ذهب بعض الباحثون إلى أن الاستيطان صِفَةً مُلَازِمَةً للكيان الصَّهْيُونِي؛ فَهُوَ دولةٌ اسْتِيطَانِيَّةٌ، ولا أَسْتَطِيعُ قُبُولَ حقِّ العُودَةِ لِلأَجْنِيْنِ الفِلَسْطِينِيِّينَ، ومع ذلك لَنْ تَسْتَطِيعَ القَضَاءُ على هذا الحقِّ، أو إلغائه، ولا يستطيع المُستوطنون التَّخَلُّصَ مِنْ عُنُصْرِيَّتِهِمْ، والعَيْشَ مَعَ الفِلَسْطِينِيِّينَ⁽²⁾. وتبيِّنَ لبعض الباحثين أيضاً أن أطماعَ الكيان الصَّهْيُونِي تَجَاوِزُ كُلَّ الحُدُودِ؛ فَهُوَ بِمُوجِبِ اتِّفَاقِيَّةِ أوسلو لا يُريدُ الأَرْضَ فقط، وإنَّما تَسْخِرُ الفِلَسْطِينِيِّينَ لِخِدْمَتِهِ أيضاً⁽³⁾.

ثانياً: تبدل القيم:

بَعْدَ اتِّفَاقِيَّةِ أوسلو تَبَدَّلَتْ كَثِيرٌ مِنَ القِيَمِ، وَمِنْ تِلْكَ القِيَمِ الَّتِي صَوَّرَتْهَا رِوَايَةُ آخِرِ القَرْنِ تَبَدَّلَ العِلَاقَةُ مَعَ المُحْتَلِّ الصَّهْيُونِي، وَأَصْبَحَ التَّطْبِيعُ الاجْتِمَاعِي مَعَهُمْ سَائِداً وَمُنْتَشِراً؛ فَالَّذِي قَاوَمَ المُحْتَلَّ فِي مَرِحَلَةِ مَا قَبْلَ اتِّفَاقِيَّةِ أوسلو أَصْبَحَ مُفَاوِضاً لِلصَّهْيَانِيَّةِ بَعْدَ تِلْكَ الاتِّفَاقِيَّةِ، وَالْحَوَاجِزُ النَّفْسِيَّةُ بَيْنَ المُفَاوِضِينَ الفِلَسْطِينِيِّينَ وَالصَّهْيَانِيَّةِ تَكَسَّرَتْ بِفِعْلِ المُفَاوِضَاتِ المُتَكَرِّرَةِ بَيْنَهُمَا؛ فَالمُفَاوِضُ الفِلَسْطِينِي يَعْرِفُ بَعْضَ المُفَاوِضِينَ الصَّهْيَانِيَّةِ مَعْرِفَةً قَوِيَّةً، وَيَعْرِفُ زَوْجَتَهُ؛ وَذَلِكَ لِكثْرَةِ اللِّقَاءَاتِ التَّفَاوِضِيَّةِ بَيْنَهُمْ.

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 95-99.

² - ينظر: البوجي، محمد بكر، صراع الثقافات في الزوايا العربية، ص 65.

³ - ينظر: جوهر، إبراهيم، مرايا الأقلام في مدينة السلام، ص 61.

فهذا محمود السلوادي المعتقل السابق أصبح يُفاوض حاييم شلومو الذي يعرفه معرفةً شَخْصِيَّةً لِكثْرَةِ اللقاءات معه في أمستردام ولندن ومدريد والقاهرة ورام الله وتلّ أبيب، فيَصِفُهُ محمود بأنّه لطيفٌ وناغمٌ وصاحب نكتة، وله عِطْرٌ خفيفٌ، ويَتَحَدَّثُ الإنجليزيَّةَ بِطلاقةٍ، وهو يحملُ حَقِيبةً قديمةً مُمتلئةً بالأوراق والخرائط والنماذج التي لا يمتلك مثلها محمود السلوادي.

وتبدّل القيم طال كثيرٌ من الشرائح الاجتماعية بعدَ اتفاقيَّة أُوسلُو؛ فجماهيرُ الشَّعب بدأتُ تتأطَّر في مُؤسَّساتٍ مدنيَّة، على أن التَّنظيم لم يُنه دوره في التَّحرير، وكما إنَّ بعض القيادات الحركيَّة كَوْنَتْ ثرواتٍ وأموالاً على حساب الشَّعب.

وبعد أن أنهى محمود السلوادي تقديم تقريره للقيادة حول سير المفاوضات نام في أحد فنادق غرَّة، وفُوجئ في الصِّباح بصديقيه القديمين فارس العبد (رائد في الأمن الوقائي) من جنين، وسامي (أبو) الرّوس (رائد في المخابرات العامَّة) من نابلس، ودار بينهم حوار، وكان من أبرز ما جاء فيه:

محمود سأل صديقيه عن اعتقاده الذي بدأ يتكوّن بأنَّ مرحلة التَّنظيمات قد انتهت، وأنَّ الجماهير تتأطَّر داخل مؤسَّسات مدنيَّة!

وعندها أجابه فارس بأنَّ التَّنظيم لم يَنْه مُهمَّته؛ فالتَّنظيم الثَّوري مازال ضرورة تاريخيَّة.

سأله بعد ذلك أحد صديقيه: هل اشتريت بيتاً في رام الله؟ وكان جواب محمود بالتّفي، وتساءل من أين له بأربعين ألف دولار، أو أكثر لشراء شقَّة؛ فردَّ فارس عليه ردّاً يُثيرُ الانتباه، بأنَّ الكلَّ في رام الله يُدبِّر نفسه.

وعندها خاطب سامي محمود السلوادي بأنّه قليل الحيلة؛ فسُفيان إبراهيم الذي يَعْرِفُهُ يَمْلِكُ الآن مِئاتِ الآلاف؛ وبالرُّغم من كونه مُديراً عامّاً في إحدى الوزارات إلاّ أنّه استطاع أن يُصبح تاجراً كبيراً جزاء استغلال منصبه للمنفعة الخاصَّة (1).

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 1-2، ص 79-84.

وهكذا تكون هذه الرواية في مُحصلتها رصد لواقع سوداوي؛ فهذا الواقع تراجع فيه الحُلم البهّي لصالح التكيّف مع استحقاقات اللحظة الراهنة التي تبدّلت فيها كثيراً من القيم (1).

وذهب المتوكّل طه إلى أنّ الكاتب هنا يُشير إلى إحدى آثار عقلية الهزيمة، وهي العقلية التي تميل إلى جلد ذاتها؛ باعتبار ذلك آلية نفسية وروحية للخلاص (2).

وتبدّل القيم غير من عقليات بعض المناضلين الذين اعتقلوا قبل اتفاقية أوسلو؛ فأصبحوا بعد هذه الاتفاقية يتفاوضون مع الصهاينة حول السّلام وفوائده، وأصبح ينظر إلى المجتمع الفلسطيني بنظرة عدائية؛ فهم في نظره عبارة عن سارقين.

وحصل هذا في قصة عمر فيصل الذي كان أحد طلاب جامعة النجاح، وانخرط في التنظيمات الطلابية؛ ولذلك اعتقل أكثر من مرّة، وأنهى دراسته بالجامعة خلال سبع سنوات، وبعد تخرجه حاول أن يعمل في التجارة أو التعليم، ولكنّه فشل في ذلك، ثمّ قامت الانتفاضة؛ فانخرط فيها باعتبارها حلاً شخصياً له؛ فطاردته سلطات الاحتلال في الأرياف، ولكنّه استطاع الاختفاء جيداً، ولكنّ قوات الاحتلال أمسكت به بعد ذلك، وحكمت عليه بالسّجن لمدة أربع سنوات، وفي السّجن تورط بمقتل أحد العمّلاء المُندسين بين المعتقلين، وحُكِم عليه بالسّجن لمدة سنتين إضافيتين.

وللأسف لم يُطلق سراحه بعد اتفاقية أوسلو بالرغم من كلّ الذي قيل عن إطلاق سراح السّجناء، وكانت تصله أخبار أهله؛ فيغرق في همّ ثقيل؛ فقد جاع والداه تماماً، ولم يسأل عنهما أحد، وبلغه أنّ حبيبته ماجدة تزوجت من مُعلّم مدرسة، وإنّها أنجبت ولداً أسمته عمر؛ فلما خرج من السّجن حسب أنّ جميع الأجهزة الأمنية والمدنية في السلطة ستسابق من أجل تشغيله، ولكنّ ذلك لم يحصل، ووجد أنّه لا يستطيع الالتحاق بأيّ وظيفة دون تدبير الحال وفهم الواقع.

¹- ينظر: العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر، ص 137.

²- ينظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص 138.

انتقل عمر للسكن في مدينة رام الله؛ وذلك لأنه عملي، وهناك التقى أستاذة القديم منير منير الذي يُدير مركزاً للأبحاث الاستراتيجية؛ فعمل عنده في هذا المركز، ومنير منير هنا نفسه على توظيف شخصٍ مُناضلٍ مثله.

كان عمر يحمل مشاعر مُتناقضة تجاه كلِّ ما يحصلُ نظراً لتجاهل المجتمع له ولأسرته؛ وكان لذلك شعورٌ سلبي عليه.

شكّل منير منير بعد ذلك إطاراً للحوار مع الإسرائيليين، وجعلَ لهذا الإطار مجلس أمناء يضمُّ أعضاءً مُحترمين من اليسار واليمين، وأصدر مطبوعات مختلفة، وأقام ندواتٍ عدّة. صار عمر يذهب إلى جفعات حبيبا وأولبان عكيفا وهرتسليا، وصار يتحدث مع الإسرائيليين حول السّلام وفوائده، وصار لديه سيّارة وبيت، وصار راتبه العلني أكثر من ألفي دولار أمريكي، وصار يتحدّث بالعربيّة والعبريّة والإنكليزيّة حسب النّدوة، أو حسب اللقاء، أو حسب الفُنْدُق.

تعرف محمود السّلوادي على عمر فيصل؛ وذلك عندما حضرَ إلى مبنى الإدارة الرّئيس لشركة نُهي سليمان ليُنَاقشَ معها تفصيل إنشاء منطمة غير حكوميّة تُعنى بالتنمية المُجتمعيّة، وعندها تحدّث مع محمود بسُخريّة لاذعة حول الأوضاع العامّة، واتّهم الجميع بالسرقة والفساد، وقال إنّه ينتقمُ لأيام الجوع والنسيان (1).

ومن الأدلّة القاطعة التي تدلّ دلالة واضحة على تبدّل القيم أنّ بعض شخصيات رواية آخر القرن كانت لا تُفكّر إلا في النّجاح المالي حتّى لو كان على حساب التّعامل مع اليهود؛ فهذه نُهي سليمان التي جمعت الأموال من السرقات في المؤسسة الفلسطينيّة التي كانت مُتحكّمة فيها، ومن هذه الأموال تأسّس شركة خاصّة، ويكون هدفها النّجاح المالي بصرف النّظر عن البُعد الوطني، فشركتها تتعامل مع اليهود بدون أيّ حرج.

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 224 - 227.

وثمة مَنْ حَلَّلَ اسمَ نُهَى سُلَيْمَانَ؛ فَهُوَ مَعْنَى الْعَقْلِ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَسُلَيْمَانَ تَتَعَلَّقُ بِزِلَالِ النَّصِّ الْغَائِبِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْمَلِكِ الْيَهُودِيِّ ذِي النَّفُوزِ الْمَطْلُوقِ، وَهَذَا يَنْسَجِمُ مَعَ وَضْعِ نُهَى سُلَيْمَانَ فِي الْمَوْسُوسَةِ الَّتِي كَانَتْ تَدْبِرُهَا.

وَتَبَدَّلَ الْقِيَمَ جَعَلَ مُعْظَمَ الشَّعْبِ الْفِلَسْطِينِيِّ بَعْدَ اتِّفَاقِيَّةِ أَوْسَلُو يَجْرِي وَرَاءَ الْمَالِ وَالْمَصَالِحِ الْمَالِيَّةِ؛ فَأَصْبَحَ الْمَالُ وَحْدَهُ هُوَ الْهَدَفُ، فَقَدْ اسْتَقْطَبَتْ شَرِكَةُ نُهَى سُلَيْمَانَ خِبْرَاتٍ كَثِيرَةً لِأَشْخَاصٍ مُخْتَلِفِينَ فِي رُؤَاهِمَ؛ فَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ فِي هَذِهِ الشَّرِكَةِ مُنَاضِلُونَ سَابِقُونَ، وَنَفْعِيُونَ، وَأَجَانِبَ، وَيَهُود⁽¹⁾.

وَأَصِيبَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِدَاءِ سُعَارِ جَمْعِ الْأَمْوَالِ؛ فَهَذِهِ رَهَامُ بِنْتُ مَاجِدِ السَّلُودِيِّ كَلَّفَهَا زَوْجَهَا بِإِدَارَةِ مَعْرَضِ الثِّيَابِ أَثْنَاءَ سَفَرِهِ؛ فَرَأَتْ الْأَمْوَالَ تَنْهَمُرُ بَيْنَ يَدَيْهَا؛ ثُمَّ أَصِيبَتْ بِسُعَارِ جَمْعِ الْمَالِ، وَاسْتِنَاعَتْ أَنْ تَفْتَحَ مَعْرَضاً آخَرَ لِلثِّيَابِ، وَاشْتَرَتْ عِدداً لَا بِأَسْ بِهٍ مِنَ الْأَسْهُمِ فِي شَرِكَاتٍ نَاجِحَةٍ، وَفَتَحَتْ حِسَاباً لَهَا فِي بَنكِ يُجْرِي سُحُوبَاتٍ شَهْرِيَّةً عَلَى حِسَابِ الزَّيَّاتِنِ؛ فَفَازَتْ بِمَبْلَغٍ مُحْتَرَمٍ فِي أَحَدِ السُّحُوبَاتِ.

وَلَمْ يَمُضِ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى اكْتَشَفَتْ الْمَرْأَةُ أَنَّهَا غَنِيَّةٌ، وَأَنَّ عِنْدَهَا مِنَ الْمَالِ مَا لَمْ يَحْلُمْ بِهِ وَالِدُهَا أَوْ جَدُّهَا، وَتَرَافَقَ ذَلِكَ مَعَ غِيَابِ زَوْجِهَا الطَّوِيلِ، فَتَعَرَّفَتْ عَلَى صَدِيقَاتٍ يُدْرِنَ أَعْمَالاً خَاصَّةً مِثْلَهَا، وَبَعْضَهُنَّ يَمْتَلِكْنَ صَالُونَاتِ تَجْمِيلِ، أَوْ شَرِكَاتِ إِعْلَانِيَّةٍ، أَوْ مَرَاكِزِ رِيَاضِيَّةٍ، وَغَيْرِهَا.

وَتَكَرَّرَتْ الْمُشَاجَرَاتُ بَيْنَ رَهَامَ وَوَسِيمِ، وَصَارَ وَسِيمٌ يَقْضِي مُعْظَمَ وَقْتِهِ فِي شَقَّةِ اسْتَأْجَرِهَا قَرِيباً مِنَ الْمَبْنَى الرَّئِيسِيِّ لِشَرِكَةِ نُهَى سُلَيْمَانَ؛ فَحَاطِلَ مَحْمُودٌ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُمَا، وَلَكِنَّهُ فَشِلَ، وَوَجِدَ أَنَّ رَهَاماً مُرْتَاحَةً لِهَذَا الْوَضْعِ، وَقَالَتْ لِيَبْقَى وَسِيمٌ فِي شَقَّتِهِ، وَلِيَبْقَى هِيَ فِي الْبَيْتِ.

رَضِيَتْ رَهَامُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَةً مَهْجُورَةً طَالَمَا أَنَّ مَعَهَا مَالاً كَثِيراً، وَقِيلَ إِنَّهَا اشْتَرَتْ عِمَارَةً فِي حَيِّ الْبَالُوعِ فِي رَامَ اللَّهِ، وَأَجْرَتْهَا، وَاشْتَرَتْ ثَلَاثَ سَيَّارَاتٍ مَرْسِيدَسَ، وَعَمِلَتْهَا سَيَّارَاتٍ أُجْرَةً⁽²⁾.

¹- ينظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص 150، 167.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفیق، آخر القرن، ص 261-263.

ثالثاً: انتشار الفساد:

يَنْقَسِمُ الفساد بِشكْلِ عَامٍّ إِلَى فساد إداري، وفساد أخلاقي؛ وَمِنْ المَلاحِظِ أَنَّ الفساد بِشَقِيهِ قد انتشرَ بعد اتِّفاقِيَّةِ أوَسَلو داخل المُجتمعِ الفِلسطِيني.

وَمِنْ صور الفساد الإِدَارِي أَنَّ الإِنْجَازَ الأَهَمَّ لِلْمَسْئُولِينِ الفِلسطِينيين ليس تحرير الأرض، أو إطلاق سراح السَّجَناءِ، وَإِنَّمَا بِاقتِنَاصِ الوِظَائِفِ والرَّواتبِ والامْتِيازاتِ المَالِيَّةِ لهم ولأقاربهم.

جاء محمود فَجأةً فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ إِلَى بيت والده عبد الرَّحمن؛ وكان يُريد نقل خبرٍ سارٍّ له؛ فقد أَخْبَرَهُ بِأَنَّ زُملاءَهُ الَّذِينَ ناضل معهم قبل ثلاثين عاماً تذكَّروه، ومنحُوهُ رُتبةً عقيدٍ براتبٍ رمزي. وفُوجئَ محمود بِأَنَّ هذا الخبرَ لم يعنِ لوالده شيئاً، وذلكَ على الرَّغمِ مِنَ الاتِّصالاتِ الكَثيرةِ الَّتِي قام بها لينقلَ له خبراً كهذا.

بُهِتَ محمود عندما سأله والده بِأَنَّ هذا الَّذِي فعلهُ لَهُ أَمْ لِمَركَزِهِ الوِظِيفِي والشَّخْصِي داخلَ السُّلطةِ الفِلسطِينيَّةِ؛ فقد اعتقد بِأَنَّ سرَّ جهوده لمنح والده رُتبة عقيد لن ينكشف لأحد.

وفي ظلِّ أجواء هذا الفساد الإِدَارِي لم يشعُر محمود بالرِّضا لأقتِنَاصِ راتبِ لوالده، بل كان يشعُر بِالْحَسْرَةِ لِعَدَمِ تَوْظِيفِ شَقِيهِ (ماجد) وولده (أسامة) وابنته (رهام) في السُّلطةِ الفِلسطِينيَّةِ.

دار الحوار التَّالِي بين محمود السُّلْوَادي و(أبو) يزن كبير المُفاوضين في إِحْدَى جَلَسَاتِ العتاب: خاطَبَ محمود (أبو) يزن بِأَنَّهُ لم يستطِعْ شِراءَ بيتٍ خاصٍّ به، ولم يسعَ إِلَى تَوْظِيفِ شَقِيهِ ماجد في إِحْدَى أَجهزة السُّلطةِ، وَكَمَا أَنَّ ابنَ أَخِيهِ وابنتَهُ عَلَى أَبوابِ التَّخَرُّجِ، ولم يَعِدْهُمَا بِوِظِيفَةٍ.

وأكَمَلَ محمود بعدَ ذلكَ بِأَنَّ كَثيراً مِمَّنْ حَولِي يُرْتَبُونَ أُمُورَهُم بِشكْلِ مَنهَجِي؛ فهو يرى مشاريعَ تِجَارِيَّةِ وَخَدَمَاتِيَّةِ، ويرى تَكْوِينَ جَمَعِيَّاتٍ وَمُنْتَظَمَاتٍ مُوازِيَّةِ، ويرى اسْتِغْلالَ مَناصِبِ (1).

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 153-154، ص 189.

والتهافتُ المُبالغ فيه على الأموال والمناصب شيء طبيعي في أجواء الفساد الإداري؛ ففي ظلّ ترهّل عمل المؤسسات الفلسطينية نجد في هذه الرواية شريحة طفيلية تقفز إلى الصدارة، و تنهب كل شيء، وتفسد كل شيء (1).

وكان من أبرز شخصيات الشريحة الطفيلية في هذه الرواية شخصية نهي سليمان الممثلة للمؤسسة الحكومية التي انتقل إليها محمود السلوادي من دائرة المفاوضات، وقد وقع محمود في حبها، وبالرغم من حبه لها إلا أنه لم يوافق على المشروع الذي عرضته عليه؛ لأنه يضر بشعبه.

وترتب على هذا المشروع اختفاء مائة ألف دولار؛ فتفجرت الفضيحة، وصار تحقيق، وفي النهاية أجبرت نهي سليمان على الاستقالة؛ فطارت إلى لندن، حيث أدارت شركة للاستيراد والتصدير من وإلى مناطق السلطة الفلسطينية؛ فكان أن صارت من عداد المليونيرات.

تقود رواية آخر القرن إلى مصدر الأموال التي قام عليها الاقتصاد الفلسطيني في قيام بعض الشركات، وتقدم الرواية الحلول التي يجب على الشعب الفلسطيني أن يطالب بها (المطلوب ببساطة): المكاشفة، الصراحة، النقد العلني، المحاسبة الدقيقة، وسيادة القانون، وبدون هذا لن تكون هناك مؤسسات بل تكايا (2).

ولفساد الإداري صوراً أخرى، وهو التعيين في المؤسسات الفلسطينية بدون أي اعتبار للكفاءة، أو المهنية، أو المؤهلات؛ فالتعيين يتم بالواسطة، وكما إن لتعيين أحد الأشخاص دوافع عدة، منها: المؤامرات الشخصية، أو التجسس.

وسيم الذي ارتبط بعلاقة ما بنهي سليمان المديرية الفعلية للمؤسسة الحكومية التي يعمل بها محمود السلوادي يدخل ذات يوم مكتب محمود، ويخبره بأن السيدة نهي بعثتني إليك لتجد لي عملاً في المؤسسة؛ فيسأله محمود بضعاً أسئلة عن تاريخ تعيينه في المؤسسة، وعن مؤهلاته؛ فيجيبه بأنه قد

¹ - ينظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص 163-164.

² - ينظر: صوّاف، باسمه سهيل صالح، الرواية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة (رسالة ماجستير)، ص 62.

تعيّن منذُ عِدّة أياّم، وأمّا مؤهّلاته فهي امتلاك معرضٍ للثياب في رام الله، وحمل الجنسيّة الأمريكيّة، والتحدّث باللّغة الإنجليزيّة بطلاقة، والعلاقات التجاريّة الجيدة.

يردّ عليه محمود بأنّ يرجع إلى السيّدة نُهى حتّى تجد له عملاً ما؛ فيحدّثه وسيم بأنّه يُحبّ العمل معه؛ فيرى فيه محمود شابّاً غير واثقٍ تحت أناقةٍ مُفرطة؛ فيجد له عملاً كمتّرجم في الدائرة.

ويا لئيت أنّ الفساد الإداري توقّف عند المؤسسات الحكوميّة، بل تجاوز ذلك إلى مؤسسات القطاع الخاصّ؛ فالتعيين في الشركات الخاصّة كان لا يقوم على الكفاءة، وتكافؤ الفرص بين أفراد المجتمع، بل يعتمد على الوساطة في كثيرٍ من الأحيان؛ فهذه سميحة رقيقة أسامة ماجد السلوادي تطلب من أسامة أن يُقدّم طلباً للتوظيف في شركة الاستيراد والتصدير التي تملكها نُهى سليمان، وأن لا يهتم كثيراً بأمر تعيينه؛ فهو تحصيل حاصل⁽¹⁾.

ولم يكن تعيين أسامة السلوادي في هذه الشركة حالةً فريدةً من نوعها، بل إنّ هناك حالاتٍ مُتشابهة لهذا التعيين؛ فالتعيين في الشركات الخاصّة كان يتمّ بالوساطة في كثيرٍ من الأحيان ليكونوا جواسيس لمن عينهم؛ فهذا التعيين كان يفتقد لأدنى معايير المهنيّة، واقترب الفساد الإداري بالفساد الأخلاقي في كثيرٍ من الحالات.

وظهر ذلك في حالة عاصم فلاح المنحدر من طولكرم، والذي تخرّج حديثاً من جامعة بيرزيت، وعمل في إحدى مؤسسات السلطنة، ولكن الراتب القليل والصراعات الكثيرة جعلته يستقيل ويبحث عن عملٍ آخر في القطاع الخاصّ، وتقدّم بطلبٍ وظيفيٍّ إلى شركة نُهى سليمان؛ فعينته، وجعلته عينها في الشركة، ثمّ زوجته سكرتيرة مدير عامّ الشركة، وهي فاتنة جميلة، ولكن هذه الزوجة كانت لا تحترم زوجها عاصم في الشركة، وتناديه بصوتٍ أقرب إلى السخرية، بينما كان يتحدث معها بصوتٍ خجولٍ، وكانت تُدعى إلى الحفلات التي تقيمها الشركة في الفنادق المختلفة، وكان عاصم لا يُدعى.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 204-206، ص 215.

وفي إحدى الأيام دار حوارٌ بينَ عاصمِ فلاحٍ ومحمودِ السلّودي عن وضعِهِ مَعَ زَوْجَتِهِ؛ فَلَمَّا أَحَسَّ عاصِمٌ تَفَهُمَ مَحْمُودَ لَوْضِعِهِ بِكَيِّ، وقالَ بِأَنَّهَا تَسْتَمُّهُ وتُحَقِّقُهُ فِي البَيْتِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا الوَظِيفَةُ الَّتِي تَحْمِيهِ مِنَ الفَقْرِ والجُوعِ لَتَرَكَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَامِرَ بِتَرْكِ الوَظِيفَةِ والبَيْتِ والزَّوْجَةِ⁽¹⁾.

عند تشكيل السُّلْطَةِ الوَطَنِيَّةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ طَمَحَ النَّاسُ بِإِقَامَةِ دَوْلَةٍ دِيمُقْرَاطِيَّةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الفَسَادِ الإِدَارِيِّ، وَتَكُونُ مُخَالِفَةً لِحُكُومَاتِ الأَنْظِمَةِ العَرَبِيَّةِ؛ لِأَتَهُمْ دَافُوا مَرَارَةَ الإِخْتِلَالِ وَجَبْرُوتِهِ، وَلَكِنَّ السُّلْطَةَ لِلأسَفِ الشَّدِيدِ اسْتَكْمَلَتْ قَمَعَ الإِخْتِلَالِ وَإِذْلَالِهِ وَلَكِنْ بِشَكْلِ آخَرَ؛ فمحمود يَتَحَدَّثُ عَنِ هَذِهِ المَرِحْلَةِ بِأَنَّهَا مَرِحْلَةٌ انْتِقَالِيَّةٌ، وَفِي هَذِهِ المَرِحْلَةِ يَمُوتُ أَناسٌ تَحْتَ التَّعْذِيبِ فِي السَّجُونِ الفِلَسْطِينِيَّةِ، وَيُضْرَبُ أَفْرَادُ الشَّرْطَةِ فِي الشَّارِعِ، وَتُطْلَقُ النَّارُ عَلَى المُتَظَاهِرِينَ، وَتُعْطَلُ أوامرُ المَحَاكِمِ، وَتُنْأَرُ أزماتُ الفَسَادِ بِدَءًا بِالأَغْذِيَّةِ الفَاسِدَةِ وانْتِهَاءً بِاسْتِغْلَالِ المَنَاصِبِ⁽²⁾.

ويظهرُ فِي الرِّوَايَةِ أوَّلَ سُلْطَةِ فِلَسْطِينِيَّةٍ عَائِدَةٍ إِلَى أَرْضِ الوَطَنِ لِتَسْلُمَ زِمَامَ الأُمُورِ هِيَ سُلْطَةُ تُعَانِي مِنَ سَلْبِيَّاتٍ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى؛ مِمَّا جَعَلَ عَوْدَتَهَا مَوْضِعَ اسْتِهْجَانٍ وَاسْتِغْرَابٍ مِنَ عُمُومِ الشَّعْبِ فَالإِخْتِلَالُ لَنْ يَسْمَحَ بِعُودَةِ نَظِيفَةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الفَسَادِ إِلَى الأَرْضِ المُحْتَلَّةِ؛ وَذَلِكَ حَتَّى يُفْنَعَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِأَحْقِيَّةِ الإِخْتِلَالِ بِهَذِهِ الأَرْضِ؛ وَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ العُودَةِ النَّاقِصَةِ فِي رِوَايَةِ آخِرِ القَرْنِ⁽³⁾.

وَكَانَ مِنْ نَتَائِجِ الفَسَادِ الإِدَارِيِّ انْتِشَارُ الظُّلْمِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ الفِلَسْطِينِيِّ؛ فَالعِقَابُ مُعْطَلٌ لِمَنْ يَسْرِقُ شَيْئًا مِنَ المَالِ العَامِّ، وَهَذَا مَا حَصَلَ مَعَ نُهْيِ سُلَيْمَانَ الَّتِي اتُّهِّمَتْ بِسَرْقَةِ مِائَةِ أَلْفِ دُولَارٍ؛ فَهِيَ لَمْ تُحَاسَبَ عَلَى سَرْقَتِهَا؛ بَلْ أُجْبِرَتْ عَلَى الإِسْتِقَالَةِ فَقَطْ، وَطَارَتْ بِالمَالِ المَسْرُوقِ إِلَى لَنْدَنِ، وَهُنَاكَ أَدَارَتْ شَرِكَةً لِلإِسْتِيرَادِ وَالتَّصْدِيرِ مِنْ وَالى مَنَاطِقِ السُّلْطَةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ، وَصَارَتْ مِنَ المِلْيُونِيرَاتِ.

¹- يُنْظَرُ: عوض، أحمد رفیق، آخر القرن، ص 226-228.

²- يُنْظَرُ: صَوَّاف، بِاسْمَةِ، الرِّوَايَةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ فِي الصَّنْفَةِ العَرَبِيَّةِ وَقِطَاعِ غَزَّةِ (رِسَالَةٌ مَاجِسْتِير)، ص 63.

³- يُنْظَرُ: عوض، أحمد رفیق، حوار مع إسرائيلي، ص 106.

ولا بُدُّ أَنْ يَتَّبَعَ الفسادَ الإداريَّ فسادَ أخلاقيٍّ؛ فنظراً لهذا الفساد الإداري فسدت أخلاقُ بعضِ الناسِ، وأصبحوا يُنظرونَ باحترامٍ وتقديرٍ لمن هو في منصبٍ كبيرٍ في السُّلطة، أو لمن له أقارب في مناصبٍ كبيرة؛ فوسيم كان يعرفُ رهامَ ماجد السلوادي قبلَ أن يعملَ معَ محمود، وارتبطَ معها عاطفياً، وكان مرادُه من تلكِ العلاقة أن يعرفَها كما عرفَ غيرها؛ فلما عرَفَ أن محموداً السلوادي المسؤول الكبير عنها أصبحَ يُنظرُ إليها نظرةً مُختلفةً لدرجة أن الفتاة أُعجبتُ لِكَميَّةِ الاحترام التي تظهرُ في تصرُّفاتِ وسيم نحوها.

طلبَ وسيمٌ منها بعدَ ذلك أن تُمسِكَ له معرضَ الثياب، ولها راتبٌ جيِّدٌ، وبالزَّعمِ من فرحةٍ رهام الكبيرة بذلك إلا أنها كتمتْ هذه الفرحة، وأجابتهُ بأنها ستستأذنُ والدَها؛ ولذلك عملتْ في المعرضِ بعدَ تخرِجِها بقليلٍ؛ وهكذا ضمنتْ لها عملاً مُجزياً، وحبیباً يعُدُّها بأشياء كثيرة⁽¹⁾.

*رابعاً: كثرة الخلفات:

وكان من الطبيعي في ظلِّ انتشار الفساد في المجتمع الفلسطيني أن تنتشر الخلفات بين أفراد الشعب الفلسطيني، وبين بعض القيادات في السُّلطة الفلسطينية. وهذه الخلفات بين القيادات استمرت في مراكز وأماكن عدَّة؛ وذلك لاتِّخاذِ القراراتِ بطريقةٍ غيرِ مفهومة، وأن هذه القيادات - في معظمها - غارقةٌ في ترتيبِ أمورها الماليَّة؛ فهناك صفقاتٌ تجاريةٌ وخدماتيةٌ تُعقدُ باستمرارٍ.

وتبيِّنَ هذا في المشاهد الآتية:

(رَنَ جرس الهاتف في تمام الساعة الثالثة صباحاً في العُرفة التي نزل بها محمود السلوادي في إحدى فنادق جنيف؛ فرفع السَّماعة وهو نائم، وكان الذي يتكلَّم على الطرف الآخر (أبو) يزن واستفسرَ بصُراخٍ عن المَهزلة التي تجرِّي عندهم؛ فعرفَ محمود أنه يعني عن انسحابِ بعض أعضاء الوفد

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفیق، آخر القرن، ص 206، ص 209.

المُفاوض؛ فعَلَّ ذلكَ بِأنَّهُ خِلافٌ بَيْنَ السِّياسِي والخَبِير؛ فالسِّياسِي يَقولُ بِأنَّهُ يفهمُ التَّاريخَ، والخَبِير يَقولُ بِأنَّهُ يفهمُ الواقعَ؛ فانسحبَ بعضُ أعضاءِ الوفدِ لأنَّ آراءَهُم لا يُؤخذُ بِها.

محمود بِدوره عَقَبَ على هذا الخِلافِ بِالْحاجَةِ إلى وضعِ الخُطوطِ الحمراء لِالأشياءِ غيرِ المسموح بِتجاوزها، ووضعَ الخُطوطِ الخضراءَ للأشياءِ المسموحِ بالتَّحدُّثِ فيها.

وعندما طلبَ (أبو) يزنُ مِنْ مَحْمودِ العَودةَ مِنَ المُفاوضاتِ إلى فِلَسطينِ عادَ محمودُ، ثُمَّ ذَهَبَ إلى مكتبِ (أبو) يزنَ، وصارَحَهُ بِأنَّنا نفاوضُ في النِّهارِ، ونُفاجأُ بالقراراتِ تُتخذُ بِطريقةٍ غيرِ مفهومة.

وعَبَّرَ لَهُ بَعْدَ ذلكَ عَن اسْتِياهِ الشَّدِيدِ مِنَ الوضعِ العامِّ؛ فهو لَمْ يَسْتَطعْ شِراءَ بَيتِ حَاصِّ بِهِ، وَلَمْ يَسعَ إلى تَوظيفِ شَقيقِهِ؛ وذلكَ في مُقابلِ ما تَفعلُهُ بعضُ القياداتِ من عَمَلِ المَشاريعِ التِّجاريَّةِ و الخَدَماتِيَّةِ، والجَمعيَّاتِ والمُنظَّماتِ المُوازيةِ الَّتِي تَتكوَّنُ، واستِغلالِ المَناصِبِ بِشكلٍ غيرِ مقبولِ.

طلبَ محمودُ في نِهايَةِ هذا اللِّقاءِ مِنْ (أبو) يزنَ أنْ لا يَبقى في دائِرةِ المُفاوضاتِ، وأنْ يَنقَلِ إلى وِزارَةِ أُخرى؛ وذلكَ لِرِغبتِهِ الشَّديدةِ في بِناءِ بَيتِ جَميلٍ، وتَغييرِ موديلِ سِيارَتِهِ، وبعَدَ جِدالٍ كَبيرٍ يُوافقُ (أبو) يزنَ على انْتقالِ محمودِ مِنْ دائِرةِ المُفاوضاتِ (1).

*خامساً: تَغْييرُ صِورةِ فِلَسطينِ عَنِ الصِّورةِ المَرسومةِ:

اهتَمَّتِ السُّلطةُ الوِطنيَّةُ عِنْدَ قُدومِها بِالأُمورِ الشَّكليَّةِ المُختلفةِ عَنِ الصِّورةِ المَرسومةِ في الأذهانِ؛ فالاحتِلالُ لَمْ يَنتهِ، بلْ ازدادَ وتعمَّقَ في الأراضِي الفِلَسطينيَّةِ، ولكنَّ مِنَ النَّاحيةِ الشَّكليَّةِ فقد تطوَّرتْ رامُ اللهُ، وأصبحتْ مَدِينَةً حَديثةً، وكانَ فيها مَطاعِمٌ على الطَّرازِ العَرَبِيِّ تُقدِّمُ الخمرَ، وهذا أمرٌ غيرٌ معهودٍ داخلَ فِلَسطينِ، وكما أنَّ الاسْتِجارَ في شَقِّ رامُ اللهُ أصبَحَ يُوازي ضِعْفَ الرَّاتبِ المُقدَّمِ مِنَ السُّلطةِ، وهناكُ أناسٌ لا تاريخَ نِضالِيًّا لَهُمُ أُدخلوا في حَركةِ فِتحِ، وتبوَّأوا المَناصِبَ القياديَّةَ نَتيجةً لتَدخُلِ العِشائرِ القويَّةِ.

¹ - عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 186 . 190.

واتّضح هذا الأمر بعد أحد الاجتماعات التي عُقدت بين بعض القيادات الفلسطينية في فندق (ستراند) في رام الله؛ فمحمود حَزَجَ مُنْزِعاً مِنَ الصَّرَاعِ الَّذِي دَارَ بَيْنَ أَصْحَابِ النُّفُوزِ؛ فَرَأَى بِعَيْنَيْهِ صَدِيقَهُ فارس العبد(رائد في الأمن الوقائي) وسامي أبو الرّوس (رائد في المُخابرات العامّة) وهُمَا مِنْ رِفَاقِهِ فِي الثُّورَةِ؛ فَانْتَقَوْا عَلَى أَنْ يَذْهَبُوا لِلْعِشَاءِ فِي مَطْعَمِ الصَّحْنِ الذَّهَبِيِّ؛ فَذَهَبُوا إِلَيْهِ، وَعِنْدَمَا رَأَوْا المَطْعَمَ دُهِسُوا كَيْفَ يَتَحَوَّلُ بَيْتٌ قَدِيمٌ إِلَى مَطْعَمٍ حَدِيثٍ، ثُمَّ تَحَدَّثَ سامي بِأَنَّ الحِرْكَةَ لَا تُوَاجِهُ أَرْزَمَةً خَارِجِيَّةً فَقَطْ، وَإِنَّمَا دَاخِلِيَّةً أَيْضاً؛ وَعَقَّبَ فارس بِأَنَّ غَيْرَ المَفْهُومِ ذَلِكَ التَّهَالُكُ السَّرِيعَ، وَاسْتِعْجَالَ قَطْفِ الثَّمَارِ، وَالتَّفَقُّةَ الزَّائِدَةَ فِيمَا يَجْرِي حَقّاً؛ فَلَقَدْ رَأَى اسْتِعْجَالاً وَتَرْهَلاً، وَشَاهَدَ أَيْضاً أَعْضَاءَ مِنْ لِحَانِ تَنْظِيمِيَّةٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَ لَهُمْ أَدْنَى عِلَاقَةٍ بِالحِرْكَةِ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ محمود السَّلْوَادِي رَدّاً مَنْ يَفْهَمُ الوَاقِعَ جَيِّدًا؛ فَالسُّلْطَةُ إِغْرَاءً كَبِيرًا، وَبِمَا أَنَّ الحِرْكَةَ وَحَسَبَ تَقَالِيدِهَا المَرِنَةَ لَا تَرْفُضُ أَحَدًا؛ فَإِنَّ الفِرْصَةَ مُوَاتِيَةً لِجَمِيعِ الأَذْكَيَاءِ وَالمَهْرَةِ وَالشُّطَّارِ.

وعَلَّقَ الصَّدِيقَانِ بَعْضَ التَّعْلِيقَاتِ عَنِ الوَاقِعِ؛ فَهَذِهِ السُّلْطَةُ أَوَّلُ سُلْطَةٍ وَطَنِيَّةٍ لِلْفِلَسْطِينِيِّينَ عَلَى أَرْضِ مَجْرُوعَةٍ، وَكِيَانٍ سِيَّاسِيٍّ مَجْرُوعٍ.

وَفِي الحَيَالِ كَانَتْ هُنَاكَ صُورَةٌ وَرْدِيَّةٌ لِفِلَسْطِينٍ بَعْدَ العُودَةِ إِلَيْهَا، وَمِنْ ضِمْنِهَا اقْتِلَاعُ المُسْتَوْنَاتِ الإِسْرَائِيلِيَّةِ، وَتَوْفِيرُ العَمَلِ لِآلَافِ العَمَالِ الذِّينَ يَعمَلُونَ فِيهَا، وَلَكِنَّ فِلَسْطِينِ بَعْدَ عُودَةِ السُّلْطَةِ الوَطَنِيَّةِ إِلَيْهَا عَجَزَتْ عَنِ ذَلِكَ؛ فَهَذَا ماجد السَّلْوَادِي شَقِيقُ محمود السَّلْوَادِي كَانَ يَعمَلُ فِي إِحْدَى المُسْتَوْنَاتِ، يُفَاجَأُ ماجدَ ذَاتَ يَوْمٍ بِضَابِطِ أَمْنِ المُسْتَوْنَةِ يُنَادِيهِ، وَيَسْأَلُهُ عَنِ الأَشْيَاءِ الَّتِي يُرِيدُهَا شَقِيقَهُ مَحْمُودَ مِنْهُمْ فِي المُفَاوِضَاتِ الَّتِي يُشَارِكُ بِهَا كَسِيَّاسِيٍّ؛ فَأَجَابَهُ ماجدُ أَنْ تَخْرُجُوا مِنَ الضَّقَّةِ الغَرِيبَةِ، وَأَنْ تُخْلُوا المُسْتَوْنَاتِ، وَأَنْ تُفَكِّكُوا المُعَسَّكَرَاتِ (1).

¹ - يُنْظَرُ: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 158 - 1165، ص 113-115.

ومما لاشكَّ فيه أنَّ ماجد السُّلواي يُمثِّل شريحة العُمال الفِلَسطينيين الذين اندفعوا للعمل في المنشآت الإسرائيلية كتخطيط احتيالي من الصَّهينة للسيطرة عليهم؛ وجعلهم عبيداً لدى الاحتلال⁽¹⁾.

وصورة فلسطين كانت ورديَّة في خيال كثيرٍ من العائدين إليها قبل العودة، فكأنوا يتصوِّرون أنَّ فلسطين من أجمل البلاد، وأنَّ أهلها ملائكة لا يَعْشون ولا يُخادعون؛ فبعد العودة تتقلب الصورة؛ فهي أرضٌ قاحلةٌ عند بعض العائدين، وهناك بلادٌ أجملٌ منها، وأنَّ أهلها مثلُ كلِّ الناس؛ ففيهم الوطني والعميل، وغير ذلك.

وما سبق ينطبق على (أبو) يزن العائد إلى أرض الوطن؛ فقد تحدَّث عن توقُّعته عند العودة؛ فتوقَّع أن يكون ناسها من طينة الملائكة، وميائها مثل الكوثر، وليس فيها جريمة ولا خديعة ولا عُش ولا خيانة، وتوقَّع أن يراها مثل الجنة، ولكنه بعد دُخولها بوثيقة إسرائيلية رأى الناس هنا عابدين؛ فمنهم الوطني، والأمين، والخائن، وغير ذلك، ورأى بلده قاحلة جرداء، وهناك بلادٌ أجملٌ من فلسطين.

وفلسطين كانت على الدوام في خيال العائدين إليها أنها طارِدة للغزاة، ولكن بعد اتفاقية أوسلو أصبحت فلسطين تُرحَّبُ بأبناء المُحتلين لفلسطين قبل عام 1948 م؛ فالكولونيل ويلكوكس كان قائداً في الجيش البريطاني لمنطقة جنين قبل عام 1948م، وعند انضمام عبد الرحمن والد محمود السُّلواي إلى البوليس العربي كانت إحدى مهمَّاته حراسة ويلكوكس.

وبعد اتفاقية أوسلو عندما افتتحت شركة الاستيراد والتصدير لنهي سليمان كان هنري ابن ويلكوكس ضمن وفد الخبراء الذين استدعتهم الشركة.

¹ - يُنظر: السلُّوت، جميل، بيوس، ص 110.

أخبر محمود السلوادي هنري بأن أباه عبد الرحمن كان يحرس والده أثناء خدمته العسكرية، ثم جعله يُشاهد صوراً قديمةً تجمعتهما، وأخذه محمود بعد ذلك إلى بيت والده في سلواد لزيارته؛ فعرف عبد الرحمن أنّ هنري هذا يكون ابن ويلكوكس الذي كان يحرسه (1).

سادساً: عدم معاينة العملاء:

عند قدوم السلطة الوطنية لم تقم بمحاسبة العملاء الذين خانوا أوطانهم سنوات طويلة، ومن أبرز العملاء الذين ورد ذكرهم في رواية آخر القرن لطفى سويلم، والذي بدأ حياته مخبراً للإنجليز في الثلاثينيات من القرن العشرين، حيث لاقى النوار في منطقة جنين ونابلس، ثم شارك في فصيل مسلح للجواسيس بدعم من الإنكليز، وبقي على ذلك حتى سنة 1948م، ثم هرب إلى الأردن والعراق ومصر ليخدم في الجيش البريطاني، وفي عام 1966م عاد إلى نابلس، وبنى بيتاً فاخراً له، وتزوج للمرة الثانية، وفي عام 1967م عندما احتل الكيان الصهيوني نابلس التحق لطفى بالشرطة برتبة كبيرة، ثم أصبح منسقاً لروابط القرى في مختلف المحافظات، وأخيراً انضم إلى الإدارة المدنية، وسرب أراضي كثيرة للمستوطنين.

وعند مجيء السلطة توقع كثير من الناس أن يحاسب حساباً عسيراً، وهذا لم يحصل؛ فقد استُدعي مرات عدة من قبل الأجهزة الأمنية، ثم توقف الاستدعاء، ولم يحاسب على شيء، ثم توفي بعد ذلك، ولم تتعرض أسرته للمضايقة من قبل السلطة الفلسطينية؛ فقد كانت له ابنة حصلت على تعليم ممتاز، وعملت بعد ذلك في شركة نهي سليمان كمهندسة في تحليل النظم (2).

سابعاً: المشاعر السلبية:

لا بد أن يصاحب العودة إلى الأرض المحتلة عام 1948م تحت ظل الاحتلال المشاعر السلبية جزاء تحكّم المحتل في كل شيء، ولو كانت هذه العودة عبارة عن زيارة لفترةٍ محدودة.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 188-190، 217-219.

²- يُنظر: المصدر السابق، ص 220-222.

إِنَّ الْعَائِدَ إِلَى مَوْطِنِهِ الْأَصْلِيِّ فِي الْأَرْضِ الْمُحْتَلَّةِ عَامَ 1948م تَحْتَ ظِلِّ الْعَلَمِ الصَّهْيُونِيِّ، وَيَعَدُّ
الاعْتِرَافَ بِأَنَّ هَذِهِ الْمَنَاطِقَ تَابِعَةٌ لِلْكَيَانِ الصَّهْيُونِيِّ، وَلَا حَقَّ لِلْفِلَسْطِينِيِّينَ بِهَا لَا بُدَّ أَنْ يَشْعُرَ بِالْأَلَمِ
وَالهزيمة جزاء هذه العودة، وهذا ما حصل مع المُفاوض الفلسطيني محمود السُّلَوادي، والذي لجأ والداه
مِنْ سَهْلِ الرُّوحَةِ فِي حَيْفًا، وَتَبَدُّوا الرُّوَايَةَ بِأَنَّ سَيَّارَتَهُ تَتَوَجَّهُ إِلَى فَنْدُقِ دَانَ بِنْتَلْ أَبِيبَ لِمُفَاوَضَةِ حَايِيمِ
شَلُومُو أَحَدِ الْمُفَاوِضِينَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَهَذِهِ الْمُفَاوِضَاتُ تَدُورُ حَوْلَ قِضِيَّةِ اللَّاجِئِينَ بَعِيدًا عَنِ عَوَدَتِهِمْ
إِلَى دِيَارِهِمْ.

ورواية آخر القرن نجحت في توصيل حالة الألم التي تَعْتَصِرُ هَذَا الْمُفَاوِضَ؛ فَهُوَ يَعُودُ إِلَى بَلَدِهِ
الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي لَجَأَ مِنْهَا وَالِدُهُ لِيُقَرَّرَ لَهُمْ بِإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمَكَانِ، وَلِيُقَدَّمَ الْمَزِيدُ مِنَ التَّنَازُلَاتِ عَنِ الْأَرْضِ، وَعَنِ
حقوق اللاجئين⁽¹⁾.

وللشُّعُورِ بِالْأَلَمِ مَا يُبْرِرُهُ؛ فَمَحْمُودُ يَشْعُرُ بِالهزيمة إِذْ عَرَفَهَا فِي مَفْهُومِهَا الْوَاسِعِ - الَّذِي يَشْمَلُ الْعَرَبَ
وغيرهم مِنَ الْأُمَّمِ -:

إِنَّ الْهزيمة هِيَ أَنْ تَنْزِعَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ الْمُبَادِرَةَ وَالرَّغْبَةَ فِي التَّجْرِبِ وَالِدَّافِعَ لِلْمُوَاجَهَةِ، وَالْعَزِيمَةَ
لِلنَّهْوضِ، وَالْإِدَارَةَ فِي الْمَقَاوِمَةِ، وَالشُّعُورَ بِالْأَهْمِيَّةِ.

وهذا الشُّعُورُ بِالهزيمة جَعَلَ مَحْمُودَ السُّلَوادي يُحْسُ بِالْعَجْزِ، وَعَدِمَ الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِصْلَاحِ؛ وَلِذَلِكَ
انْسَحَبَ مَرَّتَيْنِ مِنْ مَسْئُولِيَّاتِهِ وَوَاجِبَاتِهِ؛ فَالمرَّةُ الْأُولَى انْسَحَبَ مِنَ الْمُفَاوِضَاتِ، وَالمرَّةُ الثَّانِيَّةُ انْسَحَبَ
مِنَ الْوِظِيْفَةِ الْحُكُومِيَّةِ⁽²⁾.

¹- ينظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 3-4.

²- ينظر: الخواجة، علي، جوائز الفهم، ص 161، ص 154.

ومن أهمّ المشاعر السلبية في رواية آخر القرن الشعور بالاعتراب عن المكان، فهو الذي يتحكّم في الرواية؛ وذلك نتيجة لمعاناة الفلسطيني من تحكّم المحتلّ، وهذا الأمر جعله يشعر بفقدان الهوية حتّى وهو في وطنه (1).

والشعور بالغرابة تملك بعض اللاجئين عند عودتهم إلى أماكنهم الأصلية في الأراضي المحتلة عام 1948م؛ وذلك على شكل زيارات خاطفة؛ فالمكان بعد الاعتراف بإسرائيليتيه أصبح غريباً عنهم؛ فهم غرباء في موطنهم الأصلي.

محمود السلوادي يصف أحد أحياء تل أبيب (رامات أفيب - جيمل)، والذي عمل فيه قبل خمسة عشر عاماً كمساعد للجنايني اليهودي، فعندما عمل في هذا المكان كان يعرف أنّ هذه الأرض محتلة، ولكن بعد العودة إلى ذات المكان بعد اتفاقية أوسلو كمفاوض رئيس في لجنة اللاجئين المشتركة خلال حفل بروتوكولي دعا إليه السفير الأمريكي لدى الكيان الصهيوني يحاول أن يبحث عن الحديقة التي عمل فيها قبل خمسة عشر عاماً، ولكنه لم يتعرّف على المكان، وعندما نظر حوله وجد نفسه محوطاً بكثير من الشخصيات الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية، وهمس لنفسه بأنه الوحيد المحتل بين هذا الجمع، وأنه الوحيد الذي سيطلب بإظهار بطاقته الشخصية على نقاط التفتيش (2).

ومنّ المشاعر السلبية أيضاً الشعور بالبؤس؛ فبعضهم سمح له وحده بالعودة، ومنع من ذلك زوجته وأولاده، وعادوا بوثيقة إسرائيلية، ولا يستطيعون الحركة إلا بإذن الاحتلال، وفي حالة الإصابة بأي مرض يُنقلون إلى المشافي الصهيونية.

وهذا ظهر في حالة (أبو) يزن أحد كبار المسؤولين في دائرة المفاوضات؛ فهو ولد في قرية المغار القريبة من عكا، وناضل في جبهات كثيرة، وتشرّد في أصقاع الدنيا، وله زوجة مغربية وعدة أولاد

¹- يُنظر: بكّار، يوسف، النقد الأدبي داخل فلسطين في نصف قرن (1948م-1998م)، ص 384-385.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 11-12.

يَحْمِلُونَ جِنْسِيَّاتٍ مَخْتَلَفَةً، ولم تسمح لهم سلطات الاحتلال بالعودة إلى أرض الوطن، ويفعل غياب الأسرة تحوّل أبو يزن إلى ماكينة عمل.

وَيَتَحَدَّثُ عَنْ عَوْدَتِهِ الْبَائِسَةِ بِأَنَّهُ دَخَلَ فِلَسْطِينَ عَبْرَ مَمَرٍ رَفِجٍ بُوْثِيْقَةٍ إِسْرَائِيلِيَّةٍ، وَأَنَّهُ كَانَ مُعْرَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ومسلوب الحركة، ومقيّد الخطوات، وقوبل بالترحيب بلغةٍ عِبْرِيَّةٍ، ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَمَا شَمَّ رَائِحَةَ احْتِرَاقِ جِلْدٍ أَوْ بِلَاسْتِيكٍ، وَلَمَّا فَتَحَ عَيْنَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَسْتَشْفَى سُوروكَا الْقَرِيبِ مِنْ بئر السَّبْعِ، وَحَوْلَهُ مُمَرَّضَاتٍ إِسْرَائِيلِيَّاتٍ وَضَابِطٍ فِلَسْطِينِيٍّ يَعْمَلُ فِي لَجْنَةِ الْإِزْتِبَاطِ الْعَسْكَرِيِّ، وَكَانَ أحياناً يَمْرُحُ مَعَ أَصْحَابِهِ قَائِلاً لَهُمْ: بِأَنَّهُ دَخَلَ فِلَسْطِينَ مِنْ مَعْبَرِ سُوروكَا، وَلَيْسَ مِنْ رَفِجٍ أَوْ أَرِيحَا؛ فَأحياناً يَضْحَكُ، أَوْ تَدْمَعُ عَيْنَاهُ حَسَبَ الْأَحْوَالِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ الْعَائِدِينَ إِلَى فِلَسْطِينَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا إِزْجَاعَ زَوْجَاتِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ إِلَى فِلَسْطِينَ مِمَّا تَسَبَّبَ لَهُمْ فِي الْكآبَةِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ مَاتَ وَحِيداً فِي فِلَسْطِينَ دُونَ أَنْ يَتِمَّكَنَ أَهْلُهُ مِنْ تَوْدِيْعِهِ فِي فِلَسْطِينَ، وَكَانَ أَبُو يَزْنَ مِنْ هُوَلَاءِ الْعَائِدِينَ؛ فَكَانَ يَدْخُلُ فتراتٍ كآبَةٍ طَوِيلَةٍ نَتِيجَةً لِإِفْتِقَادِهِ أَوْلَادِهِ.

وَكَانَتْ نَهَايَةُ أَبِي يَزْنَ حَزِينَةً؛ فَقَدْ مَاتَ فِي مَكْتَبِهِ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ كَمَكْتَبٍ وَكَمَكَانٍ لِلنُّومِ، وَمَاتَ وَحِيداً بَيْنَ أَوْرَاقِهِ وَأَدْوَاتِ مَطْبَخِهِ، وَلَمْ يَكْتَشَفْ أَحَدٌ مَوْتَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَضَى عَلَى مَوْتِهِ سِتَّ سَاعَاتٍ⁽¹⁾، وَهَكَذَا عَانَى الْفِلَسْطِينِيُّ مِنَ الْوُجُودِ الْمَكَانِيِّ مَا سَبَّبَ لَهُ كَثِيراً مِنَ الْقَلْقِ وَالتَّوْتُرِ⁽²⁾.

أَخْلَصَ إِلَى أَنَّ الْعَوْدَةَ النَّاقِصَةَ فِي رَوَايَةِ آخِرِ الْقَرْنِ تَمَثَّلَتْ فِي عَوْدَةِ بَعْضِ الْمَلْجُئِينَ إِلَى مَوْطِنِهِمُ الْأَصْلِيِّ فِي الْأَرْضِ الْمُحْتَلَّةِ عَامَ 1948م عَلَى شَكْلِ زِيَارَاتٍ خَاطِئَةٍ وَقَصِيرَةٍ، وَكَذَلِكَ تَمَثَّلَتْ فِي عَوْدَةِ السَّلْطَةِ الْوَطْنِيَّةِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُحْتَلَّةِ عَامَ 1967م.

وَصَوَّرَتِ الرِّوَايَةُ تَبَدُّلَ الْقِيَمِ لَدَى شَرِيحَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ عَوْدَةِ السَّلْطَةِ الْوَطْنِيَّةِ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَجْرِي وَرَاءَ الْمَالِ وَالْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ بَعْدَ غِيَابِ الْهُمُومِ الْوَطْنِيَّةِ، وَصَوَّرَتْ كَذَلِكَ الْفَسَادَ

¹- ينظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 95-97، ص 266-267.

²- ينظر: حطيني، يوسف، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية، ص 123.

الإداري داخل المؤسسات الفلسطينية، وصوّرت أيضاً تهويد الأراضي الفلسطينية المحتلة وأهلها الذين بقوا هناك، وسوف تأتي بعد قليل صور العودة الناقصة في رواية بلاد البحر.

ثالثاً: صور العودة الناقصة في بلاد البحر

مُلخَصُ الرّواية:

تدور أحداث الرّواية في منامات أحمد مسعود إحدى شخصيات الرّواية، التي تنقل واقع الأُمّة المهزومة بواسطة الانتقال السّريع بين الأزمنة والأمكنة، وهذا الانتقال السّريع حصل بين زمنين: زمنٍ ماضٍ وزمنٍ حاضرٍ؛ فالزّمن الماضي زمنٌ حصار عكا من قبل الملك الأشرف، والزّمن الحاضر زمنٌ ما بعد اتّفاقيّة أوسلو؛ فالرّواية تربطُ بينَ الزّمنين.

تتشكّل شخصيّة أبي الفداء التّاريخيّة على شكل طائر الرّخّ (أبو الفداء أحد قيادات جيش حماة، وقد شارك في حصار عكا)، ويأتي إلى أحمد مسعود في منامه، ويأخذه إلى إحدى مُعنتقات الفلّسطينيين ليُريه كيفيّة تعذيب موران الضّابط الإسرائيلي لهم، والمبالغة في إهانتهم، ثمّ يأخذه إلى عكا في الزّمن الحاضر ليستعربَ من وجود المُحتلّين الصّهاينة هناك؛ ولينقله بعد ذلك إلى عكا في زمن حصار الملك الأشرف لها حيثُ ينقلُ له بعض المعارك الدّائرة في ذلك الوقت.

يتذمّر أحمد مسعود من رداءة الزّمن الحالي؛ فيجيبه أبو الفداء بأنّ الزّمن الذي سبق حصار عكا أسوأ بكثيرٍ من هذا الزّمن، فذلك الزّمن شهد سقوط القدس وبغداد وبيروت وغيرها، ولو قارنا أعداء الأُمس بأعداء اليوم لعرفنا أنّ غولدا مائير وشاؤول موفاز، وغيرهما من الصّهاينة همّ أناسٌ هادئون وطيبون⁽¹⁾.

ويتحدّث أحمد مسعود عن كثيرٍ من المظاهر السّلبية في عودته إلى الأراضي المُحتلّة في الزّمن الحالي، ومنها: فضيحة الفساد التي تناقلتها الفضائيات العربيّة والأجنبيّة؛ فقد اتهم وزيرٌ ما بصفقةٍ فاسدةٍ، وتمّ عرضُ هذه القضيّة على المدعي العامّ والذي حقّق فيها طيلة سنّةٍ كاملة، ثمّ خرج

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 9-29.

على النَّاسِ بالقول: إِنَّ القُضِيَّةَ مُفْبِرْكَةٌ ولا أساس لها مِنَ الصَّحَّةِ، وأنَّ أعداءَ الشَّعبِ يقفون وراءَ هذه الشَّائِعة⁽¹⁾.

ومن الرِّحلاتِ الَّتِي قامَ بها أبو الفداء مع أحمد مسعود، والَّتِي توضَّحَ مفهومَ العودَةِ النَّاقِصةِ إلى الأرضِ المُحتلَّةِ طيرانهما إلى مُخيِّمِ الرِّشيدِيَّةِ في لبنان، ومِنَ ثَمَّ النَّزولِ في بيتِ الرِّنكِ المُكوَّنِ مِن حُجرتين؛ فإذا شيخٌ كبيرٌ يُدعى أبا حسينِ يجلسُ أمامَ الحجرتين؛ فيتحدَّثُ عن نفسه بأنَّه كان من وجهاءِ قريةِ المسمِيَّةِ الَّتِي كانَ يملكُ فيها مائةَ دُونمٍ مِن أخصبِ الأراضِي الزراعيَّةِ، وكانَ لديه بيتٌ عربيٌّ كبيرٌ، وأصبحَ اليومَ لاجئاً يعاني من الدَّلِّ والحرمانِ؛ فيطلعه أبو الفداء على أخبارِ المائةِ دُونمِ بعدَ أن تركها؛ فقد أصبحتِ أراضِي حُكوميَّةً، واستأجرها في البداية يهوديٌّ يمنيٌّ يدعى يوسفُ حمامة الصَّنَعاني، وكانَ برفقته زوجته عدنة، وسمَّى هذا اليهودي نفسه يوسي يونا بعدَ دخوله الكيان الصَّهْيوني.

وخسر يوسي بعدَ ذلكِ المائةَ دُونمِ نتيجةَ اشتراكه في إحدى حركاتِ التَّمَرِّدِ ضدَّ حكومةِ الكيان الصَّهْيوني، وهُجِرَ البيتُ العربيُّ الكبيرُ فترةً مِنَ الزَّمنِ؛ وسُمِعَ من داخله زغاريدٌ وأصواتٌ تنادي على أبي حسين، ثُمَّ سُلِّمَ إلى إدارةِ المتاحفِ، ونُقِشَ عليه بعضُ العِباراتِ العبريَّةِ، وصارَ يشهدُ زياراتِ الوفودِ الأمريكيَّةِ والأوروبيَّةِ.

وتحدَّثتِ الرِّوايةُ عن تدهورِ الإقتصادِ الفِلِسطينيِّ بعدَ مجيءِ السُّلطةِ الفِلِسطينيَّةِ، ومن ذلكِ الحديثُ عن أسعارِ الشُّقِّ الخياليَّةِ، وعنِ نِسبَةِ الفائدةِ الَّتِي تفرضُها البنوكُ، وكذلك تُطلَعُنا على انْتِشارِ الفسادِ الماليِّ والأخلاقيِّ، وتفشِّي آفةِ العشائريَّةِ⁽²⁾.

¹- ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 64-66.

²- ينظر: المصدر السابق، ص 67-77، ص 98-99، ص 106-112.

وتتضح الرواية بشكلٍ جيّد عند الإشارة إلى بعض الشخصيات التاريخية في الهوامش، ومن تلك الشخصيات الملك الأشرف⁽¹⁾، والقائد الحموي (أبو) الفداء⁽²⁾، ولابدّ من الإشارة إلى حصار عكا من قبل الملك الأشرف⁽³⁾.

أهمّ صور العودة الناقصة في بلاد البحر:

أولاً: الإجراءات الصهيونية:

تعددت صور الإجراءات الصهيونية ضدّ الوجود الفلسطيني، والهادفة للتغصيص على حياة الفلسطيني، ودفعه للرحيل عن هذه البلاد؛ فيأخذ أبو الفداء أحمد مسعود إلى إحدى السجون المخصّصة لسجن المناضلين الفلسطينيين؛ فيقف أبو الفداء فوق الخيمة التي يجلس بها موران الضابط الصهيوني المكلف بإدارة هذا السجن الذي يتشكّل من عدّة خيم، وحول هذه الخيم أبراج حديدية وسياج شوكي ملتو.

وبالمناسبة موران ابن غير شرعي لبوسي يونا اليهودي اليميني وأمه كانت تُدعى عدنة؛ ونظراً لوجود هذه العُقدة النفسية في حياة موران أصبح حاقداً على كلّ العرب.

¹ - تعريف بالملك الأشرف: هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالح التجمي، وتولى الملك يوم الأحد السابع من ذي القعدة سنة 689 هـ، وكان الملك الأشرف قاسياً وميلاً إلى الغف والغلظة مع زعيته وجنوده، وقيل الملك الأشرف في 12 محرم سنة 693 هـ على يد نائبه في السلطنة الأمير بدر الدين بيدرا بعد أن استفحلت الغداوة بينهما. (ينظر: ابن بردي، يوسف بن تغري الأتابكي، النجوم الزاهرة، ص 3-4؛ مرزوق، محمد عبد العزيز، الناصر محمد قلاوون، ص 95-98؛ سالم، السيد وآخر(سحر عبد العزيز)، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص 274).

² - التعريف بأبي الفداء: هو إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن عماد الدين الأيوبي، وهو أمير أيوبي وُلد في جمادى الأولى سنة 627 هـ في دمشق، وقد اشتهر أبو الفداء بالجديّة الثابتة في عمله في الحكم والعلم، وقد درس التاريخ دراسةً متقنة، واشترك في القتال ضدّ الصليبيين وبخاصة في حصار عكا مع الملك الأشرف، وله كُتُبٌ عدّة: من أهمّها "المختصر" الذي يُعدّ من أوفى كُتُب التاريخ وأدقّها. (ينظر: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 1 / 7-8).

³ - نبذة عن حصار عكا: لما استهلّت سنة 690 هـ أخذ الملك الأشرف في تجهيز العدة لتحرير عكا؛ ففزل عكا مع جنوده في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، ونجح بعد ذلك في فتح عكا وتحريرها. (ينظر: ابن بردي، يوسف بن تغري الأتابكي، النجوم الزاهرة، 8 / 5-8).

مُوران اعتادَ على إذلالِ الفِلسطينيين المُعتقلين لديه وتعذيبهم؛ فصاح ذات ليلة بالمعتقلين، وأمرهم أن يُسمعوه أغنية المساء.

وأمرهم بعد ذلك أن يُغنوا بالعبرية إحدى الأغنيات؛ فاستجابوا وغنوا باللغتين العربية والعبرية؛ وذلك خوفاً من تعذيب مُوران الشَّدِيد⁽¹⁾.

وذهب بعض الباحثين إلى أن السَّجن في هذه الرِّواية لم يشكل ظاهرةً لافتةً كُبْنِيَّةً مَكَانِيَّةً، وعندما برزَّ السَّجنُ أوالمُعتقلُ وخيامُهُ كان مصدرَ إهانةٍ وتحقيرٍ؛ فواضحٌ أن الضَّابط(مُوران) كان يتلذَّذُ في تعذيبِ المُعتقلينِ الفِلسطينيين وإهانتهم، ومثل هذا الوضع كان مُتوقَّعاً من مُحتملٍ يُمارسُ كافة أشكال القتل والقمع والتَّدمير⁽²⁾.

ولم يكتفِ الكيان الصَّهيووني بتعذيب الفلسطينيين داخل السَّجون، بل تعدَّى التَّعذيب كُلَّ الحُدودِ خارج السَّجون، ووصل حدَّ الموت؛ فالضَّابط الصَّهيووني (مُوران) قَتَلَ أحدَ المُقاومين الفلسطينيين في منطقة جنين؛ فقد كَمَنَ هذا الضَّابط لِ مُحَمَّدَ جِهَادٍ فِي مَغَارَةٍ غَرِبَ بِلدَةٍ كَفَر رَاعِي بِالقَرَبِ مِنْ قَرِيَةِ صيدا؛ فمُوران خنقهُ حتَّى الموت؛ وذلك بعد أن طَرَحَهُ أَرْضاً، وضغط على رقبته، وادَّعى هذا الضَّابط أنه قاوم حتَّى الطَّلقة الأخيرة.

وكانَ الكيان الصَّهيووني مُرتبطاً بالقتل مُنذُ تأسيسه، وتواصل على هذا النَّهج بعد اتِّفاقية أوسلو؛ وذلك لأنَّه يعلمُ علمَ اليقين أنَّه دولة مُغتصبة للأرض الفِلسطينية، وأنَّ أصحاب هذه الأرض لا بُدَّ أن ينهضوا في يومٍ من الأيام لاستِعادتها.

وبالفعل قام أصحاب الأرض الفِلسطينية بعدة ثورات وانتفاضات على مدار التَّاريخ لتحرير هذه الأرض من المُحتلِّين، وبعد اتِّفاقية أوسلو قامت بعض الأعمال الفِدائية ضدَّ الاحتلال؛ فردَّ الكيان الصَّهيووني بقتل هؤلاء المُناضلين.

¹- ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 11-13.

²- ينظر: قُطوسة، حسن ماجد، توظيف التَّاريخ في روايات أحمد رفيق عوض (رسالة ماجستير)، ص 95.

وسياسة القتل لم تكن حادثةً مُفردة، بل كانت سياسةً مُبرمجة اتبعتها الكيان الصهيوني دائماً ضدّ كلّ فلسطيني يقتل أحد الصّهاينة، أو يُهدّد أمنه الشّخصي؛ وهذا ما حدث في هذه الرّواية عندما عرّفت السّلطات الصّهيونيّة هويّة الفلّسطيني قاتل ابن يوسي يونا الأكبر؛ وذلك بعد أن أطلق عليه النّار أثناء ذهابه بسيّارته إلى المُستوطنة القريبة من بيت لحم؛ وبشكلٍ سريعٍ أرسل الكيان الصّهيوني مروحيّة من نوع كوبرا، وحلّقت فوق ذلك الفلّسطيني الذي ينتمي إلى عشيرة آل العبيّات، وأطلقت عليه ثلاثة صواريخ فاحترقت السيّارة بمن فيها، وعندها أقسم أبناء هذا الفلّسطيني على الثّار لوالدهم.

الكيان الصّهيوني نشر القتل بين الفلّسطينيين، وأصبح القتل شيئاً طبيعياً يحدث دون أن يُلْفِتَ نظر أحد؛ فهذا أحمد مسعود انتقل إلى مُؤسّسةٍ أُخرى؛ وفي اليوم الأوّل له في تلك المُؤسّسة استأذّن أحمد مُديره بمُغادرة المبنى، والعودة إلى البيت؛ وذلك لأنّ قوّة الاحتلال تُحاصر الحيّ الذي يسكنه بعد أن قتلوا ثلاثة شبّان من كتائب أحد الفصائل فجر هذا اليوم؛ فسأله هذا المُدير عن هذا الحيّ؛ فأجابهُ بأنّه لا يبتعد عن وسط المدينة كثيراً؛ فأظهر هذا المُدير استغراباً شديداً؛ فهو جاء بسيّارته، ولم يلاحظ شيئاً غير عادي؛ فردّ عليه أحمد مسعود بأنّ أمر القتل صار هكذا؛ فالقتل في شارعٍ والبيع في الشّارع الذي يليه⁽¹⁾.

تطرقت الرّواية إلى النّكبة الفلّسطينيّة المُعاصرة، والتي تعدّ نقطة تحوّل في مصير الفلّسطيني الذي أضحى مُسرّداً في مُعظم الدّول العربيّة تاركاً أرضه وبيته وأحلامه؛ وذلك لأجل إحياء شعبٍ آخر؛ فتحوّلت فلسطين إلى قضية شعبٍ مُسرّدٍ ولاجئٍ يعتاش على ما تُقدّمه وكالة الغوث الدّوليّة له من خدمات؛ فأصبح يعيش في المُخيّمات بعد أن كان يعيش في بيته وسط مساحاتٍ كبيرة من الأراضي الزراعيّة⁽²⁾.

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 13-14، ص 76، ص 251.

² - ينظر: صواف، باسمه سهيل، الرّواية الفلّسطينيّة في الضّفة الغربيّة وقطاع غزة بعد اتّفاقيّة أوسلو: دراسة موضوعيّة فنيّة (1993م - 2000م) (رسالة ماجستير)، ص 95.

وجماهير اللاجئين تحوّلت إلى ما يُمكن أن نُطلقَ عليه أدنى طبقات السُّلم الاجتماعي في أفطار الشتات؛ وهؤلاء مارسوا الأعمال الشاقّة والوضيعة في منافعهم⁽¹⁾.

ورواية بلاد البحر التّصقّت بالواقع الفلسطيني كثيراً عندما وصفتُ مأساة اللاجئين وصفاً تفصيلياً عن طريق إحدى الرّحلات التي رافق بها أحمد مسعود أبا الفداء؛ فسوّرت بيوت اللاجئين، وفقرهم؛ وكذلك الفرق الكبير الذي حلّ على حياتهم بعد النّكبة.

وتطرقتُ الرّواية إلى فكرة العودة إلى الوطن، وهي أكبر من حلم؛ فإنّها تمثّل الأمل الذي يُحرّك الفلسطيني ويدفعه للنّضال من أجل وطنه؛ ففكرة العودة هي هاجس الفلسطيني الذي لا يستطيع أن ينتازل عنه أحد⁽²⁾.

جسد الرّوائي فكرة العودة الناقصة إلى الأراضي المحتلّة عام 1948م عن طريق رحلة قام بها أبو الفداء مع أحمد مسعود، والتي صورت أشد الإجراءات الصّهيونيّة قسوة، التي اتّخذت بحقّ الفلسطينيين ألا وهي نهب أموال الفلسطينيين وممتلكاتهم؛ فقد طار أبو الفداء بأحمد مسعود فوق مُخيم الرّشيدية، وخطاً على سطح بيت مسقوفٍ من الزّنك الرقيق المثبّت بأحجارٍ من الطّوب، وكان هذا البيت مكوّناً من حُجرتين ضيّقتين يُشبه عشرات البيوت المحيطة به، وجلس أمام هاتين الحجرتين شيخٌ يدعى (أبو) حسين، وقصّ هذا الشيخ بعد ذلك حكايته التي سبق ذكرها.

يُخبر أبو الفداء أبا حسين عن الطّروف التي حلّت بأرضه وبيته الكبير؛ فقد سكن هذا البيت يهودي يمّني يدعى يوسي يونا، وكان قد استأجر المائة دونم من الحُكومة الصّهيونيّة.

¹ - ينظر: أيّوب، مُحمّد، الشّخصيّة في الرّواية الفلسطينيّة المعاصرة، ص 49.

² - يُنظر: أبو إصبع، صالح خليل، فلسطين بين تحدّي الوجود وثقافة التّحدّي، ص 144.

وفي الموشاف⁽¹⁾ القريب من الشارع الرئيس بين اللد وبيترالسبع استلم يوسي منه مسؤولية إدارة المائة دونم، وقيل له إنه مستاجر للأرض من الحكومة، وأن عليه أن يخضع لتعليمات سكرتارية الموشاف في نوعية زراعة تلك الأرض، وكيفيتها.

قرر يوسي تطليق زوجته نظراً لارتكابها الزنا، وإنجاب موران الولد غير الشرعي له؛ ولكنه تراجع عن ذلك بعد تهديده من قبل مسؤول حزب الإشكناز⁽²⁾ بخسارة البيت العربي والمائة دونم، وأنه لن يجد وظيفة زبال في دولة الكيان الصهيوني، وعندها قال له يوسي بأنه لن يطلق زوجته، ولكنه لن يرّي هذا الطفل؛ فأخذ المسؤول الإشكنازي إلى مؤسسة داخلية.

وفي النهاية خسر يوسي يونا المائة دونم والبيت العربي الكبير نتيجة لاشتراكه في إحدى حركات التمرد للمطالبة بكشف النقاب عن اختفاء أكثر من خمسمائة طفل يماني لحظة وصول آبائهم أرض الكيان الصهيوني، واعتقل يوسي في سجن هداريم مع الفلسطينيين.

وزعت الحكومة الإسرائيلية المائة دونم على معهد زراعي أنشئ حديثاً؛ فمحتة عشرة دونمات للتجارب الزراعية، وأعطت ثلاث عائلات روسية ما بقي من الأرض، وكان البيت العربي الكبير من نصيب المهاجر الجديد أفيغدورماكوفسكي، والذي سلم أرضه إلى عمال تايلانديين، ثم قام أحد العمال التايلانديين بقتل زميله؛ فطردوا جميعاً من هذا البيت، ولم يحضر ماكوفسكي آخرين للعمل في الأرض؛ فأقفرت الأرض، وأصبحت بوراً، ولكن العاملين في المعهد الزراعي والباحثين أصبحوا يرون في الليل أضواءً وحركاتٍ وأصواتاً وصهيباً وزغاريد شرقيةً ونيراناً في البيت العربي الكبير، وكانوا يرون أيضاً امرأةً تلبس الثوب الفولكلوري الفلسطيني تُنادي على رجلٍ يدعى (أبو) حسين.

¹ - الموشاف: هي القرى التعاونية داخل الكيان الصهيوني (ينظر: الهديب، فائزة عبد الأمير، الاتجاهات الصهيونية في الأدب العبري الحديث، ص 49).

² - الإشكناز: هم الأغلبية العظمى من يهود أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا، وهم الذين أسسوا الكيان الصهيوني. (ينظر: مزعل، غانم، الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث، ص 24-25).

عاد أفيغدورماكوفسكي إلى روسيا بعد عدم مقدرته على الاندماج في المجتمع الصهيوني، ومن ثمّ تسلّمت دائرة الآثار مسؤوليّة البيت العربي الكبير، ونقشوا عليه عدّة نقوش عبريّة، ووضعوا عليه لافتةً بأنّ هذا البيت العربي الكبير شهد عدّة اجتماعات للأحزاب العماليّة الأولى قبل قيام دولة الكيان الصهيوني؛ ولذلك أصبح هذا البيت مزاراً للوفود⁽¹⁾.

وقد أجاد الرّوائي في الاتكاء على قصص الخيال لإيصال أفكاره إلى القارئ؛ فالبيت العربي الكبير تركه أفيغدور ماكوفسكي مهجوراً؛ فأحضر الرّوائي قصّةً خياليّةً لإيصال فكرة حنين هذا البيت إلى ساكنه الأصلي الذي تهجّر منه؛ فقد ظهر فيه امرأة تلبس الثّوب الفلسطيني، وتنادي على (أبو) حسين. ولعلّ هذه الرّحلة التي ذهبَ فيها أحمد مسعود مع أبي الفداء إلى مخيم الرّشيدية تُشير إشارة واضحة إلى نكبة عام 1948م، والتي كانت حلقة واحدة من المخطّط الصهيوني الرّامي إلى الإستيلاء على أراضي فلسطين وطرد سكّانها الأصليين ومحو آثارهم الثقافيّة والعمرانيّة، واستبدالهم بمسوّطين جدد يُجلبون من جميع أنحاء العالم⁽²⁾.

ورواية بلاد البحر تُبيّن الأشياء التي فعلها الكيان الصهيوني بالأراضي الفلسطينيّة والبيوت التي هُجر أصحابها قسراً؛ فقد اعتبرتها إسرائيل أملاك دولة لأنّها تعود في نظرهم إلى أناسٍ غائبين عنها بمحض إرادتهم؛ فقامت بتأجيرها لليهود الجُدد القادمين من البلاد العربيّة، الذين يُجيدون الرّاعة بشكلٍ جيّدٍ، وهؤلاء اليهود كانوا في أدنى طبقات المُجتمع الصهيوني؛ ولذلك خضعوا لتعليمات اليهود الغربيين (الإشكناز)، والذين كانوا في أعلى طبقات المُجتمع الصهيوني؛ فهم من يمنحون الأرض الحكوميّة لمن يُريدون عن طريق تأجيرها، ويسحبونها ممّن يريدون؛ فهم الأمرون النّاهون في هذه الدّولة.

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 67-75.

² - ينظر: كناعنة، شريف، الشتات الفلسطيني هجرة أم تهجير، ص 62.

وظهر المُخيم في هذه الرواية مُعادلاً جمالياً للتعارض الحادّ بين حياة الفلسطينيين قبل اقتلعه من أرضه والحياة الجديدة التي آل إليها بعد النكبة، والتي يُعدُّ الفقر والمرض والبؤس أهمّ معالمها (1). ومن المُثير للانتباه أنّ الكيان الصّهيوني لم يكتفِ بنهب أموال الفلسطينيين وممتلكاتهم، بل كان مُصراً على أخذ كامل الأرض الفلسطينيّة؛ فجميع فئات الشعب الصّهيوني كانت قلقةً من فكرة التّخلي عن الأرض بعد اتّفاقيّة أوسلو؛ ولذلك استغلّ الكيان الصّهيوني انتفاضة الأقصى؛ فحاصر رام الله في نيسان عام 2002م، واحتلّ كذلك كلّ مدن الضّفة وقراها، وادّعى أنّه يقضي على بؤر الإرهاب، والحقيقة التي لا نقاش فيها أنّه أراد استعادة جميع الأراضي الفلسطينيّة حتّى الأراضي الخاضعة للسيطرة الفلسطينيّة الكاملة إرضاءً لبعض الصّهاينة الخائفين من فكرة التّخلي عن الأرض في اتّفاقيّة أوسلو.

والكيان الصّهيوني استخدّم كلّ الطُّرق المشروعة وغير المشروعة للسيطرة على الأرض الفلسطينيّة، ومن تلك الطُّرق:

الطُّرق القانونيّة؛ فالكيان الصّهيوني يُفصل القوانين العنصريّة بحُبثٍ ودهاءٍ؛ فهي تُصادر الأراضي الفلسطينيّة تنفيذاً لهذه القوانين الصّادرة عن المحاكم الإسرائيليّة؛ فالمحاكم داخل الكيان الصّهيوني تطبّق الظلم والجور على أبناء الشعب الفلسطيني، وسلطات الاحتلال تُقتل من يدافع عن أرضه بأوامر صادرة عن المحاكم الصّهيونيّة، ووصل تطبيق الجور إلى أبعد حدٍّ؛ فهدم البيوت الفلسطينيّة تُنفَّذ تطبيقاً للقوانين الصّادرة من المحاكم الصّهيونيّة؛ وذلك بهدف جعل الأرض خالية من البناء والسكّان تمهيداً للسيطرة عليها (2).

¹ - ينظر: صوّاف، باسمة سهيل، الرّواية الفلسطينيّة في الضّفة الغربيّة وقطاع غزّة بعد اتّفاقيّة أوسلو: دراسة موضوعيّة فنيّة (1993م -

2000م) (رسالة ماجستير)، ص 115.

² - ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 191-195، ص 81.

ووضّحت هذه الرواية أنّ الأرض في فلسطين تعادل الإنسان الفلسطيني ووجوده، وبدون هذه الأرض يَفْقِدُ الفلسطيني أهمّ مقومات البقاء.

وقد شحنَ الكاتب الأرض في هذه الرواية بكلّ الدلالات والإيحاءات الدافعة للتّمسك بها؛ فعندما يترك الفلسطيني أرضه فإنّه يعيش حياة الذلّ والمهانة⁽¹⁾.

وتطرّقت هذه الرواية إلى بعض القرى الفلسطينية التي مُحييت من الوجود، ومن تلك القرى قرية المسميّة، وأسماء هذه القرى شاهدة على وحشيّة الاحتلال؛ ولذلك فإنّ ذكر اسم قرية المسميّة من شأنه أن يقنع القارئ بواقعيّة الحدث الذي بُني عليه الخطاب في هذه الرواية⁽²⁾.

والكيان الصّهيوني لم يكتفِ بكلّ ما سبق من إجراءاتٍ ضدّ الوجود الفلسطيني، بل أصبح يُعامل الفلسطينيين كالحوانات؛ فالمعبر البرّي الذي يفصلُ بين قطاع غزّة ودولة الكيان الصّهيوني فيه بوابات كهربائيّة ذات أسنان وقُضبان كالتي تكون في ماكينات ننف الطّيور؛ بحيث يضطرّ المواطن الفلسطيني إلى عبور تلك البوابات ذوات الأسنان والقُضبان والأذرع بشكلٍ فردي؛ وعندها يشعر بنفسه كالدّجاجة الممعّوطة، وقد استمرّ الاحتلال في وضع هذه البوابات؛ فوضعها على جميع المعابر البريّة في قلنديا وعلى جسر أريحا الذي تُسمّيه معبر الكرامة.

وبقي هذا الاحتلال مُصمّماً على تحويل الشعب الفلسطيني إلى حيوانات؛ فإنّهم يُعرّون أفراد الشعب؛ ويتفرّجون على عوراتهم؛ فأتثناء زهاب امرأة حامل من قرى نابلس مع زوجها بسيارة الإسعاف إلى المستشفى أثناء انتفاضة الأقصى أوقفتهم دورية الاحتلال وقتلوا الزوج، وأجبروا المرأة على التعري بالكامل.

¹ - ينظر: قُطوسة، حسن ماجد، توظيف التاريخ في روايات أحمد رفيق عوض (رسالة ماجستير)، ص 90.

² - يُنظر: حطّيني، يوسف، مكوّنات السرد في الرواية الفلسطينية، ص 127.

ولم تكن هذه الحادثة حادثةً مُفَرِّدةً بل سياسةً مُمنهجةً؛ فقد عرّى جنود الاحتلال بعض الشباب في نابلس ورام الله والخليل، وأجبروا بعض المواطنين على التعرّي وممارسة الجنس مع البهائم، وأمّا إجبار الناس على البقاء في العراء تحت الشمس وتحت المطر؛ فهذا أصبح من الأمور المعتادة. ونتيجةً لمعاملة الفلسطينيين كالبهائم؛ فقد تعود الفلسطينيون الادّعاء أنّهم مرضى دائماً ليتمكنوا من عبور نقاط التفتيش المنتشرة في أرجاء الأراضي الفلسطينية.

وهكذا كان الكيان الصهيوني يسعى على الدوام إلى تحويل الفلسطينيين إلى بهائم بعد اتفاقية أوسلو، ومن ضمن تلك المخططات أن تعيش جماعتان في فلسطين تقوم الجماعة الأولى باستعباد الجماعة الأخرى ومُحاصرتها شريطة أن تقوم الجماعة الأولى بإطعام الجماعة الثانية، وهكذا يُعامل الكيان الصهيوني الفلسطينيين كالبهائم⁽¹⁾.

ولعلّ السبب الرئيس لكلّ ما يقوم به الاحتلال من إجراءات ضدّ الشعب الفلسطيني هو أنّهم سَكروا بخيلاء القوّة؛ ولذلك أصبح هذا الشعب المغلوب على أمره مكشوفاً أمام تلك الإجراءات والحواجز والدوريات⁽²⁾.

ومن الإجراءات الصهيونية البشعة التي اتخذتها حكومات الاحتلال المتعاقبة بحق الفلسطينيين سياسة هدم البيوت بشكلٍ مُمنهجٍ ومُتواصلٍ.

وعندما استشهد الشباب الأربعة من قرية قدرون المُنتمون إلى عددٍ من الأجنحة المسلّحة أثناء هجومهم على مُستوطنة عبرون هدم الكيان الصهيوني بيوتهم الأربعة، وفجأةً صارت عائلاتهم من دون منازل.

ولم تكن حادثة هدم بيوت الشبان الأربعة حادثةً مُفردةً، بل سياسةً مُمنهجةً بحق الفلسطينيين؛ فهناك جرافة تابعة للاحتلال كانت تهدم بيوت اللاجئين في مخيم جنين في نيسان من العام 2003م ردّاً على

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 81، ص158.

²- ينظر: عوض، أحمد رفيق، عن المحسوم والمقسوم، مشارف: مجلّة ثقافية تصدر في حيفا، ع 17، صيف 2002، ص 36.

بعض العمليات الفدائية التي قام بها بعض أهالي المخيم، وسائق تلك الجرّافة كان يهودياً أثيوبياً، وأثناء عمله في هدم البيوت كان سعيداً ومرحاً ويردّد أنغاماً شائعة، وكان يتلذّد بهرس الحيطان والأثاث وعظام الناس، وتحدّث إلى صحيفة صهيونية عن سعادته بهذا العمل⁽¹⁾.

ومن الطبيعي في ظلّ المعطيات التي أفرزتها سيطرة الكيان الصهيوني على الأراضي الفلسطينية أن تُسيطر على الاقتصاد الفلسطيني سيطرة تامّة؛ فالوضع الاقتصادي للصفّة الغربية يتحدّد في ضوء الاستراتيجيّة الصهيونيّة العامّة من خلال أهداف ثلاثة:

1. إبقاء الصفّة الغربيّة كياناً اقتصادياً تابعاً لحركة الاقتصاد الصهيوني.
2. أن تُصبح الصفّة الغربيّة امتداداً جغرافياً وبشرياً لخدمة الزراعة والصناعة والمهن الصهيونيّة.
3. أن تُصبح أسواق الصفّة الغربيّة سوقاً تجارياً للمنتجات الصهيونيّة إلى البلاد العربيّة⁽²⁾.

وهكذا جعل الكيان الصهيوني الأراضي الفلسطينية مزبلة للمنتجات الصهيونيّة كما تحدّث بذلك رواية بلاد البحر؛ فهو استخدم تلك الأراضي لدفن النفايات النوويّة والكيماويّة؛ وأنه استخدم أسواق الفلسطينيين لبيع منتجات الكيان الصهيوني الفاسدة؛ فهذا أحمد مسعود يأمر أبا الفداء بقراءة كتابه عن أسرار الدولة؛ فالكيان الصهيوني طوّر الصناعات الحربيّة التي تجاوزت فيها حدود الأسلحة التقليديّة إلى نطاق الأسلحة غير التقليديّة، وهذه الصناعات خلّفت النفايات النوويّة والكيماويّة، ولم يجد الكيان الصهيوني مكاناً لدفن هذه النفايات غير الأراضي الفلسطينية؛ فمرّة في الخليل، ومرّة في طولكرم، ومرّة في نابلس.

ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ؛ فالرواية نقلت أنّ الكيان الصهيوني استخدم الأسواق الفلسطينية للتخلّص من منتجاتها الفاسدة؛ فالدجاج الفاسد يُباع بأيدي فلسطينيّة داخل الأسواق الفلسطينية، وكذلك الحال مع المعلّبات والخضراوات الفاسدة والفواكه المعطوبة بالهرمونات و المبيدات الضارّة؛ فكلّ شيء

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 163-164، ص 166.

²- يُنظر: أبو إصبع، صالح خليل، فلسطين بين تحدّي الوجود وثقافة التحدّي، ص 72.

فاسدٍ داخل الكيان الصهيوني يُباع في الأسواق الفلسطينية، ووصل الحال درجةً خطيرةً بعرض الأغذية الفاسدة في معارض الأغذية في الأراضي الفلسطينية.

والكيان الصهيوني واصل سياسة منع الفلسطينيين من السفر بعد اتفاقية أوسلو؛ فهذا أحمد مسعود يقول لأبي الفداء بأنّ الكيان الصهيوني منع الفلسطينيين من السفر بعد قدوم السلطة الوطنية؛ فالمنع من السفر كان بسبب التشابه بين أسماء الفلسطينيين واسم أحد كوادر الثورة في لبنان؛ وبذلك منع الفلسطينيين من السفر بسبب خطأ صغير ارتكبته دولة ساهرة على أمنها⁽¹⁾.

ثانياً: الاستيطان:

وكان الاستيطان الصهيوني من أشدّ الأشياء المتخذة بحق الفلسطينيين؛ فهذه اليهودية اليمينية عدنة التي سكنت مع زوجها يوسي يونا في أراضي المسمية أكثر من الزنا مع الإشكناز (اليهود الغربيين)؛ ولذلك تفجرت فضيحة مدوية لها بعد أن تبين أن موران الابن غير الشرعي لها هو ابن الوزير المرموق في حزب العمل، وأن ابنها اللذين اختطفا لحظة وصولها البلاد هما شخصيتان بارزتان في الجهاز الأمني الصهيوني، فالتقطت الخبر الصحافة الصهيونية، ونشرته على أوسع نطاق؛ ولذلك استقال الأبناء الثلاثة من وظائفهم، وذهبوا للاستيطان في مستعمرة نائية تقوم على رأس جبل فوق بيت لحم⁽²⁾.

ويتضح أنّ رواية بلاد البحر توثق حقيقة واقعية عن الاستيطان؛ فهو أصبح حقيقة عملية في المناطق الفلسطينية بعد احتلالها، ووسيلة ناجعة لإقامة أرض الكيان الصهيوني الكاملة، الأمر الذي تجلّى في إقامة المستوطنات في مختلف أجزاء المناطق المحتلة، وساعدتهم في ذلك السماسرة الذين

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص185، ص173.

²- يُنظر: المصدر السابق، ص75 .76.

عَمِلُوا كَوَسْطَاءَ مِنْ أَجْلِ تَسْرِيبِ الْأَرْضِ إِلَى الْيَهُودِ عَنْ طَرِيقِ بَيْعِهَا تَارَةً، أَوْ اغْتِصَابِهَا بِالتَّحَايِلِ عَلَى أَصْحَابِهَا فِي أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ⁽¹⁾.

وصوّرت الرواية قضية الاستيطان عن طريق الحوار مع أحد المُستوطنين؛ فالاستيطان يَحْطَى بدعم الحكومة الإسرائيليّة المُطلق، وكما أنّ المُستوطن الإسرائيلي على الأغلب يُنكر حقوق الآخر كحال أيّ مُستعمرٍ في العالم.

طار أبو الفداء بأحمد مسعود إلى مُستوطنة بسجوت التي تقوم على جبل الطويل، وتُشرف على البيرة من جهة الشرق، ثمّ دخلا بعد ذلك بيت المُستوطن موتي سلبيرغ، وهو شابٌ في التاسعة والعشرين يعمل طبيباً في الوحدة العسكريّة المُتمركزة في تلك المُستوطنة.

وبعد حوارٍ طويلٍ دار بين هذا الطّبيب وأبي الفداء تظهر عدوانيّة موتي وعُنصريّته غير المُبرّرة، حيث يَصِفُ موتي العرب بأنهم فُساءة ومُتوحّشون؛ فيسأله أبو الفداء عن البيت الذي يسكنه من أين حصل عليه؟ ومن أين يحصل على الكهرباء والماء؟ فيجيبه موتي بأنّ ثلاثة أرباع هذا البيت هديّة من الحكومة الإسرائيليّة، والرّبع الباقي عبارة عن قرضٍ من البنك على شكل أقساطٍ مُيسّرة.

يقول له أبو الفداء بعد ذلك بأنّ بيته المحمي بالدّبابة يُشكّل خطراً وتهديداً على بيوت البيرة؛ ويصوّر الحوار مدى الكراهيّة الذي وصل إليه الآخر؛ فأبو الفداء يقول له: هل ترغب في تدمير رام الله والبيرة؟ فيردُّ عليه موتي:...ولكنّي للحقيقة لا أرغبُ في تدمير المدينة، بل أرغب فيها فارغةً من أهلها.

وتتشدّد وتيرة الحوار لتوضيح مدى الكُره العميق الذي يَحْمِلُهُ المُستوطن للفلسطينيين حتّى الطّبيب الذي يُفترض الرّحمة في قلبه يملأه الحقد والكُره والسّواد والعُنصريّة وعدم قُبوله للتعايش مع الآخر

¹- يُنظر: مزعل، غانم، الشّخصيّة العربيّة في الأدب العبري الحديث، ص 47.

الفلسطيني؛ فموتي يخاطب أبا الفداء بعد ذلك بقوله بأنه يُريد من الفلسطينيين الاختفاء عن وجهه، والرحيل من هنا، وترك هذه البلاد، والدّهاب للعيش في الصحراء⁽¹⁾.

وهذا المُستوطن(مُوتي) عندما يتمنى من جميع الفلسطينيين الرحيل عن هذه البلاد، وجعلها خاليةً وفارغةً من السّكان فإنّه يُترجمُ إرادة دولة الكيان الصّهيوني وأحلامها بجعل الأراضي الفلسطينيّة خالية من السّكان؛ لتكون قادرةً على استيعاب المزيد من المهاجرين؛ ولذلك اتّخذت كلّ الأساليب الكفيلة بتحقيق هذا الهدف من تدمير القرى، وتغيير معالم المناطق العربيّة، وغير ذلك⁽²⁾.

وأعتقد أنّ الكاتب الرّوائي أجاد الاتكاء على التّاريخ بمهارة؛ فقد دمج بين تاريخين مُميزين، التّاريخ الأوّل زمن(أبو)الفداء زمن الانتصارات الماضي، والتّاريخ الثّاني الزّمن الحاضر زمن الهزائم؛ فهو أحضر(أبو)الفداء الذي قام بتحرير عكا من الغزاة إلى الزّمن الحاضر ليقوم بالعودة النّاقصة إلى الأراضي الفلسطينيّة؛ وفي أثناء هذه العودة يتّضح الفرق بين عودته مُنتصراً في الزّمن الماضي، وطرده للغزاة، وعودته النّاقصة في الزّمن الحاضر؛ فهو عاد إلى إحدى المُستوطنات، وألقى بعض الضّوء على الدّعم الصّهيوني اللامحدود لقضيّة الاستيطان؛ وفي ذلك إشارة إلى سعي الكيان الصّهيوني لتهويد الأرض الفلسطينيّة بالكامل، وكما أنّ المُستوطنين يسعون لتهجير الفلسطينيين إلى الصحراء.

وشتان بين عودة (أبو) الفداء في الماضي، وعودته في الزّمن الحاضر! فهو عاد في الماضي ليطرد الغزاة من عكا؛ لتعود عربيّة إسلاميّة، وأمّا عودته في الزّمن الحاضر ليُشاهد فلسطين قد تهوّت، وأنّ المُستوطنين يسعون لتهويد الأرض وطردها أهلها منها.

¹- يُنظر: عدوان، سعد عودة، الشّخصيّة في أعمال أحمد رفيق عوض (رسالة ماجستير)، ص 148- 149.

²- يُنظر: أبو إصبع، صالح خليل، فلسطين بين تحدي الوجود وثقافة التّحدي، ص 45- 46.

ومن الملاحظ أنّ الكيان الصهيوني دعم الاستيطان بكلّ ما أُوتِيَ من قُوّة؛ فعندما كانت أياً جِهَةً استيطانية تُعْلَنُ بناء مستوطنةٍ عشوائيةٍ كان الكيان الصهيوني يُسارع إلى تزويدها بالماء والكهرباء والهاتف، ثمّ يشقّ شارعاً استيطانياً عريضاً لهذه المستوطنة.

وكان موران الابن غير الشرعي ليوسي يونا يحلم بتكثيف الاستيطان في الأراضي المحتلة؛ فاندفع موران بعد تركه الخدمة العسكرية لتنفيذ تلك الأحلام؛ فجاء على رأس مجموعة من الصهاينة الأمريكيين واحتلّ ثلّة الشؤمر التي تُطلّ على وادي العبر من جهة الغرب انتقاماً لمقتل إحدى المستوطنات، وبدأ الاستيطان على تلك الثلّة بوضع كارافانات هناك، ورفع موران على تلك الثلّة علم إسرائيل وعلم حرّكتة الاستيطانية، ثمّ تبعته كارافانات أخرى، وازدحم المكان بشبان وشابات ذوي جلود حمراء وشعور شقراء؛ فزود الكيان الصهيوني تلك المستوطنة بتيارات الماء والكهرباء والتلفون وشارع عريض شقّ على عجل.

اعتبر موران حلم حياته قد تحقق بتنفيذ هذه المستوطنة؛ ولذلك سمى هذه المستوطنة باسم والدته (عدنة) التي أُقيمت على أراضي بلدة قدرون، ولكنّ الحكومة الصهيونية رفضت هذا الاسم بعد مدّة قصيرة، وأطلقت عليها اسمها الرسمي عبهرون بعد الاعتراف بها مستوطنة شرعية⁽¹⁾.

واتّضح اهتمام الكيان الصهيوني المبالغ فيه بالاستيطان في الأراضي الفلسطينية؛ فكانت الحكومات المتعاقبة داخل الكيان الصهيوني تُسابقُ الوقت في بناء البيوت للمستوطنين، وكلّ بيت كانت حوله الحقائق الصغيرة ونوافير المياه، وكلّ ذلك جرى فعله في سنواتٍ قليلة؛ فهذا أحمد مسعود يتحدّث بأنّه انطلق من رام الله إلى قدرون ليشارك في مسيرة ضخمة نظمتها جهات سياسية ومدنية عدّة فلسطينية وصهيونية تؤمّن بالسلام والعيش المشترك، وعند وقوفه على طرف الوادي المُطلّ على وادي العبر فوجئ بمنازل المستوطنين تملأ الوادي، وتحيط بها حدائق صغيرة مزدهمة بأشجار الزيتون والتخيل

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 162-163.

الضخمة، ورأى نوافير المياه تضحّ مياهًا كاللؤلؤ، ورأى كذلك برك سباحة وملاعب وشوارع عريضة وأخرى ضيقة، وتساءل عن المدة التي حصل فيها كل ذلك؛ ولم يكن قد مضى على تأسيس تلك المستوطنة سوى عام ونصف⁽¹⁾.

والكيان الصهيوني لم يكتفِ بمصادرة الأراضي الفلسطينية التي أُقيمت عليها المستوطنات، بل إنّه صادر بعض الأراضي حول المستوطنات لتُقيم عليها الجدار العنصري لتوفير الحماية لتلك المستوطنة، ما أدى إلى عمل مظاهرات كثيرة ضدّ هذا الجدار، وبعض هذه المظاهرات اشترك فيها بعض الصهاينة والأجانب.

أهالي قدرون اشتركوا في مظاهرة ضدّ الجدار العنصري الذي أُقيم حول مستوطنة عبهرون؛ واشترك بعض الإسرائيليين والأجانب في تلك المظاهرة؛ فأخذ المتظاهرون بالهتاف ضدّ الجدار العنصري الذي يهدف إلى نزع قدرون عن محيطها من أجل حماية مستوطنة عبهرون التي لم يمضِ على إنشائها مدة عام ونصف فقط؛ فخطب في تلك المظاهرة أحد أعضاء الكنيسة اليهود بالإنكليزية أمام المتظاهرين حول عنصريّة الجدار وعدم أهمّيته الأمنيّة.

وهذه المستوطنات كان لها أثر سلبي على حياة الفلسطينيين، ومن ذلك جعل مجاري المستوطنات تنهمر على بيوت الفلسطينيين وأراضيهم الزراعيّة؛ فهذا أحمد مسعود فوجئ ذات مرّة بأنّ مجاري المستوطنين الذين يعيشون بالقرب منه بدأت بالانهيار على مجاري بيته، وعلى شجر القندول والسريس⁽²⁾.

ومن الطّبيعي أن يقوم الكيان الصهيوني بقمع كلّ تحرّك فلسطيني لمقاومة الاستيطان؛ فأهالي قدرون دافعوا عن ثلّة الشومر التي أُقيمت عليها مستوطنة عدنة؛ فواجهوا الجيش والمستوطنين الذين أطلقوا الرصاص عليهم؛ فقتلوا شابّين وجرحوا خمسين، ولمّا رفع المجلس البلدي شكوى إلى المحكمة

¹- ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 175.

²- ينظر: المصدر السابق، ص 176-177، ص 217.

العليا الصهيونية بخصوص مصادرة أرضهم أصدرت هذه المحكمة قرارها بالقول إن المصادرة شرعية؛ لأن ذلك من شأنه حماية السكان المحليين، ولا أحد من السكان المحليين يعرف بالضبط كيف يمكن أن تُصادر الأرض لضمان أمن السكان.

وهكذا فشل أهالي قدرون في استعادة أرضهم عن طريق محكمة العدل العليا؛ ولذلك قام عدد من شباب القرية المنتميين إلى عددٍ من الأجنحة المسلحة بالهجوم على مستوطنة عيرون؛ فتحصنوا في أحد الكارافانات بعد قتل ثلاثة مستوطنين، ثم اشتبكوا مع جنود الاحتلال وأفراد أمن المستوطنة لمدة ساعتين؛ فاستشهد جميع الشبان وعددهم أربعة (1).

صوّرت الرواية قضية الاستيطان، وموقف الكيان الصهيوني منها بكل صدق وموضوعية؛ فالاستيطان يُعدُّ الجوهر الذي قامَ عليه الكيان الصهيوني؛ فهو قامَ بإحلال شعبٍ تمَّ تجميعه من كلِّ أصقاع العالم مكان شعبٍ تمَّ تهجيرهم إلى بلادٍ كثيرة.

وحكومات الكيان الصهيوني المتعاقبة اعتبرت الاستيطان مسألة حياةٍ أو موت؛ ولذلك كانت تتنافس مع بعضها في تكثيف الاستيطان ومضاعفته.

وهذه الحكومات وضعت كلَّ الإمكانيات تحت تصرف المجالس التي تُدير المستوطنات؛ وذلك جعل المستوطنين ينعمون بتيارات الماء والكهرباء والهاتف والطرق الالتفافية التي تربط المستوطنات بكافة أنحاء الكيان الصهيوني.

ثالثاً: انتشار المظاهر الغربية داخل الأرض المحتلة:

إنَّ الوجود الجغرافي الفلسطيني لا يخضع في الوقت الحاضر للسيطرة الصهيونية العسكرية والسياسية فحسب، بل تمَّ تغليب الصبغة اليهودية عليه سكانيًا وحضاريًا وثقافيًا (2).

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 163-164.

² - ينظر: كناعنة، شريف، الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير، ص 40.

وظهر هذا في هذه رواية بلاد البحر؛ فأبو الفداء يُخبر بأنّ مولاه الملك الأشرف خليل بن قلاوون عندما عاد إلى عكا في الزمن الماضي أصرّ على غسلها بالدمّ، وتطهيرها بالنار، وجعلها خراباً إلى أبد الأبدين.

وهذا بعكس عودة أحمد مسعود مع أبي الفداء في الزمن الحالي إلى عكا؛ فعند عودتهم وجدوا المظاهر الغريبة التي لا تمّت للعرب بصلّة؛ فقد وجدوا اللافتات الضوئية الضخمة المكتوبة بالعبرية؛ ثم سقط أحمد مسعود على الشارع الرئيس الذاهب إلى كفر ياسيف؛ فرأى أضواء اللافتات الضوئية المكتوبة بالعبرية تتلوى على اللوحات الإلكترونية.

ووجد أبو الفداء أشخاصاً يشبهون الفرنجة، وهم رجال ونساء أشباه عرّاة، وكانوا يلعبون بكرة حمراء، وهناك رجال ونساء آخرون يسبحون بما لا يكاد يُغطّي سوءاتهم⁽¹⁾.

والرواية تُشير بشكلٍ واضحٍ إلى انتشار اللغة العبرية انتشاراً كبيراً في الأراضي المُحتلّة؛ فالصهيونية السّياسية قاتلت على جبهة اللغة قتالاً مريباً لتحويل الديانة اليهودية إلى علاقة قومية، وكان لأبداً من الاستتجاد باللغة العبرية كاحتمالٍ وحيدٍ لرابطة كانت مَفْقُودَةً في جميع المجالات⁽²⁾.

واعتمدت الرواية على التنوّع والاختلاف في الزّمان والمكان؛ فالرّواي أحمد مسعود يصفُ عكا بعد احتلالها من قبل اليهود؛ فهي تغيّرت للأسوأ؛ وذلك لأنّ المُحتلّ لا يُقدّر القُدسية التّاريخية للمكان، ويُريد أن يفرض واقعاً جديداً عمّا كان قائماً من قبل.

ونذكر مدينة عكا لم يكن ذكرها استثنائياً لأسماء المدن والقرى الفلسطينية في هذه الرواية، بل كانت دليلاً وأطلساً جغرافياً؛ فأسماء القرى والمُدن والبلدات الفلسطينية تُشكّل معلماً بارزاً في المشروع الرّوائي للكاتب؛ فالكاتب مُدرك للظرف التّاريخي الذي تمرُّ به فلسطين؛ ولذلك أورد الرّواي أحمد مسعود بأنّ

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 19-22، ص 24.

² - يُنظر: كنفاني، غسان، في الأدب الصّهيوني، ص 21.

قرية البروة كان يُسمِّيها الإفرنجي بزويث، وهناك قرى أخرى، مثل: البصة، والبعنة، والبقعة، وترزيخا، وترشيحا، وجت، ودير الأسد، ودير حنا، والدامون، والكرامة، والزيب، وغيرها.

وهكذا يُوثقُ الكاتب أسماءً كثيرة من أسماء القرى الفلسطينية التي اندثرت؛ فنسبية المكان مُتجدِّرة في المكان مُنذُ الأزل؛ ومُحاولة الآخر سرقةً المكان وتسميته باسم آخر باءت بالفشل.

وأبو الفداء يَعقدُ مُقارنة بينَ فرنجة الأمس وفرنجة اليوم (الاحتلال الصّهيوني) لتوضيح الصورة لأحمد مسعود عن فرض المظاهر الغربية على الأرض المُحتلّة؛ فيقول - بما معناه - إنّ الإفرنجي الذي حاربناه كان يتغطى بالدين، وأمّا الإفرنجي اليوم لا يُريدُ الأرض فقط؛ وإنّما يُريد أن يفرض علينا أسلوبَ حياته ومُعتقداته أيضاً؛ فهو يُريد احتلال الدّاخل وليس الخارج فقط⁽¹⁾.

تُبين الرواية حقيقةً واضحةً عن المكان بأنّ الأرض جوهر النّزاع، وهو في النّهاية الحُلم بالعودة؛ فالفلسطيني واحةً باستمرار المحاولات المتواصلة من قبل الاحتلال لطمس هوية المكان من خلال تغيير معالمه وإفراغه من تاريخه وأهله⁽²⁾، وهكذا الاحتلال كان يسعى دائماً لفرض الثقافة الغربية على الأرض والإنسان معاً.

وانتشرت مظاهر كثيرة للحياة الغربية في الأراضي المُحتلّة، والتي كانت بعيدة كلّ البعد عن نمط الحياة العربيّة؛ فقد انتشر اللواط داخل المجتمع الإسرائيلي حتى قيل إنّ أحد رؤساء هيئة الأركان عندهم كان لوطياً، وأمّا رئيس دولتهم فقد قال في خطاب عامّ له بأنّه يُفضّل للرجل أن لا يكون لوطياً؛ فقامت ضجّة كبرى في أوساط اليهود تُنددُ بأقواله؛ فما كان منه إلا أن اعتذر علناً عن ذلك⁽³⁾.

¹- يُنظر: قطوسة، حسن ماجد، توظيف التاريخ في روايات أحمد رفيق عوض (رسالة ماجستير)، ص 68-87، ص 45.

²- ينظر: خواجه، علي حسن، في استنطاق الرواية الفلسطينية المعاصرة، ص 63.

³- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 85-86.

ومن مظاهر التحوّل الثقافي والفكري الذي برز في المجتمع الفلسطيني بعد قيام السلطة الاهتمام بالمهرجانات الفنيّة، وقد كان ذلك مُتعدِّراً بسبب الاحتلال؛ فالفلسطيني وُضِعَ في زاوية تشابه الحياة في فلسطين مع أيّ دولة عربيّة؛ فالعائدون مُعتادون على حياة الطّرب والفنّ⁽¹⁾.

وأغرقت السلطة الوطنيّة الشعب الفلسطيني بالمهرجانات التي عمّت معظم مدن الضفّة والقطاع في القرى المجهولة والجامعات الكبرى والصغرى حتّى الأندية نظّمت المهرجانات؛ فكانت هناك مهرجانات للأحجار والتّمار والخضار والأدب والفنّ وغير ذلك من أشياء.

وكانت لهذه المهرجانات فائدة ماليّة كبيرة للمنظّمين الذين تدفّق المال بين أيديهم؛ فالمطرب العربي المشهور كان يحصل على مبلغ أربعين ألف دولار في ليلة واحدة، وكانت تُحيط به الفانتات ويمتّعهنّ من الخُروج من الفُنْدُق الذي ينزل فيه.

وهكذا التقطَ هذا المطرب أربعين ألف دولار من حفلة له في رام الله، ومثلها في طولكرم ومثلها في أريحا، وهكذا خرج من فلسطين بمئةٍ وعشرين ألف دولار، وصرّح بعد عودته من فلسطين أنّ زيارته لم تكن تصبّ في مصلحة التّطبيع، بل كان يهدف إلى دعم الاقتصاد الفلسطيني⁽²⁾.

رابعاً: تدهور الاقتصاد الفلسطيني:

كانت ظاهرة التّضخّم من الظواهر السلبية التي انتشرت منذُ قدوم السلطة الوطنيّة؛ ولذلك كَثُرَت القروض التي تُمنح للمواطنين، وهذه القروض كانت نسبة الفائدة فيها مُرتفعة نسبياً؛ فقد بلغت نسبة الفائدة التي تفرضها البنوك العاملة في الضفّة الغربيّة والقطاع على القروض الفرديّة 13%، ومن ثمّ خفّضتها إلى 9%.

¹ - ينظر: صوّاف، باسمه سهيل، الرّواية الفلسطينيّة في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة بعد اتفاقية أوسلو: دراسة موضوعيّة فنيّة (1993م -

2000م) (رسالة ماجستير)، ص 82.

² - ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 98-99.

وكانت الأسعار مرتفعة للغاية؛ فقد بلغ ثمن الشقة العادية التي تعرضها مؤسسات الإسكان العامة والخاصة مبلغاً يتجاوز أربعين ألف دولار؛ فإذا كانت بالتقسيط وهي كذلك دائماً للموظفين فعندئذ يصل ثمنها إلى مائة ألف دولار يقضي الموظف طوال عمره في تسديد ثمنها.

وتسجل الرواية تراجع أعداد المستثمرين من فلسطينيين ومغتربين وعرب آخرين عن الاستثمار في فلسطين؛ فالضرائب التي كانت على شكل شروط قانونية جعلتهم يرتعون من فكرة الاستثمار الحر؛ فلم يعد هناك استثمار سوى ذلك المرتبط بأجهزة السلطة من جهة أخرى؛ فالاستثمار لا يمكن أن يكون تحت ظل الاحتلال⁽¹⁾.

خامساً: انتشار ظاهرة الفساد:

الفساد للأسف الشديد عم مؤسسات السلطة الوطنية، وهذا الفساد سلوك منحرف مقرون بهدف مقبوت يتمثل في تغليب المصلحة الشخصية على حساب المصلحة العامة⁽²⁾.

ومن أبرز أنواع ذلك الفساد: الفساد الإداري والفساد الأخلاقي؛ فالفساد الإداري كان يؤدي في كثير من الحالات إلى إهدار المال العام.

ومن صور الفساد الإداري التي سجلتها الرواية أن المسؤول الفاسد يطالب موظفيه بعدم إتقان العمل بل إرضاء المسؤولين؛ فهذا أحمد مسعود طلب منه أحد رؤسائه الفاسدين، ويدعى قاسم أبو مروان ان لا يتقن عمله بل عليه أن يرضي المسؤولين عنه، وعليه أن يقوم بمهمته كما تقتضي الظروف والملابسات.

وللأسف الشديد لم يفهم أحمد مسعود ظروفه وملابساته؛ ولذلك فقد امتيازات موقعه في المؤسسة، وانزوى في مكان بعيد، وهناك موظف يدعى حفطي فهم الظروف والملابسات، وحافظ على امتيازاته؛

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 99.

²- ينظر: صواف، باسمه سهيل، الرواية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد اتفاقية أوسلو: دراسة موضوعية فنية (

1993م - 2000م) (رسالة ماجستير)، ص 138.

وذلك لأنه مُناقق ومَرِن وسلس وناعم ومُتزلّف، وهذا الشّخص مُستعدُّ أن يسحق نفسه أمام الآخرين من أجل أن يبقى في منصبه ويربح.

واتّضح في الرواية أنّ الكذب والنّفاق والتّملق كانت صفات مُلازمة للموظّفين الفلسطينيين الذين ترقّوا سريعاً؛ فإنّتان العمل والمهنيّة فيه لا تجعلان الموظّف يرتقي؛ فهذا حفطي كانت له زوجة ترتدي الرّيّ الشرعي قبل تعيينها في إحدى المؤسسات الفلسطينيّة؛ فلما وظّفها حفطي بالواسطة في المؤسسة التي يعمل بها خلعت الرّيّ الشرعي ولبست الرّيّ العصري؛ فلفت أنظار الجميع جسمها الجميل؛ ولذلك ترقّت سريعاً مع زوجها في هذه المؤسسة.

تسلّم حفطي بعد ذلك خطة الإصلاح في المؤسسة، وطلب منه أن يطبق الخطة؛ فعين زوجته مديرة في تلك المؤسسة، والتي لم يمض على تعيينها سوى عامين، وصار لها غرفة خاصّة. وتبيّن فيما بعد من خلال رواية بلاد البحر أنّ حفطي لا يحمل سوى دبلوم تجارة، وأن زوجته لم تحصل على شهادة الثانوية العامّة، وزعمت تلك المؤسسة أنّ سبب تعيين حفطي وزوجته في مناصبيهما انتماؤهما إلى عائلة مُناضلة قدّمت كثيراً من الشهداء والمُناضلين، وهذا كذب، ولا أساس له من الصّحّة⁽¹⁾.

والفساد والهزيمة ظاهرتان مُتلازمتان، وتظهران في ذات الوقت؛ وبما أنّ المُجتمع الفلسطيني في حالة هزيمة أمام الاحتلال الصّهيوني فلا بدّ أن يظهر عنده الفساد بأنواعه سواءً أكان إدارياً أم أخلاقياً⁽²⁾.

ومن حقّ بعض الكُتاب أن يتساءل عن النهج الذي اتبعته السُلطة الوطنيّة في توظيف هؤلاء المسؤولين، وليس في الشعب المُعتاد على الفساد؛ فالدكتور عبد الستار قاسم يقول — بما معناه —:

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 185-187.

² - ينظر: البوجي، محمّد بكر، صراع النّقاات في الرواية العربيّة في فلسطين، ص 366.

إنَّ أغلبيّة النَّاسِ فاسدون كُلَّ بطريقته الخاصّة؛ فعندما كانت الإدارة بيد الاحتلال كان كثيرٌ من النَّاسِ يبحثون عن جواسيس للاحتلال لِيُنْجِزُوا بعضَ مصالحهم؛ مِثْلَ الحصولِ على تصريحٍ أو وظيفة⁽¹⁾.

والفساد الإداري وُلِدَ فساداً مالياً تَشَكَّلَ في مُؤسَّسات السُّلطة الفِلسطينيَّة عند تأسيسها؛ فقام أبو مروان كان يترأس إحدى المُؤسَّسات الفِلسطينيَّة؛ ولذلك امتلكَ سيارَةَ فاخرة، واشترى شقَّة في حيِّ جميلٍ وهادئ، وصار يُسافر كثيراً على الرُّغم من أنَّه لا يُنقن حتَّى العربيَّة.

ومظاهر هذا الفساد استنقرتُ أحمد مسعود؛ فهو تحوّل إلى موظفٍ صغيرٍ على الرُّغم من كُلِّ الكفاءة التي يتمتع بها؛ فكتب كتابه (أسرار الدَّولة)، وتحدّث فيه عن كفيَّة انتهاء المشروع القومي إلى أحضان قاسم (أبو) مروان وحفظي وزوجته.

تضع الرّواية يدها على آفاتٍ وعيوبٍ سادت في المُؤسَّسات الفِلسطينيَّة بعد اتِّفافية أوسلو؛ وكان من أبرز هذه الآفات الفساد الإداري، والذي سبّب فساداً مالياً أهدر كثيراً من الأموال التي كانت كفيّة بحلِّ كثيرٍ من مشاكل المُجتمع الفِلسطيني.

وهذه الأموال كانت تذهب في جيوب بعض المسؤولين الذين خانوا أماناتهم، وارْتضوا على أنفسهم بتسخير المُؤسسة التي يعملون فيها لخدمة مصالحهم الضيِّقة.

وللأسفِ الأعداء يستفيدون من كُلِّ شيءٍ يتعلّق بالشَّعب الفِلسطيني حتَّى الفساد؛ فما أن صدر الكتاب حتَّى أخذه آخرون، وترجموه إلى لغاتٍ أجنبيَّة، وأعطوه خمسة آلاف دولار مُقابل هذا الكتاب؛ ولذلك اتَّهم أحمد مسعود بالجاسوسية وهدم المُجتمع⁽²⁾.

وانتشر الفساد المالي بِشكلٍ خطيرٍ للغاية، ووصل إلى أكثر القِطاعات حساسيَّة؛ فقد وصل إلى قِطاع الأجهزة الأمنيَّة، والتي صوّرها بعض الواهيمين أنَّها جيشٌ يملك قراراً، وتستطيع حماية شعبها؛

¹- يُنظر: صواف، باسمه سُهيل، الرّواية الفِلسطينيَّة في الضَّفة الغربيَّة وقِطاع غزّة بعد اتِّفافية أوسلو: دراسة موضوعيَّة فنيَّة (1993م -

2000م) (رسالة ماجستير)، ص 64.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 239-240.

فهذا عقيدٌ يعمل في الأمن الوطني في إحدى فُرَى منطقة جنين و طُولكرم تحوّل فجأةً إلى مالكٍ كبيرٍ للأراضي والعقارات، وعند سُؤاله عن مصدر هذه الأموال تحدّثَ بأنّ عائلته جمعت له أموالاً طائلة ليُحسّن أحواله، وشخصٌ آخر لا يقرأ العربيّة يُمنحُ درجة مُديرٍ عامٍّ لمُجرّد أنّه قريب أو نسيب لأحد المسؤولين (1).

وبعض المسؤولين جعل من دائرته الحكوميّة مؤسّسة لغسيل الأموال؛ وهم الذين شاركوا الصّهاينة في مشاريع كانت أصلاً لمصلحةٍ وطنيّة، وتحوّلت إلى مصلحةٍ خاصّة، وبعض المسؤولين ترأس مؤسّستين إحداهما حكوميّة، والأخرى غير حكوميّة (2)..

وممّا يُثير الأسى أنّ الدّعم الأوروبيّ والأمريكي كان موجّهاً لنشر الفساد في المجتمع الفلسطينيّ؛ فالأوروبيّ والأمريكي جاء مُحمّلاً بالأموال والخُطَط والرؤى لدعم السّلطة والمُجتمع، ولم تُظهِر هذه الدّول خُطَط إفساد المُجتمع عن طريق الديمقراطيّة والإباجيّة والليبراليّة، وهذه المنحُ كانت أشبه بالإغاثة اليوميّة لتُنسى الفلسطينيّين مُصادرة الأرض والمياه والقُبول بالاحتلال (3).

والدليل على ما تقدّم عندما اغتصبَ الجدارُ العُنصري أراضي بعض الأشخاص وزعّ المانحون عليهم تعويضاتٍ ماليّةً أشبه بالعيديّة؛ فالْمُسْتوطنون أخذوا قِمَمَ الجبال، والشّعب الفلسطينيّ تحوّل إلى الدّول المانحة لِتُعطيهِ وتُنسيهِ (4).

والسّلطة الوطنيّة تُوكّد بذلك حقيقةً ملموسةً في أنّها اعتمدتْ على مُساعدات الدّول المانحة في إقامة المشاريع الاقتصاديّة وبناء المؤسّسات الحكوميّة؛ ممّا جعلها عرضةً لاعتمادِ سياساتٍ وتوجّهاتٍ

¹ - ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 233 - 238.

² - ينظر: المصدر السابق، ص 222-231.

³ - ينظر: المصدر السابق، ص 242-245.

⁴ - يُنظر: المصدر السابق، ص 241.

ومفاهيم قد تتعارض مع الأولويات الوطنية، سواء على الصعيد الاقتصادي، أو السياسي، أو الاجتماعي⁽¹⁾.

ومن سنن الله في هذه الأرض المباركة أنه لا بُدَّ للفساد أن ينكشف طالَ الزمنُ أم قصر؛ فقد دوت فضيحةٌ مدوية في المؤسسة التي يترأسها قاسم (أبو) مروان؛ حيث كشفت هيئة الرقابة والتفتيش أن قاسم (أبو) مروان يُعطي رواتب لزوجات أَعوانه في المؤسسة؛ وذلك دون أن يحملن مؤهلات أولاً، ودون أن يأتين إلى العمل تأنياً، ودون الحاجة إليهن في الدائرة ثالثاً.

وكل ذلك كان في سبيل إرضاء الأعوان ومساعدتهم، وتوقع أحمد مسعود أن يجري الأسوأ بحق قاسم (أبو) مروان، ولكنه فوجئ بأن الأمر سويّ بدون أن يتزحزح قاسم (أبو) مروان من مكانه، ولم يُقدم لمحاكمة ولم يُقطع راتبه، والأشدّ غرابةً أن زوجات الأعوان لم يُطردن من وظائفهن الوهمية.

أحمد مسعود سأل ذات مرة عن أسماء المتورطين في إحدى عمليات الفساد؛ فعرف أنهم فاسدون وليسوا عملاء؛ فما كان من أحمد إلا أن شتم قاسم (أبو) مروان في وجهه جهاراً نهاراً أمام كل الموظفين والموظفات؛ فقدمه قاسم (أبو) مروان إلى محاكمة إدارية ترأسها حفطي وزوجته وشخص آخر من النوع المحو الذي لا شخصية له، وإنما هو مجرد اسم وكنية، وهذه المحاكمة قررت قطع راتب أحمد مسعود شهرين متتابعين ونقله إلى مؤسسة أخرى⁽²⁾.

وبالإضافة إلى انتشار الفساد الإداري انتشرت مظاهر كثيرة للفساد الأخلاقي في المجتمع الفلسطيني بعد قدوم السلطة الوطنية، ومن ذلك الانحلال الأخلاقي واستفحال العشائرية؛ فهذا زميل أحمد مسعود اكتشف زنا زوجته مع زميل آخر له؛ فاشتكك لإخوتها الثلاثة؛ فثاروا وجمعوا أنصارهم الذين كانوا محملين بالمسدسات والعصي، وطلبوا من هذا الزوج أن يسكت وأن يعض على حذاء؛ فأكد لهم هذا

¹ - ينظر: صواف، باسمه سهيل، الرواية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد اتفاقية أوسلو: دراسة موضوعية فنية (1993م -

2000م) (رسالة ماجستير)، ص 71.

² - ينظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 247-248.

الرَّوَجَ أَنْ أُخْتَمَ زَانِيَةً وَكَاذِبَةً؛ فَسَحَبُوا الْمُسَدَّاتَ فِي وَجْهِهِ وَهَدَّوهُ بِأَتَمِّهِمْ عَلَى اسْتِعْدَادِ إِعْلَانِهِ شَهِيداً، وَأَنَّ الْمَطْبَعَةَ جَاهِزَةٌ لِإِصْدَارِ تِلْكَ الشَّهَادَةِ، وَهَذِهِ الرَّوْجَةُ كَانَتْ مُنْحَلَّةً أَخْلَاقِيًّا إِلَى أْبْعَدِ الْحُدُودِ، فَقَدْ تَزَوَّجَتْ مِنْ رَجُلٍ غَيْرِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَتْ عَلَى عِلَاقَةٍ مَعَهُ بَعْدَ طَلَاقِهَا.

وَبِالْيَتِ الْأَمْرَ تَوَقَّفَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ بَلْ تَعَدَّاهُ إِلَى مُحَاوَلَةِ هَذِهِ الرَّوْجَةَ قَلْبَ الْحَقَائِقِ؛ فَقَدْ أَشَاعَتْ أَنَّ سَبَبَ طَلَاقِهَا ضَعْفُ زَوْجِهَا الْجِنْسِيِّ فِي آخِرِ أَيَّامِ حَيَاتِهَا مَعَهُ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الرَّوْجَةُ تَتَفَجَّرُ الْأَثْوَةَ مِنْهَا، وَيَتَصَاعَدُ مِنْهَا عَطْرُ الْجِنْسِ وَالْوَقَاحَةُ، وَكَانَتْ تَحْمَلُ ثَلَاثَةَ هَوَاتِفٍ مَحْمُولَةٍ وَمِفَاتِيحٍ كَثِيرَةٍ مَرْبُوطَةٍ إِلَى حِزَامِ جِلْدِي آخِرِهِ ذَيْلٌ لِحَيَوَانٍ.

وَهَكَذَا صَوَّرَتْ رِوَايَةَ بِلَادِ الْبَحْرِ هَذِهِ الرَّوْجَةَ عَلَى أَنَّهَا مِثَالُ حَيٍّ عَلَى فِسَادِ بَعْضِ نِسَاءِ الْمُجْتَمَعِ؛ فَهِيَ تُقِيمُ الْعِلَاقَاتِ غَيْرَ الْمَشْرُوعَةِ مَعَ الرَّجَالِ، وَتَلْبَسُ لِيَاساً فَاضِحاً يُغْرِي الْآخِرِينَ بِالْفِسَادِ.

وَلِلْأَسْفِ كَانَ الْفَاسِدُونَ يَنْقَدِّمُونَ سَرِيعاً فِي أَعْمَالِهِمْ بَعْدَ اتِّفَاقِيَّةِ أَوْسَلُو؛ فَهَذِهِ الرَّوْجَةُ الزَّانِيَةُ تَقَدَّمَتْ فِي عَمَلِهَا سَرِيعاً؛ فَأَسَّسَتْ شَرِكَةَ إِنتَاجِ تَلْفِزِيُونِي، وَتَحَوَّلَتْ إِلَى شَخْصِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ يُنَادِيهَا الْجَمِيعُ بِالْمَدَامِ، وَكَانَ لَهَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ حَوْلَ السَّلَامِ وَالْحَرْبِ وَالِاسْتِثْمَارِ وَالْعِلَاقَةِ مَعَ الْآخَرِ؛ فَالِاحْتِلَالُ لَمْ يَعْذُ احْتِلَالاً فِي نَظَرِهَا بَلْ آخِرُ يَنْبَغِي الْعَيْشَ مَعَهُ (1).

وَأَلَا حَظَّ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الرَّوَّائِي قَدْ تَكَرَّسَتْ لَدَيْهِ نَظْرَةٌ سَوْدَاوِيَّةٌ عَنِ الْمَرَأَةِ، وَفِي الْمِثَالِ السَّابِقِ عَنِ الرَّوْجَةِ الْمُنْحَلَّةِ تَكْرِيسٌ لِهَذِهِ الصُّورَةِ، وَهَذَا نَاتِجٌ عَنِ فِشْلِ الرَّوَّائِي فِي حُبِّهِ الْوَحِيدِ فِي حَيَاتِهِ.

وَكَثُرَ الْفِسَادُ الْأَخْلَاقِي فِي الْمُجْتَمَعِ الْفِلَسْطِينِيِّ بَعْدَ اتِّفَاقِيَّةِ أَوْسَلُو؛ فَهَذَا أَحْمَدُ مَسْعُودٌ كَانَ يَعْمَلُ مُدْرِساً لِللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ عِنْدَ السَّيِّدَةِ فَرِيَالِ، وَالَّتِي كَانَتْ مُدِيرَةً مَعْمَدٍ صَغِيرٍ لِتَعْلِيمِ اللُّغَاتِ.

وَبَعْدَ مَجِيءِ السَّلْطَةِ الْوَطْنِيَّةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ النَّقْيِ أَحْمَدُ بِهَا فِي أَرِيحَا، وَكَانَتْ تَتَعَلَّقُ بِذِرَاعِ شَابِّ أَسْمَرَ طَوِيلٍ؛ فَعَرَفْتُهُ عَلَى أَحْمَدِ مَسْعُودٍ، وَقَالَتْ عَنْهُ بِأَنَّهُ كَاتِبٌ وَمُتَقَفٌّ.

¹ - يُنْظَرُ: عَوْضٌ، أَحْمَدُ رَفِيقٌ، بِلَادِ الْبَحْرِ، ص 108 - 111.

ساهمت السلطة الوطنية في استنفال ظاهرة العشائرية؛ وذلك لأنها اعتمدت على العشائرية والحمائلية في تثبيت أركانها؛ وهذا بالتالي كان له تأثير كبير في زعزعة الروابط الاجتماعية وما ترتب عليها من تضعف مكانة الطبقة الوسطى فاعليتها؛ ولذلك أصبح المجتمع يتربح بين قيم وأخلاقيات النفعية الجديدة من جهة، والمحافظة التقليدية من جهة أخرى، وأدى ذلك إلى غياب كثير من القيم التي كانت سائدة، وإحلال القيم الذاتية والنفعية (1).

تساءل أحمد عن شخصية هذا الرجل؛ فأجابت بأنها نسيته اسمه؛ فقال هذا الرجل بأن اسمه الملازم محمود، ثم أخذته السيدة فريال، وغابت في الزحام.

يسكن أحمد بعد عشر سنين في عمارة ما في أحياء رام الله الجنوبية؛ فكان يكرن لجارته أم فتحي كل الاحترام، ثم اقتحمت ذات يوم العمارة بعض الأجهزة الأمنية، واعتقلت فريال وأم فتحي بتهمة الدعارة؛ فأمام فتحي كانت مُحترفة في إدارة الأعمال المنافية للأخلاق؛ وأفرج عن هاتين السيدتين بعد إحدى الاجتياحات الصهيونية لمدينة رام الله (2).

سادساً: التصرفات والمشاعر السلبية:

بالغت رواية بلاد البحر في تسجيل بعض التصرفات السلبية للشعب الفلسطيني، ولعل من أهم تلك التصرفات طاعة المحتل والعمل لخدمته؛ وذلك بهدف البقاء في هذه الأرض؛ فهذا أبو الفداء يقول لأحمد مسعود بأن حُب الفلسطينيين لديارهم عجيب حتى ابن جبير الرحالة المشهور سجل ذلك عن انطباعاته عن أهل فلسطين؛ فهم يعملون في ضياع الفرنجة وقلاعهم؛ وذلك نظراً لحُبهم البقاء في أراضيهم المحتلة.

¹ - يُنظر: صواف، باسمه سهيل صالح، الزوايا الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد اتفاقية أوسلو: دراسة موضوعية فنية (1993م

- 2000م) (رسالة ماجستير)، ص 58.

² - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 155.

ويُرَدُّ عليه أحمد مسعود عند ذلك بأنهم يعملون اليوم في مُستعمرات المُحتلِّين؛ فَقَدَ بَنَوْا كَثِيرًا مِّنَ المُستوطنات، مثل أريئيل ومَعَالِيهِ أُدُومِيمَ وغيرها، وكما أَنَّهُم شاركوا أَيضًا فِي بِنَاءِ جِدَارِ الفِصْلِ العُنْصُرِيِّ، مع أَنَّ أَبْنَاءَ هَؤُلاءِ هُمُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ الاِحتِلالَ وَيَسْتَشْهَدُونَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ⁽¹⁾.

ولعلَّ التَّبَرِيرَ لِعَمَلِ الفِلسطِينِيِّينَ فِي بِنَاءِ المُستعمرات وَجِدَارِ الفِصْلِ العُنْصُرِيِّ هُوَ حُبُّهُمُ البَقَاءَ فِي الأَرْضِ المُحتلَّة؛ فالاحتلالُ صَنَعَ واقِعًا مَعِيشِيًّا صَعِبًا لِلغَايَةِ عَن طَرِيقِ سِيطرَتِهِ عَلى جَمِيعِ مَوارِدِ الفِلسطِينِيِّينَ؛ فلم يَتَبَقَّ لَدَى الشَّعبِ مِن أَجْلِ الحِياةِ سِوَى العَمَلِ الاِضطراريِّ داخِلَ المُستعمرات.

وَكانَ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ أَيضًا إِهْمالُ المِصالِحِ العامَّةِ، وَأَنهَمَاكَ كُلِّ فَرْدٍ فِي المُجْتَمَعِ بِمِصالِحِهِ الخاصَّةِ؛ ففِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ يَدُورُ حِوَارٌ بَيْنَ المَلِكِ الأَشْرَفِ وَكانَ سِرَّهُ عِبدُ الظَّاهِرِ حِوَالِ السُّلطانِ قِلاوونَ (والدَّ المَلِكِ الأَشْرَفِ) الَّذِي حالَفَ الفِرَنْجِيَّةَ وَهَادَنَهُم لِيَضْرِبَ بَعْضُهُم بَعْضًا؛ وَذلكَ نَتِيجَةٌ لِلنَّصِيحَةِ الَّتِي قَدَّمَهَا لَهُ حِزْبُ المِصانِعَةِ (وَهُم تِجارٌ كانُوا يُحِيطُونَ بِالسُّلطانِ)، وَالَّذِينَ أَرادُوا لِلْفِرَنْجِيَّةِ البَقَاءَ عَلى سِوِاحِلِ الشَّامِ مِن أَجْلِ الحُصُولِ عَلى الأَرباحِ المَالِيَّةِ وَالْمُكُوسِ وَالضَّرائِبِ الَّتِي تَجِبِي مِنَ التِّجَارَةِ مَعَهُم.

وَفي ذلكَ إِشارةٌ واضِحَةٌ إِلى وَجودِ أمثالِ هَؤُلاءِ فِي الزَّمانِ الحالِيِّ؛ فَهَناكَ بَعْضُ التِّجارِ القَرِيبِينَ مِنَ بَعْضِ المَسْؤُولِينَ الفِلسطِينِيِّينَ يَسْعُونَ لِبَقائِهِمُ الاِحتِلالَ الصَّهْيُونِيِّ فِي سِلامٍ؛ وَذلكَ لِضمانِ بَقائِهِمُ الأَرباحِ الَّتِي يَجْنُونُها مِنَ التِّجَارَةِ مَعَهُم⁽²⁾.

وَأَعْتَقَدُ أَنَّ الكاتِبَ كانَ مَوقِفًا فِي الاِتكِاءِ عَلى المَناحِ التَّارِخِيَّةِ لِإِبرازِ الصُّورِ المُتَشابِهةِ وَالْمُتَقاطِعةِ بَيْنَ الزَّمانِ المَاضِيِّ، وَالزَّمانِ الحاضِرِ.

وَبالإِضافةِ إِلى ما تَقَدَّمَ كانَتِ هَناكَ ظاهِرَةٌ الانفِصامِ فِي الشَّخْصِيَّةِ، وَكانَتُها مِمَّا مِنَ التَّصَرُّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ الَّتِي اتَّصَفَ بِها المُجْتَمَعُ الفِلسطِينِيُّ بَعْدَ اتِّفاقِيَّةِ أُوسلو، وَكانَتِ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ واضِحَةً لَدَى السُّلطةِ

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 66 - 67.

²- يُنظر: المصدر السابق، ص 41 - 42.

الوطنية؛ فهي تتبنى الموقف ونقيضه في الوقت نفسه نتيجة المأزق الذي أوقعته بها اتفاقية أوسلو؛ فمن جهة هي مُرتبطة بمواثيق دولية وثنائية مع دولة الاحتلال؛ والتي تُحدّد مهمّاتها ووظائفها التي تمنعها من دعم الانتفاضة الشعبانية أو المسلحة؛ ومن جهةٍ أخرى لا يُمكنها أن تقفَ أمام طُموحات شعبها ولا وسائله في التعبير عن تلك الطُموحات باعتبار أنّ تلك السُلطة تُمثّل ذلك الشعب؛ ولذلك قامت السُلطة بتسوياتٍ وخطابٍ مُضطرب وتباين حقيقي في وجهات النظر ومعالجة الأمور؛ ونتيجةً لذلك تنازعت السُلطة وفصائلها شرعية التمثيل، واتخاذ القرار، ولم يعد للسُلطة من هبةٍ سوى الرموز ودفع الرواتب.

وهذا الانقسام في الشخصية لدى السُلطة ساعد على انتشار كثيرٍ من القيم السلبية لدى المجتمع الفلسطيني بعد قدوم السُلطة الوطنية؛ فالكذب والنفاق والانتهازية والخداع تصرفات سلبية اتصف بها كثيرٌ من الفلسطينيين لتحقيق المصالح الخاصة لهم.

ومن أبرز الذين اتصفوا بتلك الصفات الأستاذ فلاح الذي كان يُغيّر مواقفه سريعاً لجني الأرباح، وهو على الدوام يدّعي الحقيقة والواقعية، ويُكرّر على الآخرين مواقفهم، وقد ألف عدداً من الكتب، وكان آخرها كتاباً تمّدهُ الانفتاح وتقبل الآخر وترفض التعصّب والنظرّف، ودعا في الآونة الأخيرة إلى استبعاد النصوص القرآنية التي يُساء فهمها؛ فالتصّ يُفسّر حسب تاريخيته.

والأستاذ فلاح كانت له أقوال ماثورة؛ فقد صرّح ذات مرّة بأنّ على كلّ جماعةٍ بشرية أن تطوّر سلوكها حسب مصالحها وحسب لحظتها التاريخية بدون الماضي وعقده وأوهامه، وأجاب عند سؤاله عن الحرب مع الكيان الصهيوني بأنّ الأفضل أن نتحوّل إلى واقعيين، وأنّ نتعايش معها؛ فالكيان الصهيوني أقوى من كلّ الدول العربية مُجتمعة.

هذا الأستاذ بليغ لدرجة شعور السّامع لكلامه أنّ ما يتلفظ به هو قطع من الشّيكولاته الشّهية، وطريقته في الكلام تُجبر الآخرين على الاستماع، وتظهر في التأتأة كأنّها مقطع من مَلعبة أنثى في لحظةٍ حميمية (1).

وانتشرت أيضاً المشاعر السّلبية في المُجتمع الفلسطيني؛ فقد انتشرت مشاعر البؤس لدى الفلسطينيين؛ فالكيان الصّهيوني اتّبع سياسةً مُنهجاً عند احتلالها للمناطق الفلسطينية؛ فهي تهتمّ بشكلٍ مُبالغ فيه بالأحياء اليهودية، وفي الوقت نفسه تُهمل الأحياء العربية، التي أصبحت في حالةٍ مُزرية.

طار أبو الفداء مع أحمد مسعود فوق عكا؛ فكانت المدينة القديمة تتداعى بالأرقة الضيقة والبيوت الحجرية التي يتكئ بعضها على بعض، وكانت مُهملةً ومتركةً بالجدران المُهارة، وأسلاك الكهرباء والهاتف وأنابيب المياه والمجاري الظاهرة، وفي الزوايا المُهملة يتجمّع بعض شباب عكا الفلسطينيين، وهم يدخنون الحشيش أو يشربون مع عاهرةٍ روسيةٍ من القادمين الجدد؛ فالهزائم صنّعت بهؤلاء الفلسطينيين في عكا كلّ هذا الإهمال والبؤس (2).

ومنّ المشاعر السّلبية أيضاً مشاعر التخاذل وعدم الاكتراث بما ستؤول إليه الأوطان؛ فقد نقلت رواية بلاد البحر مشاهد تاريخيةً مُشابهة لواقع الفلسطينيين الحالي؛ فكما أنّ الاحتلال الصّهيوني مُصمّم على أخذ جميع الأراضي الفلسطينية وطرد جميع أهلها منها ليتسنى للمستوطنين السّكن بها بطمأنينةٍ واستقرار؛ فكذلك كان الملك الأشرف يُحاصر عكا، وصمّم على استعادتها كاملة، وطرد جميع من فيها من الصّليبيين، وكما أنّ جميع الدّول الإسلامية قد تخلّت عن مسؤولياتها تجاه تحرير فلسطين والحفاظ عليها؛ فكذلك تخلّت جميع الدّول الأوروبية المسيحية عن مسؤولياتها في دعم صمود الصّليبيين المُحاصرين في عكا من قِبَل الملك الأشرف، وتخلّت عن دورها في الحفاظ على بقاء عكا

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 157 - 158، ص 211 - 213.

²- يُنظر: المصدر السابق، ص 56 - 58.

في أيدي الصليبيين، وكما أن الفصائل الفلسطينية في معظمها تخلت عن الهدف الذي تأسست من أجله ألا وهو العمل على تحرير فلسطين؛ فكذلك تخلت الفرق الصليبية المسلحة عن الهدف الذي تشكلت من أجله ألا وهو الحفاظ على عكا مدينة صليبية؛ فالفصائل الفلسطينية كالفرق الصليبية تحولت كليهما إلى جمعيات تجمع المال، وتوزعه على أفرادها.

وظهر هذا أثناء حصار عكا من قبل الملك الأشرف؛ فالمدينة كانت بحاجة إلى مساعدة الدول الأوروبية للصمود في وجه هذا الملك؛ ولكن هذه الدول تخلت عن تلك المساعدة؛ والذي تطوع للمساعدة الملك هنري ملك قبرص المريض، وقدم معه مئة فارس وألفي راجل فقط؛ وعند وصوله عكا خطب في جمهور المقاتلين المحاصرين خطبة قوية تحثهم على الصمود والقتال حتى آخر قطرة دم حفاظاً على عكا التي قدم الصليبيين من أجلها كل شيء على مدار مئة عام، وبشرهم بقرب وصول الحملات الصليبية لنجدتهم، ولكن هذا الملك كان لا يقول الحقيقة؛ فالدول الأوروبية تخلت عن مساعدة هذه المدينة المحاصرة، ولم تقدم حتى الوعد بالمساعدة، وفاقت أمور الصليبيين السيئة كل الحدود؛ فالفرق الصليبية المسلحة تخلت عن دورها، وأصبحت تتنافس في جمع المال لتقوم بتوزيعه على أفرادها.

وأمام هذا الواقع الصعب تشاور الملك هنري مع الأساقفة وأهل العقد والحل في عكا؛ فأشاروا عليه بضرورة التفاوض مع الملك الأشرف، وتقديم التنازلات الكثيرة له حتى يقتنع بالعودة منتصراً؛ وذلك في سبيل الحفاظ على بقاء عكا في أيدي الصليبيين⁽¹⁾.

أخلص إلى أن العودة الناقصة في رواية بلاد البحر تتمثل في تجسيد شخصية (أبو) الفداء التاريخية التي طردت الصليبيين من عكا في الزمن الماضي؛ لتعود عودة ناقصة إلى أراضي فلسطين التاريخية.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 135-143.

وتظهر المفارقة خلال هذه العودة بين العودة إلى عكّ زمن الانتصارات الماضي، والعودة الحاليّة الناقصة إلى فلسطين؛ ففي الماضي عاد (أبو) الفداء لتحرير عكّا وطرد الصليبيين، أمّا في الزمن الحاضر عاد إلى فلسطين ليُشاهد تهويد فلسطين، وإصرار المُستوطنين على طرد الفلِسطينيين بِكُلِّ الطَّرق المُمكنة.

ويُشاهد (أبو) الفداء خلال عودته الناقصة صور سلبية كثيرة، منها: انتشار الفساد الأخلاقي والإداري والمالي، وتدهور الاقتصاد الفلسطيني الذي أصبح تابعاً للاقتصاد الصهيوني، والمشاعر السلبية والتصرّفات من إنهماك كلّ فردٍ بمصالحه والبؤس والتخاذل، والاستيطان. انتهى بهذا الفصل الأوّل، وسيأتي الفصل الثّاني الذي سيتولّى المقارنة بين صور العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض من حيث العنوان الرّوائي، والاختلاف، والتشابه.

الفصل الثاني: مقارنة صور العودة الناقصة للأراضي الفلسطينية قبل اتفاقية أوسلو،

وبين ما بعدها في روايات أحمد رفيق عوض:

المبحث الأول: العنوان الروائي.

المبحث الثاني: أوجه التشابه بين صور العودة الناقصة في الروايات.

المبحث الثالث: مظاهر التباين بين صور العودة الناقصة في الروايات

المبحث الأول: العنُون الروائي:

العنوان الروائي:

تطرق القدماء إلى أهمية العنوان في أي صنف من الكتابة؛ فهذا ابن أبي الإصبع المصري في كتابه (تحرير التّجبير) الذي أفرد للعنوان باباً، وكان من ضمن الذي قاله فيه: (هو أن يأخذ المتكلم من وصف، أو فخر، أو مدح، أو هجاء، أو عتاب، أو غير ذلك، ثم يأتي لقصد تكميله بألفاظ تكون عنواناً لأخبار متقدمة وقصص سالفة...) (1).

وهذا الحديث لابن أبي الإصبع يُقرّر به حقيقة موضوعية عن العنوان؛ فعنوان الكتاب يجمع مضمون الكتاب ومقاصده بعبارة وجيزة في أوله.

ولإعطاء العنوان الروائي حقه لا بد أن نُعرّج على عددٍ من المفاصل، وهذه المفاصل هي:

أولاً: أهمية العنوان الروائي، وعلاقته بالنص:

يعدّ عنوان العمل الأدبي مدخلاً دلاليّاً، وعلامة لغوية من الدرجة الأولى ليستدلّ من خلاله القارئ في أغلب الأحوال على هوية النصّ الأدبية، ويحدّد نوعه الأدبي.

وكذلك العنوان الروائي يُعدّ مفتاحاً أساسياً يتسلّح به المُحلّل للدخول إلى أغوار النصّ العميقة قصد تأويلها، ويستطيع العنوان أن يُفكّك النصّ من أجل تركيبه.

ولمكانة العنوان المرموقة اتّجهت الروايات الفلسطينية إلى الانتباه إلى أهمية التّرابط الكائن بين هذه

العناوين ومضامين نصوصها.

¹ - بلعابد، عبد الحق، فتوحات روائية، ص 46.

وكان العنوان الروائي في الروايات الفلسطينية مُهمًا بعد اتّفاقيّة أوسلو، وذلك لما أعقب تلك الاتّفاقيّة من قلبٍ للمفاهيم والقيم، والوعي القومي، والوعي الوطني؛ فكان الانقلاب نحو ثقافة العولمة، وبخاصّة عولمة الثقافة⁽¹⁾.

وتمنح الدّراسات الأدبيّة الحديثة العنوان قيمةً كبيرةً؛ وذلك لما له من أهميّة في إشاعة جوّ نفسي لدى المُتلقي؛ فكما قد تشير الآيات المنقوشة أو المنذنة على باب المسجد إلى أنّ ذلك البناء مكان عبادة للمسلمين، وكما يُمثّل الصّليب على باب الكنيسة؛ أو أحد المباني إشارة إلى أنّ هذا البناء يخصّ المسيحيين؛ فكذلك يدلّ العنوان على هويّة النّصّ الأدبيّ وجنّسه، بوصفه تذكرة الدّخول الأولى التي تقع العين عليها، وتجنّس النّفس بها.

ويُعدّ العنوان مفتاحًا أساسيًا يتسلّح به المُحلّل للدّخول إلى أعماق النّصّ، وقد يتكوّن العنوان من : عنوان رئيس، وعناوين فرعيّة؛ فالعنوان الرئيس يقوم بمهمّة تسمية الرواية، والذي يعمل أيضًا على تعيين النّصّ الروائي⁽²⁾.

والعنوان الروائي يُمثّل عتبةً للكتابة، وهذا يُعدّ مفصلًا نقديًا بالغ الأهميّة في الدّراسات النقديّة الحديثة، ولاسيّما بعد ظهور كتاب جرار جينيت (عتبات) عام 1987 م.

والعنوان يكون مُكتفيًا بذاته، ومُنفتحًا لتأويل القارئ الذي يُؤوّل العنوان تأويلاتٍ عدّة مختلفة؛ وذلك بدافع الفضول لدى كثيرٍ من القُراء⁽³⁾.

وليس العنوان الرئيس للرواية مُهمًا فقط، بل إنّ العناوين الداخليّة تحتلّ أهميّة كبيرة؛ فهي تُعتبر عتبات شخصية تعود مباشرة إلى الكاتب دون سواه ممّا يُكسبها - من هذه النّاحية - صيغة تعبيرية

¹ - يُنظر: خواجه، علي حسن، في استنطاق الرواية الفلسطينية المعاصرة، ص 27، ص 37، ص 21-22، ص 9-10.

² - يُنظر: المرجع السابق، ص 21، ص 23.

³ - يُنظر: عبيد، مُحمد صابر، المُغامرة الجماليّة للنّصّ الروائي، ص 129، ص 70.

رسمية خاصة لا تتوافر في العتبات الغيرية، كمقدمة الناشر مثلاً، ولهذا كان للعناوين الداخلية قيمة تواصلية حقيقية، وهي التي تربط الكاتب بالقارئ.

وهذه العناوين الفرعية لها ما يبررها؛ فهي تُجبرُ الكاتب على تفسيح عمله إلى مقاطع، وفي المقابل تمنحه حرية مطلقة في اختيار فصولها⁽¹⁾.

ثانياً: طريقة اختيار العنوان الروائي:

وفي عتبة العنوان الروائي لا توجد قواعد محددة للاختيار، أو للتشكيل العنواني، بل هي فرصة يحظى فيها الروائي بحرية كاملة لوضع العنوان الذي يجده ممكناً وضرورياً ومناسباً لعمله. والعنوان إشكالية مهمة تقلق كثيراً من الروائيين لما لها من حضور تشكيلي يسهم في تكامل العمل؛ ولذلك انشغلوا بها انشغالاً لا يقل أهمية أبداً عن انشغالاتهم البنائية في مراحل التكوين الأخرى للعمل الروائي.

ويقترح الروائي في بعض الأحيان أكثر من عنوان، ويرشح أكثر من طريقة لبنائه، ويمكن أن يتغير العنوان أكثر من مرة بحسب تطورات عناصر الرواية، وقد يستعين الروائي أحياناً بمن يثق برأيهم لمساعدته في الوصول إلى عتبة مثالية للعنوان تستجيب استجابة نموذجية لطبيعة عمله. ويجد الراوي في بعض الأوقات أنّ العنوان المركزي لا يُشبع إحساسه؛ فينتج إلى رده بعنوان ثانوي يُضاعف من قوة العنوان المركزي⁽²⁾.

ثالثاً: أصناف العناوين الروائي:

صنّف كثير من الباحثين العناوين الروائي إلى أصنافٍ عدّة، وهي:

1 - الجملة الاسمية، وهي ثلاثة أوجه:

أ- اسم علم، مثل: (قدرون، شهاب).

¹- ينظر: شريف، سحر حسين، دراسات نقدية في الرواية العربية، ص 175
²- ينظر: عبيد، محمد صابر، المغامرة الجمالية للنص الروائي، ص 159-160.

ب - اسم موصوف، مثل: (ربيعٌ حار).

2 - الظرف: حيث يكون العنوان ظرفًا مُتعلِّقًا بالزَّمان، مثل: (بلاد البحر، وآخر القرن).

3 - الصِّفات والإضافة، مثل: (مقامات العُشَّاق والتَّجَّار، وعزَّافو السَّواد).

4- النَّمط الجُملي: حيث يأتي العنوان جملة تامَّة، مثل: (الحلاج يأتي في اللَّيل) (1).

وعند التَّطبيق العملي لأصناف العنواين الرِّوائي على روايات أحمد رفيق عوض أجد أن رواية (فدرون) تدخل ضمن الجملة الاسميَّة؛ فقدرون اسم علم دالٌّ على قرية فلسطينيَّة مُتخيَّلة، وأمَّا رواية (مقامات العُشَّاق والتَّجَّار) فتدخلُ ضمنَ نطاق الصِّفات والإضافة، وتدخل روايتنا (آخر القرن وبلاد البحر) ضمنَ نطاق الظرف، فالأولى تدلُّ على زمن، والثَّانية تدلُّ على مكان. وقد كان نجيب محفوظ يمزجُ عناوين رواياتِهِ بين الأصناف السَّابقة؛ فرواية (الكرنك) تدخل ضمنَ نطاقِ الجُملةِ الاسميَّة؛ فهي اسم علم؛ ورواية قصر الشوق تدخل ضمن نطاق الصِّفات والإضافة (2).

رابعاً: وظائف العنواين الرِّوائي، وشروطه:

والعنوان الرِّوائي له وظائف عدَّة تؤدِّيها من خلال العمل الأدبي، منها:

- 1- وظيفَةُ التَّسمية: وهي أبسط وظيفة يُؤدِّيها العنواين للنَّص، وذلك للتمييز بينه وبين غيره من النُّصوص، ويُصَبِّحُ هذا الاسم خاصًّا بِتلك الرِّواية.
- 2- وظيفَةُ الإغراء: العنواين يُغري المُتلقي، ويكثرُ فُضُوله لِكشْفِ أسرارِ النَّصِّ الأدبي؛ فهو يُغري المُتلقي ويُشوقُه لِشراءِ النَّصِّ وقراءتِهِ.
- 3- وظيفة الدلالة أو الإحالة: وفيها يتمُّ الإشارة إلى المحتوى؛ فهو نصٌّ يقوم على اختصارٍ مُكثَّفٍ للنَّصِّ الأساسي؛ فكأنه يُقدِّم فكرةً عامَّةً عن موضوع النَّصِّ (3).

¹- يُنظر: - خواجه، علي حسن، في استنطاق الرِّواية الفلسطينية المعاصرة، ص 25.

²- يُنظر: أشهبون، عبد المالك، زوايا ظليلية، ص 33-35.

³- يُنظر: خواجه، علي حسن، في استنطاق الرِّواية الفلسطينية المعاصرة، ص 25-26.

أما شروط العمل الروائي الجيد:

1- تُدخل القارئ في عالم جديد يحرص على معرفة حقبة زمنية، وكما أنها تتقمص حياة شخص آخر (1).

2 - تكون محاولة جادة من المؤلف في تلخيص رؤيته للوجود، أو على الأقل نظرتة للحياة اليومية، هل هو فائز طبيعي أم خاسر طبيعي؟ (2).

3- تكون لها علاقة وثيقة بالتاريخ، ولها كذلك بالواقع، والمجتمع، واللغة، والنص الديني (3).

4- تكون لها مهمة روحية في تجريد القارئ من النظرة المحدودة للأشياء إلى النظرة المتسعة الشاملة (4).

خامساً: العنوان الروائي في رواية قدرون:

اسم الرواية يدخل ضمن نطاق الجملة الاسمية؛ وذلك لأنها اسم علم، والذي يدل على قرية فلسطينية متخيلة يمثل جميع القرى الفلسطينية، وما يدور في قدرون من أحداث يتكرر في كثير من القرى.

استطاع الروائي التواصل مع التراث الكنعاني الفلسطيني القديم عن طريق كلمة قدرون، التي تعود إلى أصول كنعانية؛ فأسماء المُن المُدُن الفلسطينية وقراها ووديانها المعروفة اليوم، هي أسماء عربية كنعانية، جرى فيها تغيير لتوافق اللسان العربي العدناني، وهو المرحلة الأخيرة من مراحل اللهجات العربية؛ فلما احتل الكيان الصهيوني مُدُن فلسطين وقراها ووديانها أعطوها أسماء جديدة هي في حقيقتها قديمة، ظنّها الناس عبرية، وهي أسماء ترجع إلى العهد الكنعاني، وكانت موجودة قبل الفتح

¹- يُنظر: ولسون، كولن، فن الرواية، ص173.

²- يُنظر: المرجع السابق، ص161.

³- يُنظر: حجازي، أحمد عبد المعطي، قال الزاوي: تأملات في فن الرواية، ص11.

⁴- يُنظر: ولسون، كولن، فن الرواية، ص180.

العربي الإسلامي⁽¹⁾، ويدخل ضمن هذا النطاق وادي النار، الذي يسميه الكيان الصهيوني ناكل قدرون؛ فقدرون كلمة يظنها بعض الناس عبرية قديمة، ولكنها في الواقع كلمة عربية تعود إلى العهد الكنعاني، وقد كانت مُستخدمة قبل الفتح العربي الإسلامي⁽²⁾.

وذهب أحد الباحثين إلى أنّ هذه كلمة قدرون لها اشتقاقان مهمّان: كفرون (الاسم الشائع لأحد أفلام دُرِيد لحم)، والقدر، ومن هاتين الكلمتين قام أحمد رفيق بالتّوليف بينها؛ فكانت كلمة قدرون⁽³⁾.

يُثيرُ العنوان التّشويق عند القارئ لمعرفة الأحداث التي تجري في هذه القرية، وأغرّت كذلك بمعرفة الرّمن الرّوائي الذي تدورُ به هذه الأحداث، والنّصّ الرّوائي أجاب القارئ عن هذا التّساؤل؛ فالرّمن الرّوائي مُنتصف السّبعينيّات من القرن الماضي.

وواضح أنّ هناك علاقة قويّة بين العنوان الرّوائي والنّصّ الرّوائي؛ فالعنوان يدلّ على أنّ شخصيّات هذه الرّواية من قرية قدرون، وكذلك أحداثها.

وصور العودة الناقصة في هذا العنوان الرّوائي واضحة؛ فهذا العنوان يُرشدُ القارئ إلى أنّ الكلمة الكنعانيّة (قدرون) تُمثّل المكان الفلسطيني الأصلي الذي قام الكيان الصهيوني بسرقة، وتحويله إلى مكان صهيوني، والسّرقة تعدّت المكان الفلسطيني إلى سرقة التسمية الكنعانيّة القديمة للمكان، ومن هنا لا بُدّ للعائد إلى هذا المكان في ظلّ السيطرة الصهيونيّة أن تكون عودته عودة ناقصة، ولا بُدّ له أيضًا أن يخسر خسارة كبيرة، ولعلّ العنوان الرّوائي يُشير إلى العودة الناقصة إلى المكان الفلسطيني في ظلّ الاحتلال؛ ولذلك سيعمل المكان الفلسطيني وأهله في ظلّ السيطرة الصهيونيّة لصالح الكيان الصهيوني.

¹ - يُنظر: شراب، مُحَمَّد مُحَمَّد حسن، مُعجم أسماء المُدن والقرى الفلسطينيّة، ص33.

² - يُنظر: جبر، يحيى، الأعلام الجغرافيّة الفلسطينيّة بين الطمس والتّحريف، ص104.

³ - يُنظر: سعادة، مازن، رواية قدرون، مجلّة الكلمة، ع 3، آب 1996م، ص213-214.

ويطرح القارئ عندها تساؤلات كثيرة عن صور العودة الناقصة إلى المكان الفلسطيني (قدرون)

في ظل السيطرة الصهيونية الكاملة:

ماهي الأشياء الكثيرة التي يطلبها الكيان الصهيوني من المكان الفلسطيني (قدرون)، وأهله

الواقعين تحت سيطرته؟

هل يدخل مفهوم العملاء للكيان الصهيوني ضمن الأشياء التي فرضت على أجزاء من المكان

الفلسطيني (قدرون) وأهله؟ وماهي طرقه لفرض الخيانة على بعض أهالي المكان الفلسطيني(قدرون)؟

هل يدخل مفهوم سماسرة الكيان الصهيوني ضمن الأشياء التي فرضت على أهالي المكان الفلسطيني

(قدرون)؟

هل يدخل مفهوم العمل داخل الكيان الصهيوني والعبودية له ضمن الأشياء التي فرضت على أهالي

المكان الفلسطيني (قدرون) أهله ؟ وماهي دوافع بعض أهالي المكان الفلسطيني (قدرون) للعمل

داخل الكيان الصهيوني؟

هل يُعدّ الاستيطان وتهويد الأرض الفلسطينية من صور العودة الناقصة التي يراها العائد عند عودته

إلى المكان الفلسطيني (قدرون)؟

ماهي مشاعر العائد إلى المكان الفلسطيني (قدرون) الواقع تحت السيطرة الصهيونية ؟

وماهي الأخلاق الفاسدة لبعض أهالي المكان الفلسطيني (قدرون) التي جاءت بفعل تأثرهم

بالصهاينة الذين سيطروا على المكان؟

وعند مُطالعة النصّ الروائي يجد القارئ أنّ هذه التساؤلات كانت مُحققة في قسمها الأكبر؛ فكثيراً من

أهالي قدرون قاموا بالعودة الناقصة إلى الأراضي المحتلة عام 1948م، وتكرّست العودة الناقصة عن

طريق ذهابهم كعمّال إلى الأراضي المحتلة، والذين كانوا أشبه بعبيد لدى الاحتلال؛ فهم يعملون داخل

الكيان الصهيوني داخل المزارع والمصانع وورش البناء لخدمة الاقتصاد الصهيوني، والذي تطوّر كثيراً نتيجة لذلك.

شريحة العمّال في إسرائيل خدموا اقتصاد الاحتلال، وساهموا كذلك بهدم اقتصادهم عن طريق تركهم العمل داخل أراضيهم ومصانعهم.

ويظهر هنا مفهوم العودة الناقصة في العنوان الرّوائي؛ فالعمّال الذين مثلوا العودة الناقصة من قدرون إلى الأراضي المحتلّة عام 1948م لم يعودوا فاتحين ومُحرّرين للأراضي المحتلّة عام 1948م، بل عادوا عبيداً لهذه الدّولة المحتلّة، وقاموا بخدمة أمنها القومي كذلك.

ويُبيّن العنوان الرّوائي (قدرون) الذي يُمثّل المكان الفلسطيني الذي سرقه الصّهاينة أنّه يحتوي على كثيرٍ من الظّواهر السّلبية كالعملاء والسّماسرة والعبيد؛ وذلك نتيجة العودة الناقصة لكثيرٍ من سكّان قدرون.

وعند قراءة النّص الرّوائي أجدّه يؤكّد على حقيقة الأصول الكنعانيّة لكلمة قدرون؛ فهذا الجدّ عثمان وحفيده زياد اللّذين مثلاً قيم التّمسك بالأرض الفلسطينيّة، ورفضاً هجرها كما فعل كثيرٌ من أهل القرية يجدا سوراً حجرياً تحت الأرض أثناء العمل فيها، ويكتشفان أنّ السور ارتفاعه يزيد عن أربعة أمتار؛ فيستتفران أفراد الأسرة لمساعدتهما في الحفر بحثاً عن بعض الكنوز المُخبّأة في الأرض؛ فتستمرّ الأسرة في الحفر لأيامٍ طويلة بلا كللٍ، أو ملل، وحافظوا على السرّ؛ لأنّ السّلطات الصهيونيّة كانت تعدّ ما تحت الأرض ملكاً لها كما تملكّت ما فوق الأرض، وبعد الحفر الطّويل يجدون كنزاً أثرياً عبارة عن تمثالاً لرجلٍ يُدعى بعلاً، وتمثالاً لامرأة تُدعى عشتروت، وينامون ليلة بجوار التّمثالين بعد ساعات العمل الطّويلة، وفي الصّباح يكتشفون قوّة غير طبيعيّة قد حلّت عليهم، وأنّ أعمارهم رجعت إلى الوراء سنواتٍ عدّة، ويكتشفون أنّ السّبب من وراء هذا يعود إلى التّمثالين، ووجدوا أنّ التّمثالين يبدوان كشخصين على قيد الحياة، وينظران إلى كلّ من حولهم، ويتحوّلان فجأة إلى رجلٍ وامرأة ينبضان

بالحياة حتّى أنّ زياداً شعر بالشهوة الجنسيّة تجاه تمثال المرأة، وأحضر عبد الهادي بعد ذلك رجلاً ليشتري التمثالين؛ فرفض شراءها، وقال بأنّ تمثال الرجل عبارة عن بعل ربّ الكنعانيين، وعشثرت تمثال المرأة عبارة عن آلهة الخصاب والنّماء، وأنّه لا يشتري هذه الأشياء سوى سفارات الدّول الأجنبيّة⁽¹⁾.

يظهر ممّا سبق أنّ العنوان الرّوائي (قدرون) التي يظنّه بعض النّاس كلمةً عبريّة تعود في أصولها إلى الكنعانيين القدماء، ومضمون الرواية تُثبت هذه الحقيقة؛ فقد كان تحت الأرض التابعة لقدرون كنزٌ يُشير إلى الكنعانيين، الذي يُعطي القوّة لمن حوله، وينبض بالحيويّة والنشاط؛ فالذي أسس قدرون هم الكنعانيون.

والعلاقة بين العنوان الرّوائي قدرون والنّصّ الرّوائي كانت علاقة قويّة؛ ولتوضيح هذه العلاقة لا بدّ من التّعرّض لشخصيّة عبد الهادي الرّمحي:

الابن الوحيد للجدّ عثمان الذي بقي في قدرون، حيث استشهد شقيقه صالح، وفرّ اثنان من إخوته إلى الأردنّ.

ألزم عبد الهادي نفسه بالإنفاق على أسرته، وأسرّة شقيقه الشهيد صالح؛ ولذلك تعرّض إلى ضائقةٍ ماليّةٍ أجبرته على العمل داخل الكيان الصّهيوني؛ وأوّل الأمر فشّل في إيجاد عملٍ له إلاّ أنّه نجح بعد ذلك في إيجاد عملٍ له في مزرعة يهودي يدعى إسرائيل، ثمّ أثبت كفاءةً في هذا العمل؛ ولذلك أصبح مُتعهّداً للعمّال داخل الكيان الصّهيوني.

نجح عبد الهادي في التخلّص من الضائقة الماليّة إلاّ أنّه وجد نفسه عبداً للكيان الصّهيوني، وأقتدى ابناً عبد الهادي بوالدهما؛ فتركا المدرسة، والتحقا بالعمل مع والدهما في مزرعة إسرائيل.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص18- 29، ص 31 - 32.

وساهم عبد الهادي في تشجيع العودة الناقصة لبعض الأهالي في قدرون؛ فهو كان مُتعهِّداً يُشغَل من يُريد في تلك المزرعة⁽¹⁾.

ورواية قدرون كانت عملاً روائياً جيِّداً؛ فهي تحدّثت عن حقبة السبعينيّات من القرن الماضي، وكما أنّها عبّرت عن أفكار الكاتب تجاه مظاهر كثيرة سادت في تلك الحقبة خلال العودة إلى الأراضي المُحتلّة عام 1948م على شكل موجاتٍ من العُمال.

سادساً: العِنوان الرّوائي في رواية مقامات العُشّاق والتّجار:

العِنوان الرّوائي كان مُوقفاً إلى حدّ كبير؛ فهو يدخل ضمن نطاق الصّفات والإضافة، والذي يُشير إلى فضاءٍ واسع، والذي مجاله الجُموع الكثيرة من النَّاس، والتي تقتضي الضّرورة أن يكون شعباً من الشّعوب، وهُنا يتساءل القارئ للعِنوان عن هذا الشّعب الذي يتحدّث عنه العِنوان الرّوائي. والعُشّاق كلمة مُعرّفة بآل التّعريف، وهذا يدفع صفة الإيهام عن هويّتهم؛ فهُم يُشاهدون مراراً في هذه الحياة المُعاصرة.

وكلمة العُشّاق قد يُفسّرها القارئ بأنّها تعني المُحبّين؛ ولذلك من حقّ القارئ أن يطرح تساؤلاتٍ عدّة: ما هو الشّيء الوحيد الذي يشترك في محبّته عُشّاقٌ كُثر؟ والعُشّاق يُعرف عنهم بأنّهم غير مُستعدين للتنازل عن هذا الشّيء الذي يُحبّونه؛ ولذلك يُفترض في هؤلاء أنّهم أصحاب مبدأ ومُثل وقيم لا يُغيّرونها مهما كلفهم ذلك.

ولابدّ أن يُثير القارئ الكلمة التي سبقت العُشّاق، وهي مقامات التي فيها تواصل مع التّراث العربي، ويتذكّر القارئ بعد ذلك بأنّ هذه المقامات شبيهة في المُسمّى بالمقامات التي كانت في الماضي، وهي جمع مقامة، ومعناها فنّ كتابي يُجيدُه بعض الكُتّاب للحديث عن قصص وحكايات تجري في زمنهم.

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 266 - 294.

يُرَجِّحُ القارئُ بعد ذلك أن الشَّيءَ المُشتركَ الَّذي يُحِبُّهُ أشخاصٌ كَثُرَ هو فلسطين، والعاشقُ لشيءٍ لا بُدَّ أن يُضحيَ من أجله بالغالي والنَّفيس؛ وفي هذه الحالة يستعيدُ القارئُ الذَّاكرةَ عن المُناضلين والفدائيين في انتفاضة 1987م.

والتَّحليلُ السَّابِقُ ينسجم مع ما أورده لسان العرب في توضيحه لمعنى كلمة عشق، والتي تعني فرط الحُبِّ، وقيل هو عجبُ المُحبِّ بالمحبيب⁽¹⁾.

وعندما يُكملُ القارئُ العنْوانَ الرِّوائيَ يَجِدُ كلمةَ التَّجَّارِ، وهم أيضاً كُثُرٌ، والكلمةُ مُعرِّفةٌ بِآلِ التَّعْرِيفِ؛ فهم يُشاهدون بيننا، والتَّجَّارُ يُعرفُ عنهم بأنهم لا يعرفون شيئاً إلا الرِّيحَ.

ويتساءلُ القارئُ للعنْوانِ الرِّوائيِ بعد ذلك عن عِلاقةِ هؤلاء التَّجَّارِ الَّذين يُغلبون مصالحهم الخاصَّةَ على مصلحةِ الوطنِ بهؤلاء العُشَّاقِ الَّذين ناضلوا من أجل فلسطين، وهل من المُمكن أن يكون بعضُ العُشَّاقِ قد تحوَّلوا إلى تُجَّارٍ؟

هذه التَّساؤلاتُ الكثيرةُ تدفعُ القارئَ إلى قِراءةِ النِّصِّ الرِّوائيِّ لمعرفةِ أخبارِ هؤلاء العُشَّاقِ والتَّجَّارِ. وقد كانت العِلاقةُ قويَّةً بين العنْوانِ الرِّوائيِّ والنِّصِّ الرِّوائيِّ، ويتَّضحُ ذلك من خلال شخصيَّاتِ الروايةِ - التي كانت في مُعظَمِها عُشَّاقاً لفلسطين -؛ فقد ناضلت من أجلها، ولكنها بعد تلك الاتِّفَاقِيَّةِ تبدَّلت قيمهم، وتحوَّلوا إلى تُجَّارٍ، وكُلُّ هَمِّهم جمعُ المالِ، وهذه الشَّخصيَّاتُ ترقَّتْ سريعاً في المُجتمعِ الجَديدِ.

وهناك عُشَّاقُ ناضلوا من أجل فلسطين في الروايةِ رفضوا التَّحوَّلَ إلى تُجَّارٍ يُبدلون قيمهم، وهذه الشَّخصيَّاتُ هُمَّشتْ في المُجتمعِ الجَديدِ الَّذي لا يقبلُ إلا التَّجَّارَ، ومن يُفكِّرُ بمنطقهم.

وأعتقدُ أنَّ هُنَاكَ شخصيَّاتُ كانت تُفكِّرُ بمنطقِ التَّجَّارِ قبل اتِّفَاقِيَّةِ أوْسَلُو، وبقوا يُفكِّرونَ بالمنطقِ ذاته بعد هذه الاتِّفَاقِيَّةِ كالعُملاءِ مثلاً، وهؤلاء ترقَّوا سريعاً في المُجتمعِ الجَديدِ الَّذي بالغَ في التَّرحيبِ بهم.

¹- يُنظر: ابن منظور، مُحمَّد مكرم، لسان العرب / 12، ص 123.

ومن أبرز شخصيات العشاق الذين تحولوا إلى تجار:

1. محمد الحامض:

كان مسؤول الحزب اليساري في شمال الضفة الغربية، والذي تحول من مناضل ومُطارد في جبل الذيب إلى التفاوض مع الإسرائيليين، ثم حصل على الماجستير من جامعات ألمانيا، وانتقل بعدها إلى منصب المستشار المالي في شركة إنتر آكشن التي يديرها البعول العميل الكبير الذي اختطفه محمد الحامض مع كمال ناجي زمن الانتفاضة (1).

2. عطا الله:

سُجن قبل اتفاقية أوسلو فترة من الزمن، وبعد أن خرج من السجن يتخلى عن حزبه، ويبيع نفسه لجورجيت؛ فيتزوجها ويسكن معها في بلدة بيت حنينا، وتستخرج زوجته له بعد ذلك الجنسية الصهيونية، ثم أدار لها مخازن الأدوية، ويعمل في تهريب الأدوية، والتي كوّن جراً العمل فيها ثروة ضخمة، وكان يسكر في بارات فنادق القدس الشرقية، ثم ذهب بعد ذلك ليسكر في بارات فنادق القدس الغربية، وهناك تعرّف على إعاد وزوجته غرتسيا.

أقام شراكة مع إعاد لشراء الأراضي والعقارات في البلدة القديمة داخل القدس مقابل عشرين بالمئة عن كلّ عملية بيع؛ فافتتح مكتباً في البلدة القديمة، وقام عطا الله بتسريب العديد من العقارات والأراضي إلى إعاد؛ وبذلك تحول عطا الله من مناضلٍ إلى سمسارٍ للاحتلال (2).

الشخصيتان السابقتان أمثلة من الشخصيات التي كانت عاشقة ومناضلة قبل اتفاقية أوسلو، وتحولوا إلى تجار لا يفكرون إلا بمنطق الربح المالي.

¹- يُنظر: العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر، ص 30.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتجار، ص 77 - 84.

وأما الشخصيات التي مثلت دور العُشّاق الرافضين للتحوّل إلى تجّار، ومن أهمّ هذه الشخصيات:

1. كمال ناجي:

أحد مؤسّسي جماعة الفهد الأسود، والذي ناضل معهم قبل اتّفاقيّة أوسلو، وبعد هذه الاتّفاقيّة يُصبح ضابطاً لدى الأجهزة الأمنيّة، ويعمل في السّجن الذي عُدّب به، ولكنّه لا يُحسّ بالسّعادة لكونه مُهشماً داخل المُجتمع الجديد⁽¹⁾.

2. عبد الرّحمن الصّوفي:

ناضل قبل اتّفاقيّة أوسلو، وبعد هذه الاتّفاقيّة عمِل في وظيفة حُكوميّة تابعة للسلطة الوطنيّة، ولكنّ واقع الفساد داخل المؤسّسة التي يعمل بها جعلته يتركّ هذه الوظيفة، ويعتزلّ الناس، ويُنزوي في أحد الجبال تجنّباً لرؤية هذا الفساد⁽²⁾.

وكمال ناجي وعبد الرّحمن الصّوفي كانا من العُشّاق الذين ناضلوا من أجل فلسطين، وقد رفضا السّير وفق منطق التّجّار؛ فكان مصيرهما التّهميش.

ومن أبرز الشخصيات التي كانت تُفكّر بمنطق التّجّار قبل اتّفاقيّة أوسلو، وبقيت كذلك بعد هذه الاتّفاقيّة: مُحمّد أبو معروف (البعبول):

كان عميلاً للاحتلال منذ بداية حياته، واختطفته الفصائل الفلسطينيّة عدّة مرّات أثناء الانتفاضة؛ فهرب إلى الولايات المتّحدة خوفاً على حياته؛ ليعود بعد اتّفاقيّة أوسلو نجماً من نُجوم المال والاقتصاد في سماء رام الله⁽³⁾.

البعبول كان تاجراً قبل اتّفاقيّة أوسلو، وبقي تاجراً بعد هذه الاتّفاقيّة؛ فوجد الزّمن الجديد يُرحّب به، ويُعطيه أكثر ممّا تمنّى.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشّاق والتّجّار، ص 73 - 76.

²- يُنظر: المصدر السابق، ص 26 - 27.

³- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشّاق والتّجّار، ص 37- 39.

والعنوان الروائي يدلنا على مضمون الرواية؛ فمعظم المناضلين تحوّلوا إلى تجار لا يهتمهم سوى الربح المالي، وأمّا من أصرّ على البقاء في خانة العشاق والمناضلين؛ فكان مصيره التهميش والازدراء في المجتمع الجديد.

وساند العنوان الروائي العناوين الداخليّة لإيصال ما يُريده الكاتب من أفكار عن تحوّل القيم والمثُل في المجتمع الجديد الذي تشكّل بعد اتّفاقيّة أوسلو.

والعودة الناقصة تجلّت في العنوان الروائي الذي لمّح إلى تحوّل المناضلين إلى تجار بعد عودة السُلطة الوطنيّة إلى أرض الوطن.

ورواية مقامات العشاق والتجار كانت عملاً روائياً جيّداً؛ فهي تحدّثت عن فترة تاريخيّة مهمّة في حياة الفلسطينيين بعد عودة السُلطة الوطنيّة إلى أرض الوطن، ولكنّ تلك العودة كانت ناقصة لأنّها وقعت تحت إشراف الاحتلال.

سابقاً: العنوان الروائي في رواية آخر القرن:

العنوان الروائي في هذه الرواية يدخل ضمن نطاق ظرف الزّمان؛ فالعنوان يُشير إلى نهاية هذا القرن، والذي يطرح تساؤلاتٍ عدّة على القارئ لهذا العنوان عن الأشياء التي جرّت خلال القرن الماضي، وهل تغيّرت الحقائق على الأرض الفلسطينيّة؟ وهل تغيّر الأشخاص الذين يعيشون على هذه الأرض؟

ويتذكّر القارئ بعد هذه التساؤلات أنّ فلسطين احتلّت خلال المائة سنة الماضية، وكذلك تشردّ الشعب الفلسطيني في أصقاع الأرض.

واستوطنَ مكان الشعب الفلسطيني شعبٌ آخر جُمع من جميع أنحاء العالم، وأصبحتْ هناك دولة الكيان الصهيوني طمستْ المُدن الفلسطينيّة لتقيم مكانها المُدن الصّهيونيّة.

وكذلك وقَّعتْ مُنظَّمة التَّحرير اتِّفاقيةَ أوْسُلُو مع الكيان الصَّهيوْني خلال هذا القرن، وأصبح الكيان الصَّهيوْني بذلك دولة شرعيَّة في أنظار العالم.

وتبدَّلتْ القيم خلال هذا القرن، وأصبحتْ قيم كثيرٍ من النَّاس قِيَمًا مادِّيَّة بحتة، والتي لا تعنيها القيم الوطنيَّة في شيء.

وقد كانت العَلاقة بين العِنوان الرِّوائي والمضمون الرِّوائي علاقة وثيقة؛ فالرِّواية تتحدَّث عن شخصيَّاتٍ عدَّة تُلخَّص ما انتهى إليه هذا القرن:

1. محمود السُّلواْدي:

كان يعمل في دائرة المُفاوضات، ووُلد في سلواد سنة 1952م، ولكنَّ أصوله تعود إلى حيفا، ويقوم محمود بعودة ناقِصة إلى الأراضِي المُحتلَّة عام 1948م؛ فيرى الموطن الأصلي لأبيه وأمه قد تهوَّد، وتُسجبت حوله الأساطير التُّوراتيَّة.

ذهب الوفد المُفاوض الفلسطيني في نهاية إحدى جولات التَّفاوض إلى أحد المتاحف الإسرائيليَّة في سهل الرُّوحة في حيفا، وهذا المتحف تُقدِّمه المُضيفة الإسرائيليَّة على أنَّه قرية (بُطّ - مين)، وهي عبارة عن مُنتجع سياحي.

قالت المُضيفة - بما معناه -: إنَّ هذه القرية تُسمَّى (بُطّ . مين)، وهي تعني بالعبريَّة بنت الجنس أو مُتعلِّقة بالجنس، وإنَّ أوَّل من بناها هو أمنون بن داود الذي ضاجع أخته تamar، ثمَّ هرب من وجه أبيه؛ فهذه القرية بُنيت بسبب فضيحة جنسيَّة قديمة.

تذكّر محمود بعد ذلك ما قالت له أمّه عن تأسيس هذه القرية، وهذه الشجرة؛ فقد تذكّر بأنّ جدّه من جهة أمّه راشد أبو رقية شيخ عشيرة الدّايمات هو الذي أسّس هذه القرية، وهو الذي بنى الأسوار حول الشجرة⁽¹⁾.

عاد محمود إلى قرية أبيه وأمّه الأصليّة ليجد كلّ شيءٍ قد تهوّد، وأُطلقت حوله الأساطير التّوراتيّة، وكلّ هذا جرى خلال قرنين من الزّمان.

وهذه العودة النّاقصة لم تجعل العائد إلى الأراضي المحتلّة عام 1948م يرى الأرض الفلسطينيّة قد تغيّرت فقط، بل غيّرت النّاس أيضاً داخل الأراضي المحتلّة عام 1948م؛ فمحمود السلوادي دُعي لزيارة يافا من قبل أحد أعضاء اللجنة المكلفة بترميم مسجد حسن بيك في يافا، وفوجئ عند الزيارة بالعربي من يافا الذي عاش تحت حكمالكيان الصّهيوني لأكثر من أربعين عاماً، وبالرغم من وجدانه العربي إلاّ أنّه مضطّر إلى اعتبار الكيان الصّهيوني دولته ليستطيع من خلال ذلك تثبيت عرويته⁽²⁾.

2. عُمر فيصل:

أحد طُلاب جامعة النّجاح اعتُقل أكثر من مرّة، وخلال الانتفاضة حكم عليه الكيان الصّهيوني بالسّجن مُدّة ستّ سنوات، ولم يُطلق سراحه بعد اتّفاقيّة أوسلو، وكانت تصله أخبار والديه؛ فيغرق في همّ ثقيل؛ فقد جاعا، ولم يسأل عنهما أحد؛ فلمّا خرج من السّجن حسب أنّ جميع المؤسّسات المدنيّة والأمنيّة ستسابق من أجل تشغيله، ولكنّ ذلك لم يحصل.

انتقل عمر للسّكن في مدينة رام الله، وهناك التقى بأستاذه القديم مُنير مُنير الذي يُدير مركزاً للأبحاث الاستراتيجيّة؛ فعمل عنده في هذا المركز.

شكّل مُنير مُنير بعد ذلك إطاراً للحوار مع الصّهاينة، وجعل لهذا الإطار مجلس أمناء يضمّ أعضاء مُحترمين من اليسار واليمين.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 172 - 173.

²- يُنظر: المصدر السّابق، ص 13.

صار عُمر يتحدّث مع الإسرائيليين حول السّلام وفوائده، وصار لديه بيت وسيّارة، وصار راتبه العلني أكثر من ألفي دولار أمريكي⁽¹⁾.

والعنوان الرّوائي يُري القارئ بعض الأفكار الواردة في مضمون الرواية، وهناك عناوين فرعية داخل الرواية تشرح بعض الأفكار التي يتضمّنها العنوان الرّوائي.

والعودة النّاقصة تركزت في العنوان الرّوائي؛ فخلال هذا القرن تهوّدت الأرض الفلسطينيّة، وتبدّلت قيم النّاس ليصبحوا باحثين عن المال بعد أن كانوا يُناضلون من أجل الوطن.

ثامناً: العنوان الرّوائي في رواية بلاد البحر:

العنوان الرّوائي يدخل ضمن نطاق الظرف المكاني؛ فهو يُشير إلى مكانٍ واسع، والإنسان لا يرى المكان الواسع إلا في المنام.

ومن البديهيات أنّ الحواجز الزّمنية تتلاشى أثناء النّوم؛ فالذي يقرأ العنوان يعرف أنّ الحديث يدور في إحدى المنامات عن بلادٍ مجاورة للبحر خلال فترات زمنية متباعدة، ولكنه يتساءل عن أيّ بحرٍ يقصد الكاتب.

يتذكّر القارئ بعد تفكير بأنّ الكاتب من فلسطين؛ فعندها يعرف بأنّ مضمون الرواية يدور حول فلسطين الواقعة على ساحل البحر المتوسّط خلال فترات زمنية متباعدة.

العنوان الرّوائي في هذه الرواية بوابة شفافة للأفكار الواردة في مضمونها؛ فما جرى لفلسطين في الماضي يجري لها في الزّمن الحاضر.

والعلاقة وثيقة بين العنوان والمضمون في هذه الرواية؛ فالنّائم أحمد مسعود أخذه أبو الفداء القائد العسكري الذي شارك الملك الأشرف في تحرير عكا إلى فلسطين (بلاد البحر) في فترات زمنية مختلفة؛ وذلك لعقد مقارنة بين العودة المُشرّفة في الماضي والعودة النّاقصة في الزّمن الحاضر، وهذه

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 224 - 227.

العلاقة الوثيقة تتضح من خلال بعض الرحلات التي قام بها أبو الفداء مع أحمد مسعود إلى الأراضي المحتلة عام 1948م، وعقد مقارنة بين عودة الملك الأشرف إلى عكا في الزمن الماضي، وعودة الفلسطينيين إلى الأراضي المحتلة في الزمن الحاضر؛ فأبو الفداء يُخبرنا بأن مولاة الملك الأشرف خليل بن قلاوون عندما عاد إلى عكا في الزمن الماضي أصرّ على غسلها بالدمّ، وتطهيرها بالنار، وجعلها خراباً إلى أبد الأبد.

والعودة إلى عكا في الزمن الماضي تختلف عن العودة الناقصة إليها في الزمن الحاضر؛ فالعودة الأولى كانت للتحرير، والعودة الثانية كانت لمشاهدة طمس المعالم الفلسطينية، واستبدالها بمعالم إسرائيلية غريبة⁽¹⁾.

والعلاقة الوثيقة بين العنوان الروائي ومضمون الرواية قد تجلّت في الرحلة التي قام بها (أبو) الفداء مع أحمد مسعود إلى إحدى المخيمات للاطلاع على أوضاع المخيمات من خلال زيارة أحد اللاجئين (أبو) حسين؛ فهو يعيش في بيتٍ تعيش من الزنك، والبيوت مُلاصقة لبعضها البعض، وكان يعيش على ما تتصدّق به وكالة غوث اللاجئين؛ فيتحدّث (أبو) حسين عن حياته قبل النكبة؛ فهو كان من وجهاء قرية المسميّة، وكان يمتلك بيتاً عربياً كبيراً، ومائة دونم؛ فيخبره (أبو) الفداء عمّا حلّ بأرضه وبيته بعد تهجيرها؛ فقد سكن بيته يهودي يُدعى يوسي يونا، واستأجر المائة دونم من الحكومة الصهيونية.

وخسر يوسي يونا بعد ذلك المائة دونم لاشتراكه في إحدى حركات التمرد ضدّ الحكومة الصهيونية؛ فقام الكيان الصهيوني بتوزيع المائة دونم على معهد زراعي أنشئ حديثاً؛ فمُنحت عشرة دونمات للتجارب الزراعيّة، وأعطت ثلاث عائلات روسيّة ما بقي من الأرض، وكان البيت العربي الكبير من نصيب المهاجر الروسي أفينغور ماكوفسكي الذي سلّم الأرض التي مُنحت له إلى بعض

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 19 - 22، ص 24.

العُمال التّايلانديين، والَّذين كانوا يبيتون في البيت العربي الكبير؛ فقام أحد العُمال بقتل زميله؛ فطُردوا جميعاً من هذا البيت، ولم يُحضَرُ ماكوفسكي آخِرِينَ للعمل؛ فهُجِّرَ البيت، وأصبحت الأرض بوراً، وأصبح يُرى في البيت العربي الكبير أضواءٌ وحركاتٌ وصهياً وزغاريد، وكانوا يروُنَ امرأة تلبس الثَّوب الفولكلوري الفلِسطيني تُنادي على رجلٍ يُدعى (أبو) حسين.

تسلّمت دائرة الآثار البيت العربي الكبير بعد أن وضعوا عليه نُقوش تُفيد بأنّه شهدَ الاجْتِماعات الأولى للأحزاب العُماليّة قبل قيام الكيان الصّهيوني⁽¹⁾.

وهذه الرّحلة لم تخرج عن نطاق بلاد البحر؛ ففلسطين ولبنان بلاد ساحليّة تقع على شاطئ البحر المتوسّط، وصورة فلسطين كما تقدّم تتغيّر من زمنٍ إلى آخر.

وإذا كان الملك الأشرف قد جاء بجنوده وعتاده العسكري لتحرير عكا، وأصرّ أن لا يستمع لأيّ كلامٍ غير هذا الكلام؛ فإنّ الصّورة اختلفت بعد عودة السّلطة الوطنيّة إلى أرض الوطن؛ فقد تناسى مُعظم الفلِسطينيين واجباتهم تجاه تحرير أرضه لينغمسوا في الفساد المالي والإداري، والَّذي وصل إلى أكثر القطاعات حساسيّة؛ فقد وصل إلى قطاع الأجهزة الأمنيّة، والتّي صورها بعض الواهيمين أنّها جيش يملك قراراً؛ فهذا عقيدٌ يعمل في الأمن الوطني في إحدى قُرى منطقة جنين وطولكرم تحوّل فجأةً إلى مالك كبيرٍ للأراضي والعقارات، وعند سؤاله عن مصدر هذه الأموال تحدّث بأنّ عائلته جمعت له أموالاً طائلة ليُحسّن أحواله.

وشخصٌ لا يقرأ العربيّة يُمنحُ درجة مُديرٍ عامٍّ لمُجرّد أنّه قريب أو نسيب لأحد المسؤولين. والعنوان الرّوائي (بلاد البحر) يُرشدُ القارئ إلى أنّ هذه البلاد لم تتغيّر معالمها فقط، بل تغيّر الأشخاص الّذين يسكنون هذه الأرض أيضاً؛ وذلك نتيجة تغيّر الرّمن⁽²⁾.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 67 - 75.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 241.

ولعلّ التصاق البلاد بالبحر في العنوان الروائي يُشير إلى تقلّب هذه البلاد كما يتقلّب البحر؛ فأحوال هذه البلاد تتغيّر باستمرار كالبحر.

والعنوان الروائي (بلاد البحر) يضعُ أمام القارئ مشاهد كثيرة لهذه البلاد في فترات زمنيّة مختلفة، ومن خلال هذه المشاهد يعرف القارئ الفرق بين العودة المُشرّفة في الماضي، والعودة الناقصة في الزمن الحاضر.

اتّضح ممّا سبق أنّ العنوان الروائي قد لعب دورًا كبيرًا في إعطاء لمحة عن مضمون الرواية، وعن صور العودة الناقصة في تلك الرواية، وسيأتي بعد قليل توضيح للتشابه بين صور العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض.

المبحث الثَّانِي: أَوْجُهُ التَّشَابُه بَيْن صُور العُودَة النَّاقِصَة فِي الرِّوَايَات:

المبحث الثاني: أوجه التشابه بين صور العودة الناقصة في الروايات:

لاحظتُ أنّ هناك تشابهاً بين رواية أحمد رفيق عوض التي تمثل مرحلة ما قبل اتفاقية أوسلو (قدرون)، وروايات هذا الكاتب التي تمثل مرحلة ما بعد اتفاقية أوسلو (مقامات العشاق والتجار، وأخز القرن، بلاد البحر) في بعض صور العودة الناقصة للأراضي المحتلة.

ولا غرابة في ذلك؛ فالعودة إلى الأرض تحت سيطرة الاحتلال تبقى عودة ناقصة سواءً أكان الزمن قبل اتفاقية أوسلو، أم بعدها، إلا أنّ صور العودة الناقصة بعد اتفاقية أوسلو زادت حدتها ووطأتها نظراً لاشتداد السيطرة الصهيونية على الأرض وأهلها.

وأهم صور العودة الناقصة في الروايات:

أولاً: الإجراءات الصهيونية:

تطرقت رواية قدرون إلى ظاهرة الاعتقال، وتفاعل المجتمع الفلسطيني مع هذه الظاهرة؛ فهذه أبنى ابنة عبد الهادي ذهبت في يومٍ ما طرّ إلى مدرستها الثانوية؛ فوجدت أمواجاً من الطلاب والطالبات أمام البوابة الرئيسية يستعدون للاشتراك في إحدى المظاهرات للاحتجاج على ممارسات الاحتلال تجاه المعتقلين الفلسطينيين؛ فانجرت أبنى مع هذه الجموع، وفجأة ظهر الجنود، وأطلقوا الرصاص، وعندها رمى الناس ما يحملون من حجارة ورجاجات فارغة، ثم اختفى الناس من المكان، ولم يتبق إلا الجنود، وكانت هناك جثة ممددة على الأرض بلباس أخضر، وعادت أبنى بعد ذلك إلى البيت⁽¹⁾.

وصورت لي رواية قدرون واقع الاعتقال في الزنازين؛ فهذا زياد شقيق أبنى اعتقل على أيدي سلطات الاحتلال بعد إحراق بيت أحد أقربائه من العملاء؛ فوضع في زنزانية صغيرة، واصطدم عند دخوله بدلو صغير، ولم يشاهد ما بداخله نظراً للظلام الدامس داخل هذه الزنزانية، ونام هذه الليلة يسبح بالسائل الذي كان داخل هذا الدلو، وتبين أنّ هذا السائل عبارة عن براز بشري.

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 40-48.

دخل عليه السَّجَان بعد ذلك، وانفجرَ من الضَّحْك عند مشاهدة هذا المنظر؛ فردَّ عليه زياد بأنَّ يتوقَّف عن الضَّحْك كالعاهرات، وعندها انهالَ عليه السَّجَان ضرباً، ثُمَّ أخذه إلى أحدِ المُحقِّقين الإسرائيَّيين ويُدعى (أبو) ماهر.

حاول أكثر من مُحقق صهيوني الحصول من زياد على بعض المعلومات بالملاطفة حيناً، وبالتعذيب حيناً آخر، ولكن دون جدوى؛ فزياد رفض التَّعاون معهم؛ ولذلك واجهه أحد المُحقِّقين بوثيقة اعتراف من أحد أصدقائه تُفيد بإحراقه بيت ذلك العميل؛ فسُجِن زياد فترةً من الزَّمن⁽¹⁾.

ومن الطَّبيعي أن تتطرَّق الرواية إلى ظاهرة الاعتقال؛ فهذه الظَّاهرة موجودة في الأراضي المُحتلَّة مُنذُ بداية الاحتلال سنة 1967م، وكما كان الاعتقال موجوداً قبل اتِّفافية أوسلو كان موجوداً بعد هذه الاتِّفافية، وهذه الاتِّفافية لم تُغيِّر من الواقع شيئاً.

وفي رواية بلاد البحر تطرقت إلى ظاهرة الاعتقال مِنْ زاويةٍ أُخرى؛ فهذا أبو الفداء أَخَذَ أحمد مسعود إلى إحدى السُّجون الصَّهيونيَّة، والذي كان يتكوَّن مِنْ خِيَمٍ عِدَّة؛ فوقفَ أبو الفداء فوقَ الخِيمة التي كان يجلسُ بها مُوران الضَّابط الصَّهيوني المكلف بإدارة هذا السُّجن.

وموران اعتاد على إذلال الفلَسطينيين المُعتقلين لَدَيْهِ وتُعذِّبُهُمْ؛ فصاحَ ذاتَ لَيْلَةٍ بِالْمُعتقلين، وأمرهم أن يُسمِعُوهُ أُغْنِيَّة المَسَاء.

وأمرهم بَعْدَ ذلك أن يُغنُّوا بالعِبريَّة إحدى الأُغْنِيَّات؛ فاستجابوا وغنُّوا باللُّغتين العِربيَّة والعِبريَّة؛ وذلك خوفاً مِنْ تعذيبِ مُوران الشَّدِيد⁽²⁾.

ولعلَّ الاعتقال والإذلال قاسِمٌ مُشتركٌ بَيْنَ الروائيتين (قدرون وبلاد البحر)؛ فكما جرى إذلال زياد ابن عبد الهادي في رواية قَدْرُونَ جرى إذلالُ كُلِّ المُعتقلين الفلَسطينيين في رواية بلاد البحر، وكما تطرقت رواية قَدْرُونَ إلى حادثة قتل إحدى الطَّالباتِ على أيدي الجنود الصَّهاينة؛ فكذلك تطرقت رواية بلاد

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 159-170.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 11 - 13.

البحر إلى حادثة القتل على أيدي هؤلاء الجنود؛ فهذا الضابط الصهيوني موران قتل أحد المقاومين الفلسطينيين في منطقة جنين؛ فقد كمن هذا الضابط لمحمد جهاد في معارة عزب بلدة كفر راعي بالقرب من قرية صيدا؛ فموران خنقه حتى الموت؛ وذلك بعد أن طرحه أرضاً، وضغط على رقبتيه، وادعى هذا الضابط أنه قاوم حتى الطلقة الأخيرة.

وتحدثنا رواية بلاد البحر بأن حادثة القتل أصبحت من الأشياء المألوفة لدى الشعب الفلسطيني، فهذا أحمد مسعود انتقل إلى مؤسسة أخرى، وفي اليوم الأول له في تلك المؤسسة استأذن مديره بمغادرة المبنى، والعودة إلى البيت، وذلك لأن قوات الاحتلال تحاصر الحي الذي يسكنه بعد أن قتلوا ثلاثة شبان من كتائب أحد الفصائل؛ فسأل المدير عن مكان هذا الحي، وتفاعلاً من أن هذا الحي مر به في الصباح، ولم يلاحظ شيئاً غير عادي؛ فرد عليه أحمد مسعود بأن أمر القتل صار هكذا؛ فالقتل في شارع، والبيع في الشارع الذي يليه⁽¹⁾، ومغزى هذا أن بعض الفلسطينيين أصبح يفكر في هوموه فقط دون الالتفات إلى ما يفعله الاحتلال بالآخرين من هذا الشعب من قتلٍ وتعذيب.

ومن الإجراءات الصهيونية التي تشابهت في الروايات بين مرحلة ما قبل اتفاقية أوسلو، والمرحلة التي تلتها نشر ثقافة الاحتلال؛ فرواية قدرون تطرقت إلى الدعاية المضللة القائمة على مدح إسرائيل، والتي تبناها العمال الذين يعملون داخل الكيان الصهيوني مع أن الواقع كان يناقض ذلك، فهذه ابنة عبد الهادي عندما شاهدت إحدى المظاهرات الطلابية أمام مدرستها الثانوية؛ فسألت عن الأسباب التي دعت إلى هذه المظاهرة؛ فأجابتها إحدى الطالبات بأن السبب هو الاحتجاج على الممارسات الصهيونية تجاه الأسرى الفلسطينيين؛ فتذكرت ابني بأن والدها وشقيقها يمدحون إسرائيل الذين يعملون عنده، ولا يذكرون كلمة عن الأسرى⁽²⁾.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 13 - 14، ص 251.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 40-48.

ولم يكتفِ الكيان الصهيوني بالاعتماد على العبيد لنشر الصورة التي تُريدها، بل اعتمد على نفسه وروج للصورة التي يُريدها؛ فهذا علي عندما أخذ أوراق ملكية أرض جدّه ذهب إلى الرَّابِ شليطا رئيس إحدَى الجماعات الاستيطانية، وهناك نشر الرَّابِ شليطا أفكار الكيان الصهيوني، فتحدّثَ لِعَلِي بِأَنَّ المُستوطنة التي ستقام على أرض جدّه سيعمل بها كثيرٌ من العرب ويكسبون، والاستيطان مفيدٌ للعرب في منطقة يهودا والسامرة (التسمية الصهيونية للضفة الغربية)؛ وستقام في هذه المُستوطنة مصنعا كبيرا تُموله شركة أمريكية كبيرة يتسع لألف عاملٍ عربي، فالرَّابِ شليطا كان مؤمنا بأن أراضي يهودا والسامرة (الضفة الغربية) الوطن القديم الجديد للشعب اليهودي، ومن حقّ هذا الشعب العودة إلى هذا الوطن.

والجماعة التي يترأسها الرَّابِ شليطا تؤمنُ إيمانا قاطعا بأنّ الله اختارها لمهمة تعمير يهودا والسامرة - كما قال الرَّابِ شليطا-، وتؤمنُ بأنّ المسيح المنتظر سيظهر في السامرة في بقعة جبلية⁽¹⁾. وكذلك عمل الكيان الصهيوني على نشر ثقافته في رواية آخر القرن؛ فهي ضخمت الآثار اليهودية في فلسطين؛ فعبد الرّحمن السلوادي يكتشف أثناء زيارته أحد المتاحف في الأراضي المحتلة عام 1948م أنّ قرية البطمة التي جمعت والديه قد نُسجت حولها الأساطير التوراتية؛ فالذي بناها هو أمنون بن داود قبل آلاف السنين⁽²⁾.

وهكذا صبغ الكيان الصهيوني الأرض العربية بثقافته، ولم يكتفِ بتهويد الأرض، بل هوّد المواطنين الفلسطينيين الذين سكنوا هذه الأرض؛ فعبد الرّحمن السلوادي يتفاجأ أثناء زيارته يافا بتمسك الفلسطينيين بجنسية الكيان الصهيوني ليستطيعوا تثبيت حقوقهم في أرضهم⁽³⁾.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 31-32.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 173-176.

³- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 13.

بناءً على ما سبق يتبين أن هناك سياسة ثابتة للكيان الصهيوني منذ احتلاله للأراضي الفلسطينية في نشر ثقافته، وفرض هذه الثقافة على الأراضي الفلسطينية، وهذا ما حدث في روايات أحمد رفيق عوض قبل اتفاقية أوسلو، وما بعدها.

ومن الإجراءات الصهيونية المتشابهة في روايات أحمد رفيق عوض سواء قبل اتفاقية أوسلو، أو ما بعدها سياسة مصادرة الأراضي؛ ففي رواية قدرون يشترك الجد عثمان وحفيده زياد مع الرجال الذين دخلوا أرضهم، ثم يُخبرهما الزاب شليطا بأنه اشترى هذه الأرض من علي الرمحي⁽¹⁾؛ فالكيان الصهيوني استولى على الأرض التي تعود ملكيتها إلى الجد مُستغلاً بيع علي؛ فرواية قدرون نجحت في توصيل هدف المشروع الصهيوني في فلسطين منذ احتلال الضفة الغربية عام 1967 م، وهو الاستيلاء على الأرض الفلسطينية بكل الطرق المشروعة، وغير المشروعة، ثم عمل المستوطنات لتوطين شعب آخر مكان شعب يُراد له الرحيل.

وهذه السياسة كانت قبل اتفاقية أوسلو، وازدادت حدة هذه السياسة على الفلسطينيين بعد هذه الاتفاقية؛ ففي رواية مقامات العُشاق والتجار طالت المصادرة كثيراً من أراضي قرية طمون الواقعة قرب طوباس؛ فالكيان الصهيوني أعلن كثيراً منها كأماكن الغائبين، ولم يكونوا غائبين، بل هاربين من الاحتلال⁽²⁾.

وتكررت سياسة مصادرة الأرض الفلسطينية في رواية آخر القرن؛ فإسرائيل واصلت السيطرة على الأرض بكل ما أُوتيت من قوة بعد اتفاقية أوسلو، واستمرت في مصادرة الأراضي في المناطق المُصنفة "ب"، وكذلك استمرت في عمل شبكة طرقٍ اتفافية التي تلتهم الأرض، وتُبعد المستوطنين عن الاحتكاك بالمواطنين الفلسطينيين⁽³⁾.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 313 - 319.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشاق والتجار، ص 46 - 47.

³- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 95-99.

وفي رواية بلاد البحر كانت هناك قصة نسجها المؤلف من واقعه تُصوّر واقع نهب الكيان الصهيوني للأراضي الفلسطينية والبيوت القائمة عليها بعد نكبة عام 1948م؛ فقد زار (أبو) الفداء مع أحمد مسعود بيت أحد اللاجئين (أبو) حسين الذين كان يمتلك بيت عربي كبير ومائة دونم في قرية المسمية؛ فيخبره (أبو) الفداء عما حلّ ببيته وأرضه؛ فقد سكن بيته أحد اليهود اليمنيين، واستأجر أرضه كاملةً من الحكومة الصهيونية، ولما طُرد منها بعد اشتراكه في إحدى حركات التمرد ورزعتها الحكومة على المعهد الزراعي، وعلى عِدّة جهات⁽¹⁾.

وبذلك يكون الكيان الصهيوني ثابتاً في سياسة مُصادرة الأراضي في روايات أحمد رفيق عوض قبل اتفاقية أوسلو، أو ما بعد هذه الاتفاقية.

* ثانياً: الاستيطان الإسرائيلي، وتسخير الفلسطينيين لهذا الغرض:

الاستيطان هو الهدف الدائم لدولة الكيان الصهيوني، والأساس الذي قامت عليه هذه الدولة؛ ولقد تطرقت معظم روايات أحمد رفيق عوض إلى هذه الظاهرة سواء قبل اتفاقية أوسلو، أو ما بعدها؛ ففي رواية قدرون صورت بعض الجوانب لهذه الظاهرة قبل اتفاقية أوسلو؛ فالكيان الصهيوني عندما احتل الضفة الغربية سنة 1967م حوّل بعض الفلسطينيين إلى عبيد لها؛ الذين تركوا العمل في أرضهم ومُدنهم وقُراهم، وأصبحوا يعملون داخل المستوطنات في الأراضي المحتلة عام 1948م.

وصورت الرواية مدى الذلّ والعبودية عندما يتخبر صاحب العمل رجلاً قوياً من الفلسطينيين الذين ينتظرون العمل؛ وذلك لحفر حفرة امتصاص.

¹ - يُنظر : عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 67-75.

وعبد الهادي بعد أن تعرّض لضائقةٍ ماليّةٍ كبيرةٍ أصبح يعمل في أرضٍ زراعيّةٍ داخل ما يُسمّى إسرائيل، وهذه الأرض تعود ملكيّتها ليهودي يُدعى إسرائيل، وهكذا أصبح عبد الهادي عبداً لإسرائيل⁽¹⁾.

وعلى الرّغم من أنّ العمل داخل الكيان الصّهيوني عبوديّةٌ لهذِهِ الدّولة فإنّ مُعظَمَ الشّعبِ الفِلَسطيني أصبح يُنظرُ إليهم كقُدوةٍ؛ فعبد الهادي أصبح رئيساً للعمّال في أرضِ إسرائيل (أحد الصّهاينة) التي يعمل بها؛ فكان جميع شباب قدرون يسعون للعمل معه؛ ولمّا رسبَ ابنُ عبد الهادي عمر في المدرسة أخذهُ والده للعمل معه؛ فكان شقيقه جواد ينظر لعمر كقُدوة؛ فترك المدرسة بعد ذلك والتحق بالعمل مع والده وشقيقه عمر، وابن عمّهما علي كان ينظر إليهما كقُدوة؛ فقد ترك المدرسة، وذهب للعمل في البناء في قيساريّة⁽²⁾.

وهكذا أصبح بعض الفِلَسطينيين عبيداً للكيان الصّهيوني ومُستوطناتها؛ وقد كان لانخراط الشّعب الفِلَسطيني في العمل داخل المُستوطنات إفرازاتٍ عدّة سلبية، منها: إنّ نظرة هؤلاء إلى قيمة الأرض أصبحت مُتدنيّة؛ فهي بلا قيمة؛ فهذا علي كان يتحايل باستمرارٍ على جدّه للحصول على حصّته من الأرض ليتولّى بيعها بعد ذلك للمُستوطنين، وهذا ما نجح به في نهاية الرّواية، وقد حاول أيضاً أن يبيع قطعة أرضٍ لعمّه عبد الهادي ليستطيع بثمنها تمويل بناء بيته الجديد في حيّ أمّ الضّباع؛ ولكنّ عبد الهادي رفض⁽³⁾.

ومن الظّواهر التي أفرزها العمل في المُستوطنات التّهوين من قيمة التّعليم عند بعض الفِلَسطينيين المعروف بقُدسيّته؛ فكثيرٌ من الفِلَسطينيين أصبحوا يطمحون إلى العمل داخل الكيان الصّهيوني؛ فقد جرى حوارٌ بين زياد ووالده عبد الهادي حول جارهم أبي هشام الفقير؛ فتحدّثا عن أسباب فقره؛ فوجدّا

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رقيق، قدرون، ص 18 - 29.

² - يُنظر: المصدر السابق، ص 31 - 32.

³ - يُنظر: المصدر السابق، ص 54-57، 187-195.

أنَّ السَّببَ يتمثَّلُ في تعليم أولاده في المدارس، بالإضافة إلى دراسة ابنه هشام في الخارج؛ فتساءلَ زيادٌ عن السَّببِ الَّذِي يجعلُ الفلسطينيَّ يُصِرُّ على تعليم أبنائه؛ فسَخِرَ منه والدُه بِقوله إِنَّ الصُّورةَ تَغَيَّرَتْ اليوم؛ فالأولادُ يتركُونُ المدارسَ للعملِ داخلَ الكيانِ الصَّهْيونيِّ؛ فالعاملُ يَكسِبُ أكثرَ من أحسنِ وظيفة⁽¹⁾.

وفي روايةٍ آخرَ القرنِ جَرَى ذكرُ الاستيطانِ بطريقةٍ عابرة، فالاستيطانُ كما كان موجوداً قبلَ اتِّفاقيةِ أوسلو كان كذلك بعدَ هذه الاتِّفاقيةِ؛ فالاستيطانُ تصاعدَ في الأراضي التي يُسمِّيها الكيانُ الصَّهْيونيُّ أراضي دولة؛ فأبو يزن كبيرَ المفاوضين عندما تساءلَ عن الأشياءِ التي يُريدها الكيانُ الصَّهْيونيُّ من هذه المُفاوضاتِ أوردَ الدكتورُ شفيقُ بأنَّ الاحتلالَ يعملُ بوتيرةٍ عاليةٍ على استيطانِ الأراضي المُحتلَّةِ⁽²⁾.

واتَّفقتْ روايةُ قدرونٍ مع روايةِ آخرَ القرنِ في الحديثِ عن أهمِّيةِ الاستيطانِ لدولةِ إسرائيل؛ ففي الرِّوايةِ الأولى تحدَّثتْ عن سياسةِ الكيانِ الصَّهْيونيِّ في جعلِ الفلسطينيِّ يعملُ لديه، وجعله كذلك يُقلِّ من قيمةِ أيِّ شيءٍ يُنافسُ هذا العملَ كالتَّعليمِ مثلاً، أو العملَ في الأرض؛ وفي الرِّوايةِ الثَّانيةِ تحدَّثتْ عن تصاعدِ الاستيطانِ في ظلِّ المُفاوضاتِ الفِلسطينيَّةِ الإسرائيليَّةِ؛ وذلكَ للتَّعميةِ عن هذا الاستيطانِ؛ وبذلكَ يكونُ الاستيطانُ قد تضاعفَ وتزايدَ قبلَ اتِّفاقيةِ أوسلو، أو بعدَ هذه الاتِّفاقيةِ.

والاستيطانُ أصبحَ مسألةَ حياةٍ أو موتٍ بعدَ اتِّفاقيةِ أوسلو، وكُلُّ مواطنٍ إسرائيليٍّ لا يجدُ عملاً نجدهُ يتجهُ للعملِ في المُستوطناتِ؛ ففي روايةِ بلادِ البحرِ تفجَّرتْ لليهوديَّةِ اليمينيَّةِ عدنةُ فضيحةٍ مُدويةٍ بعدَ أن تبَيَّنَ أنَّ ابنها مورانَ الابنَ غيرَ الشَّرعيِّ هو ابنُ الوزيرِ المرموقِ في حزبِ العمل، وأنَّ ابنيها اللَّذينِ اختطفَا لحظةَ وصولها البلادَ هما شخصيتانِ بارزتانِ في الجهازِ الأمنيِّ الإسرائيليِّ؛ فانتشرَ الخبرُ

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 242-244، ص 249.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 95-99.

على أوسع نطاقٍ عن طريق الصحافة؛ ولذلك استقال الأبناء الثلاثة من وظائفهم، وذهبوا للاستيطان في مُستوطنةٍ نائيةٍ نُقِمَ على رأس جبلٍ فوق بيت لحم⁽¹⁾.

وتُصوّر رواية بلاد البحر دعم الحكومة الإسرائيلية المُطلق لقضية الاستيطان في الأراضي المُحتلّة عن طريق الحوار مع أحد المُستوطنين؛ فأبو الفداء أخذ أحمد مسعود إلى مستوطنة بسجوت التي تُشرف على البيرة من جهة الشرق، ثمّ دخلا بعد ذلك إلى بيت المستوطن موتي سلبيرغ الذي يعمل طبيباً في الوحدة العسكريّة المُتمركزة في تلك المُستوطنة.

وبعد حوارٍ طويلٍ دار بين هذا الطيّب وأبي الفداء تظهّر عدوانيّة موتي وعُنصريته غير المُبرّرة؛ فقد سأله أبو الفداء عن البيت الذي يسكنُ فيه من أين حصل عليه؟ فأجابهُ موتي بأنّ ثلاثة أرباع هذا البيت هديّة من حكومة الكيان، والرُّبع الباقي عبارة عن قرضٍ من البنك على شكلِ أقساطٍ مُيسّرة.

وهذا المُستوطن يتمنّى فراغ مدينة البيرة المُجاورة لمستوطنته من السكّان، ويريد من الفلسطينيين الرّحيل عن فلسطين، والذهاب للعيش في الصحراء⁽²⁾.

وهذه الرواية اتّفقت مع الروايات السّابقتان في الحديث عن أهميّة الاستيطان لدولة الكيان الصّهيوني؛ ففي رواية بلاد البحر كانت الحكومة الصّهيونيّة تدعم من يعيش في المُستوطنات، وتدفع له مُعظم ثمن البيت الذي يسكنه كما أخبرنا موتي.

ورواية بلاد البحر تُوضّح مدى دعم الكيان الصّهيوني للاستيطان؛ فعندما كانت أيّة جهة استيطانيّة تعلن بناء مُستوطنة عشوائيّة كانت إسرائيل تُسارع إلى تزويدها بالماء والكهرباء والهاتف، وتُشقُّ لها الشّوارع؛ فموران جاء على رأس مجموعةٍ من الصّهاينة الأمريكيين وقاموا باحتلال تلة الشومر؛ ثمّ وضعوا كرفانات هناك؛ فقامت إسرائيل بعد ذلك بشقّ الطّرق لها، وتزويدها بالماء والكهرباء والهاتف، وكان لدى المستوطنين علم اليقين بأنّ أحلامهم بتملّك هذه الأرض لن تُصبح حقيقةً بدون تبني قضية

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 75-76.

²- يُنظر: عدوان، سعد عودة، الشّخصيّة في أعمال أحمد رفيق، ص 148-149.

الاستيطان؛ ولذلك تطرقت روايات أحمد رفيق عوض إلى هذه الظاهرة الموجودة على الأرض الفلسطينية.

وازدهم المكان بعد ذلك بالمستوطنين، والحكومة الصهيونية أصبحت تُسابق الوقت في بناء البيوت للمستوطنين؛ فهذا أحمد مسعود يتحدث بأنه انطلق من رام الله إلى قدرون ليشارك في مسيرة ضخمة نظمتها عدة جهات سياسية ومدنية فلسطينية وصهيونية تؤمن بالسلام والعيش المشترك، وعند وقوفه على طرف الوادي المطل على وادي العبر فوجئ ببيوت المستوطنين تملأ الوادي⁽¹⁾.

وهذه المستوطنات كان لها أثر سلبي على حياة الفلسطينيين؛ فهذا أحمد مسعود فوجئ ذات مرة بأن مجاري المستوطنين الذين يعيشون بالقرب منه بدأت بالانهيار على شجر القندول والسريس⁽²⁾. روايات أحمد رفيق عوض سواء قبل اتفاقية أوسلو، أو بعدها تشابهت في بعض الوجوه التي صورت قضية الاستيطان؛ ففي رواية قدرون اعتبر الزاب شليطا أن الاستيطان حق طبيعي للشعب اليهودي الذي عاد إلى وطنه القديم الجديد، والذي فُدر لهذا الشعب في الكتاب المقدس.

وهذا الأمر تكرر في رواية بلاد البحر؛ فموتي الذي تحاور معه أبو الفداء اعتبر الاستيطان حق طبيعي للشعب اليهودي، ويتعين على العرب الذهاب إلى العيش في الصحراء بلادهم الأصلية، ويتمنى فراغ مدينة البيرة من أهلها.

ثالثاً: انتشار المظاهر الغربية في الأرض المحتلة:

رواية قدرون تتحدث عن صبغ الأرض العربية بالصبغة الغربية في مرحلة ما قبل اتفاقية أوسلو؛ فالكيان الصهيوني طمس المناطق الفلسطينية، وأقام مكانها المدن الصهيونية على النمط الغربي؛ فهذا علي ذهب مع بعض الأصدقاء إلى بارات تل أبيب، وعند مرورهم بمدينة نتانيا قال أحد الأصدقاء من فلسطين الداخل بأن هذه المدينة لم تكن موجودة قبل سبعين عاماً، وكان مقاماً عليها خربة أم خالد،

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 162-163، ص 175.

² - يُنظر: المصدر السابق، ص 217.

وأراضي هذه الخربة كان يملكها رجلٌ غنيٌّ؛ فرفض ما عرضه عليه اليهود من بيعٍ لهذه الأراضي؛ فسَلَطُوا عليه الكيف والنساء؛ فاحتاج إلى النقود ممَّا اضطرَّه إلى بيع الأرضِ قطعةً قطعةً حتَّى أصبح لا يملك من هذه الأراضي شيئاً، وأتى بعد ذلك مُقاوِل من بولندا إلى خربة أمَّ خالد؛ فأزال تلك الخرائب، وبنى هذه العِمَارَاتِ المُستقيمة، وسُمِّيتْ نَتَانِيَا بعد ذلك، وهي تُعني عطية الرَّبِّ، أو هديَّة الرَّبِّ⁽¹⁾.

وبعد أن أقامَ الكيان الصَّهْيُونِي المَدُن على النمط الغربي قام بِصَبغِ الأرضِ العربيَّة بالصَّبغة الغربيَّة، وقطع الصَّلَّة بالثقافة العربيَّة؛ فهذا علي أثناء سيره بسيارته في شوارع تل أبيب للذهاب إلى أصدِقائه في إحدى البارات رأى مظاهر غربيَّة؛ فقد رأى نساءً جميلاً عاريات في الشَّارِع، وكذلك رأى نساءً عجائز يسحبْنَ كلاباً قصيرة ورائهنَّ، ورأى شاباً يلبسون بنطلونات قصيرة وبلوزات تكشف الصِّدْر، ورأى أيضاً في الشَّارِع والبارِ الَّذِي ذهبَ إليه نساءً عاريات يعرضنَّ أنفسهنَّ بطريقةٍ مُعيَّنة⁽²⁾. وإذا كان المُجتمع العربي لا يقبلُ بوجودِ المِثْلين بصورةٍ علنيَّة في الحياة العامَّة؛ فإنَّ المُجتمع الصَّهْيُونِي كان يقبل أن يتقلَّد هؤلاء أعلى المناصب داخل دولة الكيان كغابرييل في رواية قدرون⁽³⁾، وفي الرِّوَاية ذاتها تأثَّر الفلسطينيون بالمُجتمع الصَّهْيُونِي إلى حدِّ كبير حتَّى في عطلهم؛ فقد أصبحت العطلة الرِّسميَّة عند الفلسطينيين يوم السَّبْت عوضاً عن يوم الجمعة، وهذا اليوم كان تُقام فيه المُناسبات الاجتماعيَّة⁽⁴⁾.

وبعد اتِّفَاقية أو سلو انتشرت مظاهرُ الحياة الغربيَّة في سماءِ رام الله؛ ففي مقامات العُشَّاق والتَّجَار انتشرت الشَّرَكَات الرِّبْحِيَّة، والشَّرَكَات الاستثماريَّة، والتي لا تفكَّر إلا في الرِّبْح فقط؛ فهذه الشَّرَكَات تقوم على سلعة كلِّ شيءٍ، وكلِّ شيءٍ فيها يُباع ويُشترى؛ فهذا محمَّد البعبول هرب إلى أمريكا بعد أن

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 310 - 312.

² - يُنظر: المصدر السابق، ص 145 - 151.

³ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 223 - 227.

⁴ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 75 - 92.

سَرَّب أراضي وعقاراتٍ كثيرة إلى الاحتلال، وهناك تعرّف على هالة رشيد مهباش التي تعمل في الدّعارة داخل مدينة نيويورك؛ فتزوِّج البعول منها، ثمّ قدم إلى رام الله مع زوجته؛ ليصبح وكيلاً لثلاث شركاتٍ صناعيّة كُبرى؛ وذلك بمُساعدة أشقّاء زوجته؛ فالشّركات الكبرى والوكالات أخذت تتسابق للعمل في رام الله (1).

وصورتُ رواية بلاد البحر مظاهر الحياة الغربيّة داخل الأراضي المُحتلّة؛ فهذا أبو الفداء أخذ أحمد مسعود في رحلةٍ إلى مدينة عكا، وهناك شاهدنا مظاهر الحياة الغربيّة كاللافتات العبريّة، والرّجال الذين يُشبهون الأجنبيّ، والنساء شبه العراة يسبحن في البحر، وكما أنّ اللواط كان مُنتشرًا داخل المُجتمع الصّهيوني (2).

وبيّنت رواية بلاد البحر جانباً آخر من مظاهر الحياة الغربيّة، وهو إغراق السّلطة الوطنيّة للشعب الفلسطينيّ بالمهرجانات الفنّيّة؛ فعمّت المهرجانات مُعظم مدن الضّفّة الغربيّة والقطاع في القرى المجهولة والجامعات الكبرى والصّغرى (3).

رابعاً: الفساد الأخلاقي:

قام الاحتلال الإسرائيليّ بنشر الفساد الأخلاقي داخل المُجتمع الفلسطينيّ سواءً قبل اتّفاقيّة أوسلو، أو بعدها؛ فرواية قدرون صورتُ لنا الفساد الأخلاقي داخل المُجتمع في مرحلة ما قبل اتّفاقيّة أوسلو؛ فهي صورتُ فساد أخلاق بعض العمّال داخل الكيان الصّهيوني؛ فقد كانت الإباحيّة مُنتشرة بينهم، وذهب بعضهم لممارسة الجنس مع بائعات الهوى بعد انتهاء عملهم نظراً لرؤية النساء البيضاوات

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشق والتّجار، ص 55 - 59.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 19 - 22، ص 24، ص 85 - 86.

³- يُنظر: المصدر السّابق، ص 98 - 99.

العاريات بالقرب من شاطئ البحر، وحاول بعض هؤلاء العَمَّال الاعتداء على شرف ابنة عمه، ومنهم أيضاً من أدمن على شرب الخمر⁽¹⁾.

وعودة بعض الفلسطينيين إلى الأراضي المحتلة عام 1948م للعمل كانت عودة ناقصة؛ فهؤلاء العائدون تأثروا بعدة صفاتٍ غريبةٍ للمجتمع الإسرائيلي؛ فأصبحوا يشربون الخمر، ويُقيمون العلاقات الجنسية المحرّمة.

وأما بالنسبة لمرحلة ما بعد اتفاقية أوسلو؛ فقد صورت رواية مقامات العشاق والتجار صور الفساد الأخلاقي؛ فهذا عبد الرحمن الصوفي أحد المناضلين السابقين كان يرى في المؤسسة التي يعمل بها نساءً كثيرات يلبسن تنانير قصيرة، ويتطاير من تحت أباطهن عطرٌ مُثير، وكان يمتنع عن الذهاب إلى بعض الموظفات لعدم وضعها شيئاً على جسمها؛ ولذلك سخر منه مديره، وأطلق عليه الموظفون عليه ابن عربي⁽²⁾.

والفساد الأخلاقي نما وترعرع داخل المجتمع الجديد؛ فانتشرت الظواهر الغريبة من حفلات أجنبية، ولبس خلع؛ ففي الرواية السابقة حديثٌ عن إحدى الحفلات الأجنبية، وما كان فيها من انحلال أخلاقي؛ فالتساء الحاضرات يلبسن ملابس مُثيرة⁽³⁾.

وظهر الفساد الأخلاقي على أوضح صورةٍ في رواية مقامات العشاق والتجار عن طريق انتشار الزنا؛ فهذا عطا الله احتفل مع إعاد وزوجته غرتسيا في أحد الفنادق بمناسبة الأرياح العظيمة لأحد الصفقات؛ وفي تلك الليلة نام عطا الله مع غرتسيا الفاتحة الجمال، والتي علّلت ذلك بأنها تُريد تجريب الفلسطينيين؛ فأخبرها عطا الله بأنه يحمل الجنسية الإسرائيلية مثلها بالضبط⁽⁴⁾.

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 32 - 37، ص 66 - 72، ص 109 - 125.

² - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتجار، ص 41 - 43.

³ - يُنظر: المصدر السابق، ص 41 . 43.

⁴ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتجار، ص 81.

وامتدّ الفساد الأخلاقي إلى داخل الشركات الخاصّة؛ فهذا أحد العُمال في شركة إنترأكشن رأى ذات مرّة داخل مكتب البعبول أنّ زوجته هالة تتبادل النظرات مع مُحمّد الحامض أحد الموظّفين في الشركة، وشاهدهما بعد ذلك أثناء زيارة الورشة يتبادلان القُبَل مع بعضهما وراء الأعمدة. وبعد فترةٍ جاء عطا لله السّمسار شريك البعبول إلى مكتبه؛ ثمّ ذهب إلى مكتب محمّد الحامض، وهُنَاك وجد معه امرأة ممثلة تلبس ثياباً مُثيرة وضيقة؛ فلمّا رآها عطا لله صرخ: عابدة ! وعندها قدّمت عابدة عطا لله إلى محمّد الحامض بأنّه زميلٌ قديمٌ في الجامعة⁽¹⁾.

والفساد الأخلاقي لم يقتصر على العلاقات المُحرّمة بين الرّجال والنساء، بل تعدّى ذلك إلى نظرة كثيرٍ من النّاس إلى الآخرين؛ فقد أصبحوا ينظرون باحترامٍ وتقديرٍ للذي في منصبٍ كبيرٍ في السّلطة، أو للذي له أقارب في مناصب كبيرة؛ فوسيم تزوّج رهامًا بعد معرفته أنّ عبد الرّحمن السلّوادي يكون عمّها⁽²⁾.

ومن صور الفساد الأخلاقي في رواية بلاد البحر أنّ أحمد مسعود كان يعملُ مُدرّساً للغة العبريّة عند السيّدة فريال، والتي كانت مُديرة معهدٍ صغيرٍ لتعلّم اللغات. وتمرّ عشر سنين ويسكنُ أحمد في عمارةٍ ما في أحد أحياء رام الله الجنوبيّة؛ وكان ينظر لها باحترام، ثمّ تفاجأ بعد ذلك أنّ الأجهزة الأمنيّة قد اعتقلت هذه السيّدة مع صديقتها بثُهمة الدّعارة، وأُفرج عنها في أحد الاجتياحات لمدينة رام الله⁽³⁾.

ومن الواضح أنّ هناك تشابهاً بين صور الفساد الأخلاقي بين مرحلة ما قبل اتّفاقيّة أوسلو ومرحلة ما بعدها في روايات أحمد رفيق عوض مع فارقٍ أصيلٍ بينهما؛ ففي مرحلة ما قبل اتّفاقيّة أوسلو كانت صور الفساد الأخلاقي تجري داخل الأراضي المُحتلّة عام 1948م، أو علاقة بالفساد الأخلاقي الذي

¹- يُنظر: المصدر السّابق، ص 90 - 91.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 209.

³- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 155.

يجري هناك، وأمّا في مرحلة ما بعد اتّفاقيّة أوسلو كانت صور الفساد الأخلاقي في مُعظمها تجري داخل المُجتمع الجديد الذي تشكّل في رام الله.

وكان عليّ وكثيرٌ من العُمال قد أدمنوا على شرب الخمر، واعتادوا على الدّهاب إلى الملاهي الليلية والبارات داخل الكيان الصّهيوني، وعرفوا كثيراً من العاهرات أثناء عودتهم النّاقصة في رواية قدرون. وأمّا في روايات أحمد رفيق عوض بعد اتّفاقيّة أوسلو كانت تلك الممارسات تجري داخل رام الله بعد العودة النّاقصة للسلطة الوطنيّة.

خامساً: العُملاء والسّماسرة:

انتشرت ظاهرة العُملاء والسّماسرة بين الفِلسطينيين في مرحلة ما قبل اتّفاقيّة أوسلو؛ ففي رواية قدرون قام علي الرّمحي بتطليق زوجته من آل الطّواشي؛ فاندلعت اشتباكات بين العائلتين؛ فقام أحد آل الرّمحي بإشهار مُسدّسه في وجه آخر من آل الطّواشي في المقهى، وفي أثناء تلك الاشتباكات اجتمع زياد الرّمحي مع صديقهِ من عائلة الطّواشي زكي ورشدي، واتّفق زياد معهما على أن يقوم بحرق بيت هذا العميل الذي ينتمي إلى آل الرّمحي.

قام صديقاً زياد بالاعتراف عليه بأنّه حرق بيت العميل؛ فاعتُقل ذات ليلة، ووُضع في زِنزانه صغيرة⁽¹⁾.

وقام بعض الفِلسطينيين بالوقوف في صفّ العُملاء؛ وذلك طمعاً في المصالح التي يحصلون عليها عن طريق هؤلاء العُملاء؛ فالعميل قاسم الرّمحي طالب عبدالهادي بدفع تعويضٍ نظير إحراق زيادٍ لبيته، وكان عددٌ لا يستهان به من آل الرّمحي يقفون في صفّ هذا العميل طمعاً في تحقيق بعض المصالح عن طريق هذا العميل⁽²⁾.

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 130 - 134، ص 159 - 170.

² - يُنظر: المصدر السابق، ص 177 . 178.

وفي رواية قدرون انتشرت ظاهرة السّامسة؛ فقد قامَ علي بعدَ عمله كسِمَسارٍ لِلاحتلالِ بتجنيدِ أقربائه لِتسريبِ الأراضِي إلى الاحتلالِ بِدونِ علمهم؛ فهذه بُثينة ذهبت لِزيارة أمّها؛ فالتقتُ هُنَاكَ بعلي، وفي أثناء هذه الزّيارة عرضَ على أُخته خمسة آلاف دينارٍ لها، ومثلها لِزوجها إذا قاما بِمُساعدته في الحصولِ على أوراقِ ملكيّة أرضِ الجدِّ، وأخبر بُثينة بعلمه أنّ أسرة عمّه عبد الهادي وجدوا آثاراً في الأرض، وإذا علم الكيان الصّهيوني بهذا الموضوع فإنّها ستُصادر الأرض؛ فالعقل يقول بأنّ تُبادر بِبيع الأرض لِإنكسب الألوْف.

اقتنعتُ بُثينة بِفكرة بيعِ الأرض، وأقنعتُ زوجها بذلك؛ وبسرعةٍ قاما بِمُساعدة علي في الحصولِ على أوراقِ ملكيّة أرضِ الجدِّ؛ وخلال يومين كانت أوراقِ ملكيّة الأرض في يدِ علي، والذي بدوره باع الأرض إلى الرّاب شليطا؛ وهذه الرّواية قدرون وضّحت بعض الأدوار المطلوبة من العملاء والسّامسة؛ وذلك لِخدمة المشروع الصّهيوني⁽¹⁾.

وبقيت ظاهرة العملاء والسّامسة مُنتشرة في المُجتمع الفِلِسطيني بعد اتّفاقيّة أوسلو؛ ففي رواية مقامات العُشّاق والتّجار تحوّل عطا الله إلى سمسارٍ لدى الاحتلال؛ فبعد أنّ سرّب العديد من الأراضِي والعقارات إلى الاحتلال قام شريكه الإسرائيليّ إلعاد بتعريفه على عددٍ من السّامسة داخل مدينة القدس، واجتمع عطا الله معهم في إحدى المقاهي في شارع يافا - القدس، وحينها تحدّثوا عن الصّفقات التي نجحوا بها، وسخروا من صمود الشّعب الفِلِسطيني وكفاحه، وتحدّثوا عن مُحادثات السّلام في مدريد أنّها عودة إلى الحُضن الصّهيوني⁽²⁾.

وبالنّسبة لِوجود العملاء في رواية مقامات العُشّاق والتّجار؛ فقد كانت ممثّلةً بِشخصيّة مُحمّد أبو معروف (البعبول)، والذي عمِل في بداية حياته مُديراً لمكتب العمل بتشجيعٍ من الاحتلال، ثمّ صار رئيساً لِإحدى روابط الفُرَى في السّبعينيّات من القرن الماضي، وعندما اندلعت الانتفاضة الفِلِسطينيّة

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 299 - 309.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشّاق والتّجار، ص 83.

عام 1987م هرب إلى الولايات المتحدة خوفاً على حياته بعد أن تمّ اختطافه أكثر من مرّة على أيدي القوى الوطنيّة، وعاد بعد قدوم السّلطة الوطنيّة إلى رام الله ليُصبح نجماً اقتصادياً من نُجوم المال والاقتصاد⁽¹⁾.

وتحدّثت رواية آخر القرن عن عدم مُعاقبة العملاء بعد اتّفاقيّة أوسلو؛ فالسّلطة الوطنيّة لم تتحرّك ضدّ هؤلاء الذين خانوا أوطانهم سنوات طويلة، ومن أبرز هؤلاء العملاء لُطفي سويلم، والذي بدأ حياته مُخبِراً للإنجليز في الثلاثينات من القرن الماضي، حيث لاحق الثّوار في منطقة جنين و نابلس، ثمّ شارك في فصيلٍ مسلّحٍ للجواسيس بدعّمٍ من الإنكليز، وبقي على ذلك حتّى سنة 1948م، ثمّ هرب إلى الأردن والعراق ومصر ليخدم في الجيش البريطاني، ثمّ عاد إلى نابلس سنة 1966م ليتزوّد للمرّة الثّانية، وفي عام 1967م احتلّ الكيان الصّهيوني نابلس؛ فالتحق لُطفي بالشرطة الصّهيونيّة برتبة كبيرة، ثمّ أصبح مُنسقاً لروابط القرى في مُختلف المُحافظات، وأخيراً انضمّ إلى الإدارة المدنيّة، وسرّب أراضي كثيرة للمستوطنين.

وعند مجيء السّلطة الوطنيّة توقّع كثيرٌ من النّاس أن يُحاسب حساباً عسيراً، وهذا لم يحصل؛ فقد استدعتهُ الأجهزة الأمنيّة عدّة مرّات، ثمّ توقّف الاستدعاء، ولم يُحاسب على شيء⁽²⁾.

ويظهر ممّا سبق أنّ ظاهرة العملاء والسّماسرة كانت موجودةً في روايات أحمد رفيق عوض قبل اتّفاقيّة أوسلو، وما بعدها؛ فمنذ أن وُجدَ الاحتلال الإسرائيلي عمل على إيجاد عملاء يخدمون أمنه، وسماسرة يقومون بتسريب الأراضي الفلسطينيّة إلى المُستوطنين؛ ففي رواية قدرون كانت شخصيّة العميل متمثّلة في شخصيّة قاسم الرّمحي الذي أحرق زياد بيته، وكان بيده كثير من الصّلاحيات، مثل التّوظيف في المُوسسات الفلسطينيّة كما حصل مع أبنى الرّمحي التي عجزت عن العمل إلا بمُساندة هذا العميل؛ وذلك مُقابل مبلغٍ من المال، وتكرّرت شخصيّة العميل في مقامات العُشّاق والتّجار مُتمثّلة

¹- يُنظر: العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر، ص91، ص41.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 220 - 222.

في مُحمّد البعبول الذي هرب في الانتفاضة الفلسطينية عام 1987م خوفاً على حياته إلى الولايات المتحدة ليعود بعد قدوم السلّطة الوطنيّة نجماً من نجوم المال والاقتصاد، وجميع المناضلين كانوا يتهافون للعمل عنده.

ووجه الشّبه بين قاسم الرّمحي، ومُحمّد البعبول أنّهما كانت في أيديهما صلاحيّات كبيرة؛ ولذلك تهافت الجميع لإرضائهم؛ فالأوّل يُمنّل العميل قبل اتّفاقيّة أوسلو، والثّاني يُمنّل العميل بعد هذه الاتّفاقيّة.

وأما دور سماسرة الاحتلال قبل اتّفاقيّة أوسلو فقد مثّلها علي الرّمحي وتوفيق السّاري في رواية قدرون، واللّذان سرّبا كثيراً من الأراضي إلى المُستوطنين، وكان آخرها الأرض التي سرّبها علي إلى الرّاب شليط ا، وأما دور السّماسرة بعد اتّفاقيّة أوسلو فقد مثّلها عطا الله الذي تحوّل من مناضلٍ وأسيرٍ سابق إلى شريكٍ لإلّعاد في تسريب العقارات القديمة في القدس، والسّماسرة سواءً قبل اتّفاقيّة أوسلو، أو بعدها كانوا يعملون بدافع الثّراء السّريع بعيداً عن البعد الوطني؛ وهذا ما دفعهم لخيانة وطنهم، وتسريب الأراضي للمستوطنين.

سادساً: المشاعر السّليبيّة:

كان من المشاعر السّليبيّة المُشتركة في روايات أحمد رفيق عوض قبل اتّفاقيّة أوسلو، وما بعدها ظاهرة الانتهازية لدى كثيرٍ من النّاس؛ ففي رواية قدرون انتشرت هذه الظّاهرة في حيّ أمّ الضّباع قبل اتّفاقيّة أوسلو؛ فلما ظهر عددٌ من مُتعهدي العمّال في هذا الحيّ أخذ جميع سُكّان الحيّ يتقربون منهم، وربّما تودّدت إليهم إحدى زوجات العمّال العاطلين عن العمل؛ وذلك طمعاً في فرصة عملٍ في إسرائيل⁽¹⁾.

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 10.

وإذا كانت هذه الانتهازية قد ظهرت قبل اتفاقية أوسلو؛ فإنها قد ظهرت بعد هذه الاتفاقية يلزمها تصرفات أخرى، مثل الكذب والنفاق؛ ففي رواية بلاد البحر كان الأستاذ فلاح يُبدّل مواقفه للحصول على مصالحه، ويرفض التعصّب والتطرّف؛ ولذلك دعا إلى تفسير الآيات القرآنية حسب المصالح الآتية، ودعا أيضاً إلى التعايش مع الكيان الصهيوني⁽¹⁾.

وسجّلت روايات أحمد رفيق عوض ظاهرة الاضطراب النفسي سواءً في مرحلة ما قبل اتفاقية أوسلو، أو ما بعدها؛ ففي رواية قدرون كان توفيق الساري وعلي الرّمحي مُنشغلين بوضع الخطط للاستيلاء على أكبر قدرٍ من الأراضي لتسريبها إلى المُستوطنين، وفي أثناء ذلك تناقشا في الأشياء التي تدفع العميل لخيانة وطنه وشعبه؛ فمنها أنّ العالم الذي أحبه يكون قد انهار أمامه. وهذا النقاش يكتسب أهميةً كبيرةً؛ فهو يُصوّر الاضطراب النفسي الذي يُعاني منه العميل؛ وهذا التصوّر صادق لكون المُتحدّثان ينتميان إلى شريحة العُملاء.

ومن ضمن هذا النقاش أنّ المُتعاون يحتقر نفسه في بعض الأحيان، ويندم في أحيانٍ كثيرة، ويتمنّى الموت، أو الهرب، أو الغوص ألف مترٍ في باطن الأرض، وإذا كان الناس يكرهون المُتعاون؛ فإنهم لا يعرفون أنّ المُتعاونين يكرهون أنفسهم.

ويتّضح أنّ علياً وتوفيقاً يُقرران باضطرابِ فئة العُملاء والمُتعاونين؛ وذلك يكتسبُ مصداقيةً لكونهما ينتميان إلى الفئة نفسها⁽²⁾.

وبعد اتفاقية أوسلو تكرّرت ظاهرة الاضطراب النفسي لدى فئة العُملاء مُمثّلةً بالكآبة والقلق؛ ففي رواية آخر القرن كان أبو يزن كبير المُفاوضين من ضمن العائدين إلى فلسطين، ولم يستطع إرجاع زوجته وأولاده إلى فلسطين ممّا تسبّب له في الكآبة والقلق، وحتىّ إنّه مات وحيداً في فلسطين دون أن يتمكّن أهله من توديعه؛ وكان أبو يزن يدخل فترات كآبةٍ طويلةٍ وقلقٍ نتيجةً لافتقاده.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 211 . 213.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 256 - 260.

وكانت نهاية (أبو) يزن حزينه؛ فقد مات في مكتبه الذي استعمله كمكتبٍ وكمكانٍ للنوم، ومات وحيداً بين أوراقه وأدوات مطبخه⁽¹⁾.

ووجه الشبه بين رواية قدرون ورواية آخر القرن في ظاهرة الاضطراب النفسي أنّ الاحتلال هو الذي تسبّب في ظهور هذه الظاهرة؛ ففي رواية قدرون عمل الاحتلال على إيجاد العملاء واصطيادهم، واستغلال كلّ ظروفهم السيئة لجعلهم عملاء مما سبّب لهم الاضطراب النفسي نظراً لتأنيب الضمير، وكراهية الذات واحتقارها.

وفي رواية آخر القرن عمل الاحتلال على منع زوجات بعض العائدين وأولادهم من العودة إلى فلسطين؛ ما سبّب لهم الاضطراب النفسي نظراً للشعور بالكآبة والتوتر والقلق لعدم رؤية أفراد أسرهم. وظهر الاضطراب النفسي في رواية بلاد البحر؛ فهذا الاضطراب النفسي جعل الإنسان يتصرّف بتصرفاتٍ غير سوية؛ ولذلك تُعتبر ظاهرة الانفصام في الشخصية من ضمن ظواهر الاضطراب النفسي.

وكانت ظاهرة الانفصام في الشخصية واضحة لدى السلطة الوطنية؛ فهي تتبنّى الموقف ونقيضه في الوقت نفسه نتيجة المأزق الذي أوقعته بها اتفاقية أوسلو؛ فمن جهةٍ هي مرتبطة بمواثيق دولية مع دولة الاحتلال، ومن جهةٍ أخرى لا يُمكنها أن تقف أمام طموحات شعبها؛ ولذلك قامت السلطة بتسوياتٍ وخطابٍ مضطرب وتباين حقيقي في وجهات النظر ومعالجة الأمور⁽²⁾.

وفي هذه الزاوية فرضت إسرائيل ظاهرة الاضطراب النفسي على مؤسسات الدولة الفلسطينية المُفترضة؛ فهي كانت تُحاسب السلطة الوطنية على كلّ تصريحٍ أو فعل؛ مما جعل السلطة الوطنية تُعاني من الاضطراب النفسي؛ فهي تتبنّى الموقف ونقيضه.

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 266 - 267.

² - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 157 . 158.

ووجه الشبه أنّ ظاهرة الاضطراب النفسي كانت من صنع الاحتلال وتدبيره في روايات أحمد رفيق عوض سواءً قبل اتفاقية أوسلو، أم بعدها؛ ففي رواية قدرون طال الاضطراب النفسي شخصية العميل الذي أوقع به الكيان الصهيوني في برائته مُستغلّة انهيار عالم هذا الشخص، وسوء ظروفه، وعن طريق اصطياده بإحدى النساء الجميلات، والتي كانت تُمثّل عليه الحبّ، وفي رواية آخر القرن طال الاضطراب النفسي شخصية أبي يزن أحد العائدين نتيجة عدم رؤية زوجته وأولاده بعد أن منع الاحتلال عودتهم؛ وفي رواية بلاد البحر طال الاضطراب النفسي السُلطة الوطنية بذاتها؛ وذلك نظراً لمُحاسبة إسرائيل الشديدة على كلّ فعلٍ، أو تصريحٍ يصدرُ عنها.

ومن المشاعر السلبية المُشتركة بين الروايات الشعور بالوحدة والعجز والذنب؛ ففي رواية قدرون سجّلتُ شعور العملاء بالعجز؛ فبعدَ أن أُرجعَ الشرطي إلى علي أوراقه الثبوتية، وعدّل عن قراره بتحويله إلى المحكمة بتهمة البقاء داخل حدود دولة الكيان الصهيوني بعد الثانية عشرة ليلاً، وقال له بأنك عربي على كيفك؛ تولّد لدى هذا العميل (علي) إحساس بالذنب، وفكّر كثيراً في عبارة عربي على كيفك، وهل هي أفضل من عربي ليس على كيفك؛ فعندها شعر بالوحدة والعجز، وأنّه منبوذ⁽¹⁾.

وفي رواية آخر القرن صوّرت المشاعر نفسها عند عودة المُفاوض الفلسطيني محمود السلوادي إلى موطنه الأصلي تحت راية العلم الصهيوني، وموطنه الأصلي هو سهل الرّوحة في حيفا الذي لجأ إليه والداه، وتبدأ الرواية بتوجّه سيارته هذا المُفاوض إلى فندق دان بتلّ أبيب لمُفاوضة حاييم شلومو أحد المُفاوضين الإسرائيليين، وهذه المُفاوضات تدور حول قضية اللاجئين بعيداً عن عودتهم إلى ديارهم. والرواية نجحت في توصيل حالة الألم التي تعتصر هذا المُفاوض؛ فهو يعود إلى بلده الأصلية التي

لجأ منها ليُقرّر لهم بإسرائيلية المكان⁽²⁾.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 234 - 235.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 3 - 4.

وللشعور بالألم ما يُبزره؛ فمحمود يشعر بالهزيمة التي عرّفها في مفهومها الواسع؛ فالهزيمة هي أن تنزع من يديك المبادرة، والعزيمة للنهوض، والإرادة في المقاومة.

وهذا الشعور بالهزيمة جعل محمود السلوادي يُحسُّ بالعجز، وعدم القدرة على الإصلاح⁽¹⁾.
ووجه الشبه بين صورة العجز والوحدة في روايات أحمد رفيق عوض قبل اتفاقية أوسلو، وما بعدها أن الاحتلال نجح في اضطهاد بعض الفلسطينيين، والإيقاع بهم في وحل العمالة للكيان الصهيوني، وبعد ذلك قامت سلطات الاحتلال بمعاملة هؤلاء العملاء بمعاملة خاصة، وشاذة عن معاملة بقية الفلسطينيين، وهذا جعل العملاء، ومن ضمنهم علي يشعرون بالوحدة والعجز.

وفي رواية آخر القرن نجح الاحتلال في فرض وقائع جديدة على الأرض المحتلة عام 1948م ما تسبب في شعور الفلسطينيين العائدين إلى وطنهم الأصلي بالوحدة، والعجز من استعادة هذا الوطن المحتل في ظلّ المفاوضات الجارية بين الفلسطينيين والصهاينة.

كانت هناك صور كثيرة متشابهة للعودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض سواءً قبل اتفاقية أوسلو، أو بعدها من مشاعر سلبية، ووجود العملاء والسماسة، وانتشار المظاهر الغربية، وسوف يأتي بعد قليل مظاهر التباين للعودة الناقصة في الروايات السابقة

¹- يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص 161.

المبحث الثالث: مظاهر التّباين في صور العودة النّاقصة في الرّوايات:

المبحث الثالث: مظاهر التباين في صور العودة الناقصة في الروايات:

من الواضح للعيان أنّ هناك تبايناً واضحاً في صور العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض بين مرحلتَيْ ما قبل اتّفاقيّة أوسلو، وما بعدها نظراً لتغيّر الزمن واختلافه، ومن أهمّ مظاهر التباين في صور العودة الناقصة بين الروايات:

أولاً: تبدّل القيم:

صوّرت رواية قدرون القيم الأصيلة، والعادات العربيّة المنغرسّة في المجتمع الفلسطيني؛ فالعمّ عبد الهادي الرّمحي قام بالزّام نفسه بمُتطلّبات أسرة أخيه الشّهيد صالح دون أن يطلب منه أحد ذلك؛ وذلك كان سبباً لسُخط علي ابن الشّهيد صالح على بيت عمّه؛ فهو وجد أسرته عالية على بيت عمّه عبد الهادي؛ فترك المدرسة ليقوم بواجب الوفاء بمُتطلّبات أسرته، وكما أنّ البُعد الوطني كان حاضراً في الرواية؛ فهذا زياد ابن عبد الهادي الرّمحي يقوم بحرق بيت قريبه قاسم الرّمحي لكونه أحد المتعاونين مع الاحتلال؛ وذلك بدافعٍ وطنيٍّ خالص⁽¹⁾، ولكنّ هذه القيم تبدّلت بعد اتّفاقيّة أوسلو، وظهر ذلك جلياً في روايات أحمد رفيق عوض بعد هذه الاتّفاقيّة؛ ففي رواية مقامات العُشّاق والتّجار انتعشت المشاريع الخاصّة بالفلسطينيين بعد قُدوم السّلطة الوطنيّة؛ فقد أخذت العِمارات تتسابق في الارتفاع، وما إنّ تُبنى العِمارة حتّى يتسابق إليها رجال الأعمال.

وبذلك ضاع الهمّ الوطني، وتبدّلت القيم الوطنيّة بالقيم الماديّة والرّبحيّة؛ وفي ظلّ تبدّل القيم لأبديّ أنّ يرتفع شأنُ العمّلاء الذين باعوا أنفسهم للأعداء، وكذلك ستخفّض قيمة المناضلين الذين ضحّوا بأنفسهم في سبيل الوطن؛ فمحمّد أبو معروف (البعبول) كان عميلاً للاحتلال؛ ولذلك اختطفته الفصائل الفلسطينيّة مرّاتٍ عدّة في أثناء انتفاضة عام 1987م؛ فهرب إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة خوفاً على حياته.

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 159 - 170.

ومن العجائب التي حصلت له بعد عودته إلى الأراضي الفلسطينية بعد مجيء السلطة الوطنية أنه قد أصبح أحد كبار التجّار، ونجماً من نجوم المال والاقتصاد في سماء رام الله، وسكن في فيلاً كبيرة⁽¹⁾.

وإذا كان العميل قد تغيّرت حياته إلى أفضل الأحوال بعد اتفاقية أوسلو؛ فالمُناضلون الذين ناضلوا قبل اتفاقية أوسلو من أجل الوطن وجدوا أنفسهم بعد هذه الاتفاقية مُجبرين على تغيير تفكيرهم وتوجهاتهم ليتماشى مع العصر الجديد؛ فهذا مُحمّد الحامض مسؤول الحزب اليساري في شمال الضفّة الغربيّة تحوّل من مُطارِدٍ في الجبال إلى مُفاوضٍ للصّهاينة في واشنطن وجنيف وباريس، ثمّ حصل على الماجستير من جامعات ألمانيا، وانتقل ليعمل مُستشاراً لمُحمّد البعبول، والذي يُدير شركة (إنتر آكشن)؛ وعمل عند البعبول بالرغم من أنه قام باختطافه زمن الانتفاضة⁽²⁾.

ولم يكن مُحمّد الحامض شخصاً استثنائياً، بل إنّ كثيراً من المُناضلين فعلوا الشيء نفسه، وغيروا تفكيرهم ليتماشى مع الواقع الجديد؛ فعطا الله سُجِنَ مرّاتٍ عدّة بسبب الالتزام ببرامج الانتفاضة عبر حزبه اليساري؛ فبعد اتفاقية أوسلو يخرج من السّجن، ويتخلّى عن حزبه، ويبيع نفسه لجورجيت؛ فيتزوّجها ويسكن في بيتها ببلدة بيت حنينا، وتسعى بكلّ جهدها لاستخراج الجنسيّة الإسرائيليّة حتّى يتمّ ذلك، وكان يُدير لها تجارة الأدوية، وفي أثناء ذلك يقوم بتهريب الأدوية عن طريق تاجر صهيوني من هرتسليا؛ فيُصبح ثرياً، ويجمع أكثر من مليون ونصف من الدُولارات في سنواتٍ قليلة، ثمّ اشترى مطعم دلال في البلدة القديمة من القدس.

وكان عطا الله يسكر كثيراً في بارات فنادق القدس الشّرقية، ثمّ ذهب بعد ذلك ليسكر في بارات فنادق القدس الغربيّة، وهناك تعرّف على إعاد وزوجته غرتسيا، وقدّما نفسيهما على أنّهما يعملان في تجارة المجوهرات والذهب، ثمّ عقد معهما الصفقات التجاريّة، والتي كانت أرباحها عظيمة، ثمّ أقام

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشّاق والتّجار، ص13، ص 37 - 39.

²- يُنظر: العيلة، زكي، صورة الذات وضورة الآخر، ص30.

شراكة مع إعاد لشراء الأراضي والعقارات في البلدة القديمة من القدس مقابل عشرين بالمائة عن كلّ عملية بيع؛ وبذلك قام بتسريب العديد من الأراضي والعقارات إلى إعاد⁽¹⁾.

ومما يؤكّد تبدّل القيم في رواية مقامات العشاق والتّجار أنّ مُناضلي الأمس أصبحوا يعملون لدى عملاء الأمس؛ فهذا مُحمّد الحامض الذي شارك مع الفدائيين في خطف البعبول أصبح يعمل مُستشاراً مالياً في شركة (إنتر آكشن) التي يملكها البعبول؛ وبعض المُناضلين أصبح شريكاً للعملاء في أعمالهم؛ فهذا عطا الله المُناضل السّابق أصبح شريكاً للبعبول في شراء العقارات والأراضي⁽²⁾.

ولم يتوقّف تبدّل القيم على المُناضلين؛ فقد امتدّ هذا التبدّل إلى جميع الناس، والذين أصبحوا يبحثون عن الثراء السّريع؛ فهذا جابر جابر يسأل صديقه سامح اللداوي عن الطّريق إلى الدّول المانحة وقروضها ومساعداتها؛ فأجابه سامح بأنّ تُنشئ مُنظمة حُكوميّة تُعنى بالحريّات والديمقراطيّات، أو تُعنى بشؤون الطّفّل، أو دار نشر الكُتب الأمريكيّة؛ وبقيتا يتناقشان في ذلك، ولكنهما وجدا أنّ ثمة الكثير من هذه المُنظّمات.

وكانا يتسالان باستمرار عن الطّريقة في تكوين ثروة بأسرع ما يُمكن، وكان جابر قد عمل بائعاً في متجر، ثمّ بائعاً مُتجولاً يحملُ على كتفه حقائب مليئة بملابس النّساء الداخليّة.

استأجر سامح وجابر مكتباً صغيراً في عمارة البعبول من شريكه عطا الله، وقالوا للنّاس بأنّ هذا مكتب للخدمات العامّة، ولم يعرفوا بالضبط ماهي الخدمات العامّة، وبعد مُضيّ أسبوعٍ من افتتاح هذا المكتب اكتشف سامح وصديقه أنّه لا أحد من النّاس يهتمُّ بهذا المكتب؛ ولذلك قرّرا إغلاقه، والعودة إلى بيع الحَضراوات.

وذهب سامح إلى مكتب عطا الله ليُرتّب معه مسألة أجرة المكتب؛ فوجد هناك جورجيت وحدها، والتي تتكفّل بجميع مصاريف هذا المكتب مُقابل أنّ يبقى بالقرب منه؛ فهي معجبةٌ به.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتّجار، ص 77 - 84.

²- يُنظر: المصدر السّابق، ص 90 - 91.

وبعد يومين جاء عطا الله إلى المكتب، وسأل عن سامح، ثم أخبره بأنه سوف يصبح سائق زوجته الخاص، وأما جابر فقد أخذه معه ليوزع الأدوية على الصيدليات في مختلف مدن الضفة الغربية، وشجعه عطا الله على تخزين الأدوية في مكتبه، والقيام ببعض الصفقات بنفسه، وإذا بالنقود تجري في يديه بشكلٍ لم يحلم به يوماً.

وكانت نهاية جابر وصديقه سامح مؤلمة؛ فقد دخل السجن بتهمة ترويج الأدوية الفاسدة؛ وذلك لأن الأجهزة الأمنية وجدته يخزن الأدوية في مكتبه، وفي ظروف لا تراعي المعايير الصحية في التخزين، ولا يلتزم بالتسعيرة، وفي زلزلة السجن وجد صديقه سامح يبكي فقد عرف أن يكون عبداً لامرأة كالبرميل؛ فسرق مصاعها وهرب، ولكنه اعتقل في الليلة ذاتها (1).

وهذا التبدل في القيم لم أجد له مثيلاً في رواية قدرون التي تحدثت عن مرحلة ما قبل اتفاقية أوسلو، وألاحظ في رواية قدرون إشارات لتبدل القيم في المجتمع الفلسطيني؛ وذلك مثل: ترك العمل في الأرض الفلسطينية، والاتجاه للعمل داخل الكيان الصهيوني، وكذلك ترك كثير من الطلاب للدراسة في المدارس، والاتحاق للعمل داخل الكيان الصهيوني.

وفي رواية آخر القرن وجدتُ تبدلاً للقيم داخل المجتمع الفلسطيني نظير ذلك التبدل في القيم الذي وجدته في رواية مقامات العشاق والتجار؛ فهذا محمود السلوادي المعتقل السابق أصبح يُفاوض حاييم شلومو الذي يعرفه معرفةً شخصيةً لكثرة اللقاءات معه في العواصم العالمية المختلفة؛ وبذلك أصبح التطبيع الاجتماعي بين الفلسطينيين والإسرائيليين ظاهراً للعيان، وبشكلٍ رسمي.

وهذه الرواية بيّنت أن التبدل في القيم طال معظم شرائح المجتمع الفلسطيني بعد اتفاقية أوسلو؛ فجماهير الشعب بدأت تتأطر في مؤسسات مدنية؛ بالرغم من أن التنظيم لم يمهده دوره في التحرير، وكما إن بعض القيادات كوّنت ثروات طائلة وأموالاً على حساب الشعب؛ فبعد أن أنهى محمود

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العشاق والتجار، ص 101 - 106.

السّلوادي تقديم تقريره للقيادة حول سير المُفاوضات نام في أحد فنادق غزّة؛ ففوجئ في الصّباح بصديقيهِ القديمين فارس العبد (رائد في الأمن الوقائي) من جنين، وسامي أبو الرّوس (رائد في المُخابرات العامّة) من نابلس، ودار بينهم حوار، وكان من أبرز ما جاء فيه:

محمود سأل صديقيه عن صحّة اعتقاده بأنّ جماهير الشّعب بدأت تتأطّر داخل المؤسّسات، وأنّها نسيّت مرحلة التّنظيمات الفِلسطينيّة؛ فأجابه فارس بأنّ التّنظيم ما زال ضرورة تاريخيّة.

وعندما سأل أحد الصّديقين محمود عن شرائه بيتاً في رام الله أجابه بالنفي؛ فمن أين له بأربعين ألف دولار؛ فردّ عليه فارس بأنّ الجميع في رام الله يُدبّر نفسه.

وخاطب سامي محمود السّلوادي بأنّه يفتقر إلى الحيلة؛ فهذا سُفيان إبراهيم الذي يعرفه يملك الآن مئات الآلاف، وبالرّغم من كونه مُديراً عامّاً في إحدى الوزارات إلّا أنّه استطاع أن يُصبح تاجراً كبيراً جرّاء استغلال منصبه للمنفعة الخاصّة⁽¹⁾.

وإذا كان التّبدّل في القيم طال شريحة المُناضلين في رواية مقامات العُشّاق والتّجار كمحمّد الحامض وعطا الله؛ فإنّه في رواية آخر القرن قد طال هذه الشّريحة أيضاً؛ فالمُناضل عمر فيصل كان السّجن له علامة فارقة؛ فهو تحوّل من شخصٍ مُناضلٍ يعمل لِصالح الوطن إلى شخصٍ انتهازي يعمل لمصلحته الشّخصيّة بعد رؤيته لتبدّل القيم في المُجتمع، وأصبح يتحدّث مع الصّهاينة حول فوائد السّلام⁽²⁾؛ وهذا مُخالف لما رأيناه في رواية قدرون؛ فالمُناضل يبقى مُناضلاً قبل السّجن وبعده، ولا يتغيّر أبداً؛ فزياد مثّل شخصيّة المُناضل في تلك الرّواية؛ فبعد أن أحرق بيت المُتعاون قاسم الرّمحي سُجن فترةً من الزّمن، ولمّا خرج لم يتغيّر، ولم يتبدّل أبداً، وعندما عرف أنّ ابن عمّه علي قد تعاون

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 1 - 2، ص 79 - 84.

²- يُنظر: المصدر السّابق، ص 224 - 227.

مع الاحتلال في تسريب أرض جدّه إلى الزّاب شليطا قام بعملٍ مقاومٍ آخر؛ فقد ترصد لحظة وصول ابن عمّه إلى بيته في حيّ الضّباع، ثمّ أطلق عليه النّار⁽¹⁾.

ومنّ علامات تبدّل القيم في المجتمع الفلسطينيّ إصابة كثير من الفلسطينيين بسُعار جمع المال؛ فهذه رهام بنت ماجد السلّودي أُصيبت بهذا الدّاء بعد إدارتها لمعرض ثياب زوجها⁽²⁾.

وسُعار جمع المال لم نجدّه في رواية قدرون؛ فعبد الهادي الرّمحي الذي أصبح مُتعهّداً للعمّال داخل الكيان الصّهيوني لم يُصب بسُعار جمع المال، بل إنّ أقصى ما فعله بناء بيتٍ جديد في حيّ أمّ الضّباع.

وأجد أنّ بعد اتّفاقيّة أوسلو جاءت مرحلة تبدّلت فيها القيم المعنويّة، وضاع الهمّ الوطني، وانتشرت القيم الماديّة والانتهازية، وأصبح التّسابق في جمع المال سمة هذا العصر، وهذا ما حصل في رواية مقامات العُشّاق والتّجار ورواية آخر القرن.

ثانياً: الإجراءات الصّهيونيّة:

تعدّدت الإجراءات الصّهيونيّة في الأراضي الفلسطينيّة منذ احتلال عام 1967م، ولكنّ هذه الإجراءات زادت حدّتها بعد اتّفاقيّة أوسلو.

وأصبحت هناك إجراءات إسرائيليّة لم تكن معهودة قبل هذه الاتّفاقيّة، وانعكس كلّ ذلك سلباً في روايات أحمد رفيق عوض التي تتحدّث عن المرحلة التّالية لاتّفاقيّة أوسلو؛ ففي رواية آخر القرن تطرقت إلى عبثيّة المُفاوضات مع الصّهاينة؛ فهي تقوم بسياسة فرض الأمر الواقع على الأرض المُحتلّة دون الالتفات إلى المُفاوضات الجارية مع الفلسطينيين؛ وكان المُفاوض الصّهيوني يقوم بخداع المُفاوض الفلسطينيّ باستمرار عن طريق إقناعه بأنّ اتّفاقيّة أوسلو نصرٌ للعرب؛ فهذا حاييم شلومو

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، قدرون، ص 319 - 321.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 261 - 263.

يشكو في أحد الاجتماعات مع محمود السلوادي من حرارة حُزيران، ولكنه استطرد بأنه يُحبّ هذا الشهر جدًّا؛ فعلق محمود على ذلك بأنه شهر الانتصار على العرب.

ولاحظ حايم توتّر محمود السلوادي؛ فبادره بالقول بأنّ اتّفاقيّة أوسلو انتصارٌ أكيدٌ للفلسطينيين؛ فهذا الاتّفاق منحهم أرضاً من أرض الكيان الصّهيوني الكاملة، وجعل شعبهم موحدًا.

ولم يقتصر خداع المُفاوض الفلسطيني على هذا؛ فعند حديث المُفاوض الفلسطيني محمود عن مُعاناة اللاجئين من أبناء الشعب الفلسطيني يتفاجأُ بِحديث المُفاوض الصّهيوني عن مُعاناة اللاجئين من الشعب الصّهيوني (1).

ومما يؤكّد عبثيّة هذه المُفاوضات التي كان محمود السلوادي يُجريها مع الصّهاينة أنّ الكيان الصّهيوني واصل السّيّطرة على الأرض بكلّ ما أُتيت من قوّة بعد هذه الاتّفاقيّة، وضاعف من وتيرة الاستيطان، واستمرّ في مُصادرة الأراضي في المناطق المُصنّفة (ب)؛ فمحمود السلوادي أثناء وجوده في غزّة يُخبره مازن من دائرة المُفاوضات بأنّ هناك اجتماعًا عاجلاً في المنتدى لمناقشة التقرير الذي قدّمه للقيادة؛ وفي هذا الاجتماع سأل أبو يزن كبير المُفاوضين عن الأشياء التي يُريدها الكيان الصّهيوني من هذه المُفاوضات؛ فأجاب المهندس عبد الرّحمن خبير المياه بأنّ الكيان الصّهيوني يعمل الآن بقوّة وتواصل وإصرارٍ على السّيّطرة الفعلية على مُعظم مصادر المياه الفلسطينيّة وأحواضها ، وكان هذا جانبٌ من الإجراءات الصّهيونيّة على الأرض.

والدكتور شفيق قال إنّ الكيان الصّهيوني يعمل بوتيرةٍ عالية على استيطان الأراضي المُحتلّة، وكذلك يُصادر أراضي المواطنين في المناطق المُصنّفة (ب)، ويعمل كذلك على حماية المُستوطنين بشبكة الطُّرق الأنفاقية، وفي النهاية يُلقى مسؤوليّة الأمن الدّاخلي على السّلطة الوطنيّة (2).

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 14 - 15.

²- يُنظر: المصدر السابق، ص 95 - 99.

والمُفاوضات كانت وسيلةً لإلهاء الشعب الفلسطيني عن المطالبة بأرضه، وتخديره حتى يتمكن الكيان الصهيوني من التهام كامل الأرض المحتلة دون مقاومة تُذكر؛ وبذلك تكون اتفاقية أوسلو قد لعبت دوراً في استحداث بعض الإجراءات الصهيونية الهادفة لتخدير الشعب الفلسطيني كالمفاوضات؛ وهذه المفاوضات الهادفة لتخدير الشعب الفلسطيني لم نجد لها مثيلاً في رواية قدرون؛ فالجدّ عثمان عندما وضع المستوطن الزاب شليطا يده على أرضه خرج إليهم مع حفيده زياد ليشتبكا مع عمال الزاب شليطا بالأيدي، ولم يتوقف هذا الاشتباك إلا بمجيء الزاب شليطا مُطلقاً الرصاص، والذي قام بإخبارهما بحقيقة شرائه لهذه الأرض من علي الرّمحي.

والشعب الفلسطيني لم يكن مُخدرًا قبل اتفاقية أوسلو، وكان مُستعداً للدفاع عن أرضه حتى الموت بخلاف ما حصل بعد هذه الاتفاقية؛ فالشعب الفلسطيني تخدر على أوهام السلام؛ فاستغلّ الكيان الصهيوني ذلك ليُصادر مئات الدونمات.

وعبثية المفاوضات كانت من الإجراءات الصهيونية المُستحدثة بعد اتفاقية أوسلو؛ فقبل هذه الاتفاقية لم تكن هناك مفاوضات عبثية يُجريها الكيان الصهيوني مع الفلسطينيين، ويُحاول بها خداع الفلسطينيين؛ ففي رواية قدرون التي تُمثل مرحلة ما قبل اتفاقية أوسلو لم تكن هناك مفاوضات عبثية مثلما كانت في رواية آخر القرن.

وإذا كان الكيان الصهيوني قبل اتفاقية أوسلو قد قام بتشجيع الفلسطينيين على العمل داخله، وفي المُستوطنات؛ وساهمت بذلك في ازدهار الاقتصاد الفلسطيني وانتعاشه؛ فإنّ الكيان الصهيوني بعد اتفاقية أوسلو عمل على تدهور الاقتصاد الفلسطيني، وجعله اقتصاداً هزياً مُنفراً لا يُضاهي الاقتصاد الصهيوني؛ وظهر هذا في رواية بلاد البحر؛ فقد كانت ظاهرة التضخم من من الظواهر السلبية التي انتشرت منذ قدوم السلطة الوطنية؛ ولذلك كثرت القروض التي تُمنح للمواطنين؛ وهذه القروض كانت

نسبة الفائدة فيها مُرتفعة نسبياً؛ فقد بلغت نسبة الفائدة التي تفرضها البنوك العاملة في الضفّة الغربيّة والقطاع على القروض الفرديّة 13%، ومن ثمّ خفّضتها إلى 9%⁽¹⁾.

وهنا الاختلاف في روايات أحمد رفيق عوض بين التي تُمثّل مرحلة ما قبل اتّفاقيّة أوسلو، والتي تُمثّل مرحلة ما بعد هذه الاتّفاقيّة؛ فالمُجتمع الفلسطيني قبل هذه الاتّفاقيّة كان يتمتّع باقتصادٍ مُزدهر نتيجة العمل داخل الكيان الصّهيوني والمستوطنات؛ ففي رواية قدرون كان جميع فئات المُجتمع الفلسطيني يسعون للعمل داخل هذا الكيان؛ ولذلك كانوا يتسابقون في البناء كما حصل في حيّ الضّباع الذي امتلأ بالبيوت الجديدة.

وفي رواية بلاد البحر رأيتُ اقتصاداً فلسطينياً مُتدهوراً؛ فالنّضج يرتفع باستمرار، وكثيرٌ من الفلسطينيين يأخذون القروض من البنوك بفائدةٍ مُرتفعة؛ وذلك للوفاء بتسديد قيمة الشّق السكّنيّة التي يثبّون شراءها، والتي كانت تصل أسعاراً خياليّة؛ ففي رواية قدرون كان المال يجري بين أيدي الفلسطينيين، وفي رواية بلاد البحر كان كثيرٌ من الفلسطينيين يُعانون من العوز، ومن الحاجة للاقتراض؛ وذلك لشراء شقّة سكنيّة.

ومما يوكّد تدهور الاقتصاد الفلسطيني بعد اتّفاقيّة أوسلو ما ورد في رواية مقامات العُشّاق النّجار؛ فقد خرج ناصر من المُستشفى بعد إصابته بالرّصاص ليجدَ والده عاطلاً عن العمل

بسبب الإغلاق العسكري الإسرائيلي لمدينة القدس؛ فحاول استصدار تصريحٍ يسمح له بالعودة إلى عمله في مصنعٍ لتبويت، ولكنّه فشل في ذلك، وزاد من فقر عائلة ناصر أنّهم كانوا سبعة أشقاء ما بين الخامسة عشرة والثامنة والعشرين، وكان منهم شقيقان يعملان في قوّة الأمن الوطني منذ سبعة أشهر

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 99.

بدون راتب، وأما بقية أشقائه فقد امتنعوا عن الذهاب إلى القدس للعمل بسبب عدم استصدار الكيان الصهيوني التصاريح اللازمة لهم⁽¹⁾.

وكان التدهور الاقتصادي للشعب الفلسطيني بعد اتفاقية أوسلو صورةً مختلفةً للعودة الناقصة عن صور العودة الناقصة قبل هذه الاتفاقية.

وقام الكيان الصهيوني كذلك بمعاملة الفلسطينيين كالحوانات بعد اتفاقية أوسلو؛ فقد ورد في رواية بلاد البحر أن الكيان الصهيوني أصبح يُعاملُ الفلسطينيين كالحوانات؛ فالمعبر البري الذي يفصل بين قطاع غزة والكيان الصهيوني فيه بوابات كهربائية ذات أسنان وفُضبان كالتّي نراها في ماكينات ننف الطيور، وعند عبور الفلسطيني لتلك البوابات يشعر بنفسه كالدجاجة الممعوطة؛ وقد وضعت إسرائيل مثل هذه البوابات على جميع المعابر البرية في فلنديا، وعلى جسر أريحا الذي تُسمّيه معبر الكرامة.

ولم يكتفِ الكيان الصهيوني بذلك؛ بل كان يقوم بتعرية أفراد الشعب الفلسطيني ليُشاهد عوراتهم؛ فأتت امرأة حامل من قري نابلس مع زوجها بسيارة الإسعاف إلى المستشفى أثناء انتفاضة الأقصى أوقفهم دورية للاحتلال وقتلوا الزوج، وأجبروا المرأة على التعري الكامل.

وعرى جنود الاحتلال كذلك بعض الشباب في نابلس ورام الله والخليل، وأجبروا بعض المواطنين على التعري وممارسة الجنس مع البهائم، وأما إجبار الناس على البقاء في العراء تحت الشمس وتحت المطر؛ فهذا أصبح من الأمور المعتادة.

وتعود الفلسطينيون نتيجةً لذلك الادعاء أنهم مرضى دائماً ليتمكّنوا من عبور نقاط التفتيش المنتشرة في أرجاء الأراضي الفلسطينية.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشّاق والتجّار، ص 66.

ومن المخططات الصهيونية بعد اتفاقية أوسلو التي تُبرهن على إصرار الكيان الصهيوني على مُعاملة الفلسطينيين كالحوانات أنه قسّم الشعب إلى جماعتين في فلسطين، والجماعة الأولى قام باستعباد الجماعة الأخرى ومُحاصرتها شريطة أن تقوم الجماعة الأولى بإطعام الجماعة الثانية⁽¹⁾. ومُعاملة الفلسطينيين كالحوانات لم تظهر قبل اتفاقية أوسلو في رواية قدرون؛ فلم أجد صورةً للحواجز الصهيونية، أو صورةً لماكينات التفتيش.

وقد يقول قائل أنّ الكيان الصهيوني في رواية قدرون قد قام بإذلال العمال الفلسطينيين واستعبادهم أثناء ذهابهم للعمل؛ ولكن تلك المُعاملة لم تصل إلى درجة مُعاملة الفلسطينيين كالحوانات كما في روايات أحمد رفيق عوض بعد اتفاقية أوسلو.

ثالثاً: الفساد الإداري:.

من صور العودة الناقصة بعد اتفاقية أوسلو الفساد الإداري، وهذه الصورة تختلف عن صور العودة الناقصة قبل هذه الاتفاقية؛ ففي رواية قدرون التي تُمثّل مرحلة ما قبل اتفاقية أوسلو تحدّثت عن الفساد الأخلاقي الذي حلّ في المجتمع الفلسطيني بعد عودتهم من العمل داخل الكيان الصهيوني، ولكنها لم تتطرّق إلى ظاهرة الفساد الإداري؛ ففي رواية مقامات العشاق والتجار تولى أناس فاسدون زمام الأمور في المؤسسات الفلسطينية؛ فهذا هاشم أبو سليمان كان يتولّى إدارة إحدى المؤسسات الفلسطينية، وكان يعمل قبل إدارته لهذه المؤسسة في شركة الاستثمار عبر البحار، واستطاع أن يترقّى في هذه الشركة عن طريق علاقته غير المشروعة مع زوجة مدير الشركة الفرنسية.

وبعد قدوم السلطة الوطنية دعت ضرورات التنمية إلى إنشاء مؤسسات كثيرة؛ فدعمته شركة الاستثمار عبر البحار في إنشاء إحدى المؤسسات، والتي تولى إدارتها بعد فترةٍ محدودة.

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 81، ص 158.

وكان هاشم فاسداً، والمؤسسة التي تُبنى على شخصٍ فاسد لا بُدَّ أن تكون فاسدة، وهذا ما حصل؛ فالنَّعِين والعلاوات والدَّرَجَات فيها تتمَّ على أُسُسٍ شخصيَّة كالصَّدَاقَة والقَرَابَة⁽¹⁾.

وامتدَّ الفساد الإداري من المؤسسات الحكوميَّة إلى المؤسسات الأجنبيَّة؛ فرشيد مِهَبَاش عاد من الكويت فقيراً بعد مُصادرة أمواله عام 1991م؛ فتنوَّسَّط له عايدة التي تعمل في إحدى المؤسسات الأجنبيَّة لتجد له وظيفة تكفيه شرَّ التَّسَوُّل، ويصبح يعمل في تلك المؤسسة الأجنبيَّة؛ فالفساد الإداري تسرَّب إلى المؤسسات الأجنبيَّة كحال المؤسسات الحكوميَّة⁽²⁾.

والتَّعِين بالواسطة لم يكن موجوداً بهذا الرَّخْم قبل اتِّفَاقِيَّة أوْسَلُو؛ ففي رواية قدرون سعى عبد الهادي الرَّمحي إلى توظيف ابنته أُنْبَى في إحدى المدارس عن طريق العميل قاسم الرَّمحي؛ وذلك بعد أن أخذ مبلغاً من المال، ولكن بعد هذه الاتِّفَاقِيَّة كان التَّعِين بالواسطة سياسةً مُمنهجةً؛ فقد تمَّ تعيين أناسٍ لا يحملون أيَّة مؤهَّلات، وجرى تعيينهم لصلة القرابة التي تجمعهم ببعض المسؤولين..

ويتعرَّز الفساد الإداري في رواية آخر القرن؛ فمن صور هذا الفساد أنَّ الإنجاز الأهمَّ للمسؤولين الفلسطينيين ليس تحرير الأرض، أو إطلاق سراح السُّجَنَاء، وإنَّما باقْتِنَاصِ الرُّوَاتِبِ والامتيازات الماليَّة لهم ولأقاربهم؛ فقد أخبر محمود السُّلُوادي والده عبد الرَّحْمَن بأنَّ زُملاءه الذين ناضل معهم قبل ثلاثين عاماً تذكَّروه، ومنحوه رُتَبَةً عَقِيدٍ بِرَاتِبٍ رمزي.

وفي ظلِّ الفساد الإداري الذي عمَّ المؤسسات الفلسطينيَّة لم يشعر محمود بالرِّضَا لاقتِنَاصِ رَاتِبٍ لوالده، بل كان يشعُر بالحسرة لعدم توظيف شقيقه (ماجد)، وولده (أسامة)، وابنته (رهام) في السُّلْطَة الفلسطينيَّة؛ ففي إحدى جلسات العِتَابِ خاطب محمود أبا يزن كبير المُفَاوِضِينَ بأنَّه لم يستطع شراء

¹- يُنظَر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشَّاق والتَّجَار، ص 121 - 124.

²- يُنظَر: المصدر السَّابِق، 15 - 28.

بيتٍ خاصٍ به، ولم يسعَ إلى توظيف شقيقه ماجد في إحدى أجهزة السّلطة، وكما أنّ ابنَ أخيه وابنته على أبواب التّخرّج، ولم يعدّهما بوظيفة⁽¹⁾.

ولم أرَ هذا التّهافت على المناصب والأموال العامّة في مرحلة ما قبل اتّفاقيّة أوسلو في رواية قدرون، بل كان التّهافت والتّسابق على العمل داخل الكيان الصّهيوني.

ونتيجةً لهذا الفساد برزت شريحة طفيليّة تصدّرت المشهد الفلسطيني، والتي كانت تنهب كلّ شيءٍ، ومن أبرز شخصيّات هذه الشّريحة شخصيّة نهي سليمان المُمثّلة للمؤسّسة الحكوميّة التي انتقل إليها محمود السلّودي؛ فنقوم نهي بسرقة مائة ألف دولار دون أن تُحاسب، بل سافرت إلى لندن لتقوم بتأسيس شركة تعمل داخل الأراضي الفلسطينيّة، وأصبحت من الأثرياء⁽²⁾.

ومن صور الفساد الإداري أنّ التّعيين بالواسطة لم يكنُ فقط في المؤسّسات العامّة، بل طال المؤسّسات الخاصّة؛ فهذا وسيم الذي ارتبط بعلاقةٍ قويّة مع نهي سليمان - المديرّة الفعليّة للمؤسّسة التي يعمل بها محمود السلّودي - يتعيّن في هذه المؤسّسة بدون أيّة مؤهّلات نتيجة علاقته القويّة بنهي سليمان.

ولم يكن هذا التّعيين بالواسطة الحالة الوحيدة في المؤسّسات الخاصّة، بل كان هناك تعيينات أخرى أيضاً؛ فهذه سميحة رفيقة أسامة ماجد السلّودي طلبت من أسامة أن يُقدّم طلباً للتّوظيف في شركة الاستيراد والتّصدير التي تملكها نهي سليمان، وأن لا يكثرث بأمر تعيينه؛ فهو تحصيل حاصل⁽³⁾.

وهذا يدعو إلى القول بأنّ التّعيين عن طريق الواسطة في المؤسّسات الخاصّة كان مظهراً مألوفاً لدى المُجتمع الفلسطيني؛ فهذا عاصم فلاح كان قد عمل في إحدى مؤسّسات السّلطة، ولكن الراتب القليل

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 153 - 154، ص 189.

²- يُنظر: صواف، باسمه سهيل، الزّوايا الفلسطينيّة في الضّعة الغربيّة وقطاع غزّة بعد اتّفاقيّة أوسلو 1993م (رسالة ماجستير)، ص 62.

³- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 204 - 206، ص 215.

جعله يستقيل، وبيحث عن عملٍ آخر في القطاع الخاص، وتقدّم بطلبٍ وظيفةٍ إلى شركةٍ تُهيّ سليمان؛ فعينته، وجعلته عينها في الشركة، ثمّ زوجته سكرتيرة مدير عام الشركة، وهي فانتة جميلة⁽¹⁾.

والتعيين بالواسطة لم نجده في مرحلة ما قبل اتفاقية أوصلو في رواية قدرون، بل كان هذا التعيين بالواسطة ظاهراً للعيان في مرحلة ما بعد اتفاقية أوصلو في الروايات.

والفساد الإداري وُلد فساداً مالياً في المؤسسات الفلسطينية عند تأسيسها؛ فقام أبو مروان الذي يتّأس إحدى المؤسسات الفلسطينية كان يمتلك سيارة فاخرة، واشترى شقة في حيّ جميلٍ وهاديّ، وصار يُسافر كثيراً على الرغم من أنّه لا يُتقن حتّى العربية.

وهذا الفساد الإداري استقرّ أحمد مسعود بعد أن تحوّل إلى موظفٍ صغيرٍ على الرغم منة كلّ الكفاءة التي يتمتع بها؛ فكتب في كتابه (أسرار الدولة) عن كيفية انتهاء المشروع القومي إلى أحضان قاسم أبو مروان، وحفظي وزوجته⁽²⁾.

والفساد المالي الذي تشكّل من ظاهرة الفساد الإداري وصل إلى أكثر القطاعات حساسية؛ فقد وصل إلى قطاع الأجهزة الأمنية؛ فعقيد يُصبح دون سابق إنذار من كبار مُلاك الأراضي والعقارات، وشخص آخر لا يقرأ العربية يُعين مديراً لقربته مع أحد المسؤولين الكبار؛ وهذا قد جاء من الدعم الدولي الهادف لنشر الفساد الإداري⁽³⁾.

ولم تكن قيم الانتهازية والفهلوة النفعية موجودة في مرحلة ما قبل اتفاقية أوصلو في رواية قدرون، بل كانت هذه قيمٌ مُنتشرة في المجتمع الفلسطيني بعد هذه الاتفاقية؛ ولعلّ ذلك ناتج عن الخطط الأمريكية والأوروبية التي كانت على شكل برامج ومشاريع اجتماعية وإنسانية ممولةً بأموال تلك الدول.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 226 - 228.

²- يُنظر: المصدر السابق، ص 239 - 240.

³- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 239 - 240.

والفساد الإداري لا بُدَّ له أنْ يَنكشِفَ طالَ الزَّمنِ أمَ قَصُرَ؛ فقد دَوَّتْ فُضِيحَةً مُدَوِيَّةً فِي المُؤَسَّسَةِ الَّتِي يَتْرَأُسُهَا قَاسِمِ (أبو) مَروانَ، حَيْثُ كَشَفَتْ هَيْئَةَ الرِّقَابَةِ والنَّقْتِيشِ أَنَّ قَاسِمِ أَبُو مَروانَ يُعْطِي رِوَاتِبَ لِزُوجَاتِ أَعوانِهِ فِي المُؤَسَّسَةِ؛ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُنَّ شَهادَاتِ، ودُونَ المَجيءِ إِلى المُؤَسَّسَةِ؛ فَتَوَقَّعَ أَحْمَدُ مَسعودَ المَصيرِ الأَسوأَ لِقَاسِمِ (أبو) سُلَيمانَ، وَلِكنَّهُ تَفاجأَ بِحَلِّ المُشْكلَةِ دُونَ أَنْ يُعاقِبَ قَاسِمَ، ودُونَ أَنْ تُفْصَلَ تِلْكَ النِّساءَ مِنَ وِظائِفِهِنَّ⁽¹⁾.

أَسْتنتِجُ أَنَّ الفِسادَ الإداريَ فِي المُؤَسَّساتِ الفِلسْطِينِيَّةِ كانَتْ مِنْ صُورِ العُودَةِ الناقِصَةِ بَعدَ اتِّفاقِيَّةِ أوسلو، وَالَّتِي كانَتْ غَيرَ مَوجودَةٍ فِي مَرحَلَةِ ما قَبْلَ هَذِهِ الاتِّفاقِيَّةِ.

وَرِوايَاتِ أَحْمَدِ رَفيقِ عَوضَ بَعدَ اتِّفاقِيَّةِ تَطَرَّقَتْ جَميعِها إِلى ظاهِرَةِ الفِسادِ الإداريِ.

رابعًا: كُثْرَةُ الخِلافاتِ وَتَفْكَكُ المُجْتَمَعِ:

صَوَّرَتْ رِوايةَ قَدرونَ تَماسُكِ المُجْتَمَعِ الفِلسْطِينيِ فِي مَرحَلَةِ ما قَبْلَ اتِّفاقِيَّةِ أوسلو؛ فَعائِلَةُ الشَّهِيدِ صالِحِ وَالِدِ عَلِيِّ الرَّمْحيِ عَندما اسْتُشْهِدَ تَكلَّلَ العَمَّ عبدَ الهادِي بِعائِلَةِ أَخِيهِ الشَّهِيدِ، وَعَمِلَ داخِلَ الكِيانِ الصَّهْيُونيِ لِكِي يَسْتَطِيعَ الوِفاءَ بِمُنتَظَباتِ عائِلَتِهِ، وَعائِلَةُ أَخِيهِ الشَّهِيدِ، وَلَكنَ فِي مَرحَلَةِ ما بَعدَ اتِّفاقِيَّةِ أوسلو تَفْكَكُ المُجْتَمَعِ وَتَفْسَخُ؛ وَلِذاكَ كَثُرَتْ الخِلافاتُ بَينَ أَفرادِ هَذَا المُجْتَمَعِ.

وَصَوَّرَتْ رِوايةَ مَقاماتِ العُشاقِ وَالتَّجارِ تَفْكَكُ المُجْتَمَعِ؛ فَاتِّفاقِيَّةِ أوسلو أَوَجَدَتْ تَفاوُتًا طَبَقِيًّا بَينَ أَفرادِ الشَّعبِ الوَاحِدِ؛ فَهُنَاكَ أَناسٌ يَنلَقُونَ رِوَاتِبَ ضَخمَةٍ تُعادلُ أَضعافَ رِوَاتِبِ أَناسٍ آخَرينَ؛ فَالمَظْلومونَ يُلقونَ الشَّائعاتَ ضِدَّ الظَّلمَةِ المُحتَكِرِينَ لِكُلِّ شَئٍ، وَهَذَا يَظْهَرُ فِي الحادِثَةِ التَّالِيَةِ: المُوظَّفونَ داخِلَ إِحدى المُؤَسَّساتِ تَساءَلوا عَن سَببِ الخِلافِ بَينَ المَديرِ العامِّ صَفوانِ أَبُو رِزقِ، وَمُديرِ المُؤَسَّسَةِ هاشِمِ

¹ - يُنظر: عوض، أحمد رفیق، بلاد البحر، ص 247 - 248.

أبو سُليمان؛ فأطلقوا الشّائعات؛ التي كان منها: تعيين بعض الأشخاص، أو العلاقة مع الأنسة مي، أو سرقة كبيرة (1).

وفرح الموظفون في المؤسسة فرحاً شديداً لانتساع الخلاف بين الرجلين، وتوقعوا المصائر المخزية للرجلين؛ ولكنّ الخلافات انتهت بشكلٍ لا يعرفه أحدٌ من الموظّفين؛ فالمُجتمع الفلسطينيّ طوّر مع الزّمن نظاماً خاصاً لحلّ المشكلات وتطويرها بعيداً عن المحاكم ومراكز الشرطة(2).

وهذه الخلافات المتفاقمة أدت في كثيرٍ من الأحيان إلى محاولة القتل؛ فأحد الموظّفين في المؤسسة التي يُديرها هاشم أبو سُليمان يحاول قتل مُديره هاشم بعد أن تعرّض إلى ظلْمٍ شديدٍ على يديه؛ فقام بضربه على رأسه ببلطيةٍ حادة، والتي جعلته لا يتحرّك بعدها، وتبيّن فيما بعد أنّه لم يمِت، وظنّ أنّ من ضربه شقيق الأنسة مي بعد أن شاهدها معه في السيّارة، ولم يُخبر الشرطة لئلا تتفضح علاقته معها (3).

وبناءً على ما سبق تكون رواية مقامات العُشّاق والتّجار وضحت لي مدى التّفكك الاجتماعيّ والتّفسخ اللذين سادا المُجتمع الجديد المتشكّل بعد اتّفاقيّة أوسلو؛ فالحدّ والكُره والضّغينة والحسد بين أفراد المُجتمع صِفات لازمت هذا المُجتمع بعد اتّفاقيّة أوسلو، وهذه الصّفات مخالفة للتّماسك الاجتماعيّ الذي ساد في المُجتمع قبل هذه الاتّفاقيّة.

وتأكّدت هذه الخلافات الناتجة عن التّفكك الاجتماعيّ في رواية آخر القرن؛ فهذه الخلافات بين القيادات استمرت في مراكز وأماكن عدّة؛ وذلك لاتّخاذ القرارات بطريقةٍ غير مفهومة، وأنّ هذه القيادات - في معظمها - غارقة في ترتيب أمورٍها الماليّة؛ فهناك صفقات تجاريّة وخدماتيّة تُعقد باستمرار؛ فعبد الرّحمن السلّودي يتعاطب مع (أبو) يزن بعد انسحابه من إحدى جولات التّفاوض؛ فيقول له عبد

¹ - يُنظر: الخواجة، علي، جوائز الفحم، ص 109 - 110.

² - يُنظر: عوض، أحمد رفيق، مقامات العُشّاق والتّجار، ص 119 - 121.

³ - يُنظر: المصدر السّابق، ص 125 - 129.

الرّحمن أنّه مُستاء من الوضع العام؛ فهو لم يستطع شراء بيتٍ جميلٍ، ولم يوظّف شقيقه؛ وذلك في مُقابل ما فعله بعض القيادات من صفقات تجاريّة وخدماتيّة، ومُنظّمات موازية⁽¹⁾. ويُلاحظ أنّ الحقد والحسد والضّغينة صفات لم تكن موجودة في مرحلة ما قبل اتّفاقيّة أوسلو في رواية قدرون لعدم وجود الفساد الإداري والمالي في المؤسّسات الّتي تُدير المناطق الفلّسطينيّة، ولكنّها في المرحلة الّتي تلت تلك الاتّفاقيّة كانت تلك الصّفات مُنتشرة في المُجتمع الفلّسطيني.

خامساً: المشاعر السّلبيّة:

نقلت روايات أحمد رفيق عوض بعد اتّفاقيّة أوسلو بعض المشاعر السّلبيّة غير الموجودة في مرحلة ما قبل اتّفاقيّة أوسلو؛ فرواية مقامات العُشّاق والتّجار تتحدّث عن اعتزال الحياة من قبل بعض الأفراد الّذين يئسوا من تغيير هذا المُجتمع، والّذي تبدّلت قيمه إلى قيم غربيّة لا علاقة لها بالعبادات العربيّة الأصليّة، والّذي انتشر في هذه الحياة مظاهر الحياة الغربيّة؛ فعبد الرّحمن الصّوفي كان له دورٌ كبيرٌ في انتفاضة عام 1987م؛ وعندما تجيء السّلطة الوطنيّة يعمل في وظيفة حكوميّة مرموقة في إحدى مؤسّسات السّلطة، ويكتشف بعد ذلك أنّه يتعامل مع مجموعةٍ من اللصوص والانتهازيين، ويرى الموظّفين غارقين في الفساد الأخلاقي، وبعض الموظّفات لا يلبسُن إلاّ اللبس الغربي، والّذي يكتشفُ مفاتن المرأة.

ومدير عبد الرّحمن الصّوفي رفع تقريراً سرّياً يتّهمه بأنّه يدعو إلى أمورٍ وأفكارٍ يتعارض مع المصلحة العامّة، وعند ذلك لم يجد عبد الرّحمن إزاء هذا الاضطهاد سوى العزلة، والانزواء في أحد الجبال بحثاً للخلاص من هذا الواقع الفاسد، وهناك يعيش لوحده مع زوجته بعدما أخذ معه نعاجا عدّة يمتلكها؛ وذلك ليغتاش منها⁽²⁾.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 186 - 190.

²- يُنظر: العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر، ص 26 . 27.

ومن المشاعر السلبية غير الموجودة في مرحلة ما قبل اتفاقية أوسلو مشاعر البؤس؛ فبعضهم سُمح له وحده بالعودة، ومُنِع من تلك العودة زوجته وأولاده، وكانت تلك العودة بوثيقة إسرائيلية، ولا يستطيعون الحركة إلا بإذن الاحتلال، وحال الإصابة بأيّ مرضٍ يُنقلون إلى المشافي الصهيونية. وهذا ما حدث في حالة أبي يزن أحد كبار المسؤولين في دائرة المفاوضات؛ فهو وُلد في قرية المغار القريبة من عكا، وناضل في جبهاتٍ كثيرة، وتشرّد في أصقاع الدنيا، وله زوجة مغربيّة وعدّة أولاد يحملون جنسياتٍ مُختلفة، ولم تسمح لهم سلطات الاحتلال بالعودة إلى أرض الوطن؛ فأبو يزن يتحدث عن عودته البائسة عبر معبر رفح بوثيقة إسرائيلية بدون أسرته، مسلوب الإرادة والحركة، وعند مرضه لا يجد إلا المشافي الصهيونية ليعالج فيها⁽¹⁾.

ومشاعر البؤس التي أصبحت ظاهرةً للعيان تعزّزت في رواية بلاد البحر؛ فالكيان الصهيوني اتّبع سياسةً مُمنهجةً عند احتلالها للمناطق الفلسطينية؛ فهو يهتمّ بشكلٍ مُبالغ فيه بالأحياء اليهودية، وفي الوقت نفسه يُهمل الأحياء العربية، والتي أصبحت في حالةٍ مُزرية؛ فهذا أبو الفداء طار مع أحمد مسعود فوق عكا؛ فوجد المدينة تتداعى بالأرزة الضيقة والبيوت الحجرية التي يتكئ بعضها على بعض، وكانت مُهملةً ومتركةً بالجدران المنهارة وأسلاك الكهرباء والهاتف وأنابيب المياه والمجاري الظاهرة، وفي الزوايا المُهملة يتجمّع بعض شباب عكا من الفلسطينيين، وهم يُدخّنون الحشيش، أو يشتبكون مع عاهرة روسية؛ فالهزائم المتوالية صنعتُ بهؤلاء الفلسطينيين في عكا كلّ هذا الإهمال والبؤس⁽²⁾.

ومن المشاعر السلبية التي لم أجدّها في رواية قدرون إهمال المصالح العامة، والانجراف وراء المصالح الخاصة؛ ففي رواية بلاد البحر كان هناك حزب المصانعة (تُجار يُحيطون بالملك الأشرف)

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 95 . 97.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 56 - 58.

كانوا ينصحون السلطان بمهادنة الفرنجة لتظل أرباحهم الماليّة الضخمة التي يحصلون عليها من التجارة معهم.

وفي ذلك إشارة واضحة إلى وجود أمثال هؤلاء في الزمن الحالي؛ فهناك بعض التجّار القريبين من بعض المسؤولين الفلسطينيين يسعون لبقاء الاحتلال الصهيوني في سلام؛ وذلك لضمان الأرباح التي يجنونها من التجارة معهم⁽¹⁾.

وبالإضافة إلى ما تقدّم كانت الغربة داخل الأرض المحتلّة من المشاعر السلبية في هذه المرحلة؛ فهذا محمود يصف لنا أحد أحياء تل أبيب (رامات أيف . جيمل)، والذي عمل فيه قبل خمسة عشر عاماً كمساعد للجنايني اليهودي؛ فعندما عمّل في هذا المكان كان يعرف أنّ هذه الأرض محتلّة، ولكن بعد العودة إلى المكان ذاته بعد اتفافية أو سلو كمفاوض رئيس في لجنة اللاجئين المشتركة خلال حفل برتوكولي دعا إليه السفير الأمريكي لدى الكيان الصهيوني يُحاول أن يبحث عن الحديقة التي عمّل فيها قبل خمسة عشر عاماً، ولكنّه لم يتعرّف إلى المكان، وعندما نظر حوله وجد نفسه محوطاً بكثيرٍ من الشخصيات الأمريكيّة والأوروبيّة والإسرائيليّة.

ونتيجةً للشعور بالغربة في هذا الموقف همس لنفسه بأنّه الوحيد المُحتلّ بين هذا الجمع، وأنّه الوحيد الذي سيُطالب بإظهار بطاقته الشخصيّة على نقاط التفتيش⁽²⁾.

وهذه المشاعر السلبية لم أجدّها في مرحلة ما قبل اتفافية أو سلو في رواية قدرون؛ فلم تكن ظاهرة اعتزال الحياة، أو ظاهرة البؤس، أو ظاهرة إهمال المصالح العامّة، أو ظاهرة التخاذل؛ فقد كان جميع أفراد الشعب يهتمون بالأمر العامّة؛ وإذا كان هناك جرمان عند بعض الأسر نتيجةً لفقدان ربّ الأسرة؛ فإنّ الأقارب يُلزمون أنفسهم بتوفير هذا الحرمان.

¹- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، بلاد البحر، ص 41 - 42.

²- يُنظر: عوض، أحمد رفيق، آخر القرن، ص 11 - 12.

ولم تكن ظاهرة الغربة بشكلٍ واضحٍ في رواية قدرون؛ فالكيان الصهيوني لم يتمكن من الأرض الفلسطينية في مرحلة ما قبل اتفاقية أوسلو، ولكن بعد هذه الاتفاقية فرض الكيان الصهيوني وقائع كثيرة على الأرض؛ ولذلك شعر الفلسطيني بالغرابة.

أخلص إلى أنّ هناك مظاهر كثيرة متباينة للعودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض ما قبل اتفاقية أوسلو، وما بعدها؛ فتبدّل القيم لم تكن موجودة قبل اتفاقية أوسلو، وكذلك تفكّك المجتمع وبعض المشاعر السلبية للعائد من سلب الإرادة وغربة، وهذا يُدّل على سيطرة الصهاينة الكاملة على الأرض الفلسطينية بعد اتفاقية أوسلو.

الخاتمة

لقد حاولت هذه الدراسة أن تُضيء الجانب المُعتم بين النصّ الروائي ومظاهر العودة الناقصة داخل ذلك النصّ، من خلال تفكيك النصّ الروائي، وربطه بمظاهر العودة الناقصة التي استطاعت روايات أحمد رفيق عوض تكوين مادة أدبيّة مُرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالواقع الفلسطيني منذ النكبة وحتى التّاريخ المُعاصر.

وبيّن التمهيد الذي جاء بعنوان (صورة العودة الناقصة إلى الأرض المُحتلّة في الرواية العربيّة الفلسطينيّة) صورة العودة الناقصة إلى الأرض المُحتلّة في روايات (الوقائع الغريبة، عائد إلى حيفا، نهرٌ يستحمّ في البحيرة، ورأيت رام الله) فتلك الصّور كانت تحدّثت عن تهجير الفلسطينيين من بيوتهم التي تُركت فارغةً للأغراب لكي يسكنوها؛ وعن تغيير الواقع الديمغرافي في البلاد؛ ولذلك تغيّرت اللغة الدارجة بين السكّان الجدد، وتحدّثت كذلك عن عودة الفلسطيني إلى وطنه بعد الاعتراف بشرعيّة الكيان الصّهيوني الذي أحكم قبضته على البلاد، وكانت المشاعر السليبيّة لدى الفلسطيني العائد مُتضاعفة من شعورٍ بالغرابة والألم والحسرة والهزيمة والنّدم على تنفيذ هذه العودة.

وزاد الأمر سوءاً أنّ الدّولة الفلسطينيّة التي قيل كثيراً أنّها تشكّلت بعد اتّفاقيّة أوسلو كانت لا تملك من السّيادة شيئاً؛ فهي لا تستطيع أن تمنع الكيان الصّهيوني من مواصلة الاستيطان الذي كان يجري بوتيرةٍ مُتسارعة.

أمّا الفصل الأوّل الذي درس مظاهر العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض قبل اتّفاقيّة أوسلو، وما بعدها؛ فرواية قدرون تحدّثت عن عودة بعض الفلسطينيين إلى الكيان الصّهيوني خلال فترة السبعينيّات على شكل موجاتٍ من العمّال؛ فالشعب الفلسطيني تحوّل - في مُعظمه - إلى عبيد لدى الاحتلال يُهمل أرضه ووطنه ليعمل في خدمة الكيان الصّهيوني منذُ الصّباح وحتى المساء، وعن طريق هذه العودة استطاع الكيان الصّهيوني تحويل بعض هؤلاء العمّال إلى عمّلاء وسماسرة لدى

الاحتلال، وهذه العودة ساهمت في انتشار المظاهر الغربية بين هؤلاء العمّال؛ فهُم أهملوا المصالح الوطنية لصالح الاهتمام بالمصالح الخاصة، وقد أدمنوا على شرب الخمر وازتياد البارات داخل الكيان؛ ولذلك انتابهم مشاعر سلبية لا حصر لها من ذلّ وخوفٍ وقلق.

وأما بقية روايات الكاتب (مقامات العشاق والتجار، وآخر القرن، وبلاد البحر) فتحدّثت عن عودة الفلسطيني إلى وطنه بعد اتفاقية أوسلو ليجد وطنه في الأراضي المحتلة عام 1948م قد تهوّد، ونُسجت حوله الأساطير التوراتية، وكذلك يجد الاستيطان قد تصاعد، ويجد أنّ مجتمعاً جديداً قد تشكل في رام الله بعد اتفاقية أوسلو، وهذا المجتمع الجديد تغيّرت قيمه وأنماط حياته إلى المظاهر الغربية، وأصبحت الانتهازية سمة أساسية من سمات هذا المجتمع.

ومؤسسات الدولة الفلسطينية المفترضة لم تكن لها من السيادة شيء، وكان الفساد المالي والإداري والأخلاقي متفشياً في المؤسسات الفلسطينية؛ ولذلك انتاب كثير من الفلسطينيين مشاعر سلبية كثيرة من حُزنٍ وألمٍ وهزيمة وغربة، وغير ذلك.

وأما الفصل الثاني (المقارنة بين روايات أحمد رفيق عوض قبل اتفاقية أوسلو، وما بعدها) فتحدّثت عن العنوان الروائي في روايات أحمد رفيق عوض، وربطه بمضمون النصّ الروائي، وكذلك المقارنة بين روايات الكاتب قبل اتفاقية أوسلو، وما بعدها لِحصرٍ أوجه التشابه والاختلاف بين الروايات.

وأجمعت الروايات جميعاً على أنّ العودة إلى الوطن تحت راية الاحتلال سببٌ للخسارة المادية والمعنوية في شتى المجالات؛ ففي ظلّ مُعطيات الاحتلال يجد العائد نفسه مضطراً للتعاطي مع الأمن الصهيوني بشكلٍ ما؛ فقد يضطرّ للعمل في صفوف أجهزتهم الأمنية، أو العمل في مشاريعهم الزراعية أو العمرانية بطريقة تدفعه إلى الشعور بالذلّ، ويخسر حلمه الجميل بروية وطنه على الهيئة المثالية التي رُسمت في مخيلته، ويخسر كذلك بعض أفراد أسرته، وقد يخسر حياته؛ فهذه عودة ناقصة لا ينبغي لها أن تكون.

وأخيراً لا يدّعي الباحث بأنّ هذه الدّراسة قد قالتْ الكلمة الفصل فيما يُخصّص مظاهر العودة النّاقصة في روايات أحمد رفيق عوض - فالكمال لله وحده -؛ فهذه الدّراسة لا تعدو أن تكون محاولة من الباحث لتكوّن علامة فارقة وليست إضافة عابرة في كلّ ما كتبت عن روايات الكاتب.

وتبقى بعض القضايا التي لم تستطع الدّراسة الخوض فيها، والتي يدعو الباحث كافة المهتمين بالبحث الرّوائي إلى متابعتها، كالقضايا الآتية:

1. التّناسّ، حيث شكّل ظاهرة مُستقلّة في روايات أحمد رفيق عوض؛ لذا يوصي الباحث بإجراء دراسة مُستقلّة عن التّناسّ في روايات أحمد رفيق عوض.
2. تقنيات السرد في الخطاب الرّوائي لروايات أحمد رفيق عوض؛ لذا يوصي الباحث بإجراء دراسة مُستقلّة عن تقنيات السرد في روايات أحمد رفيق عوض.
3. مظاهر العودة النّاقصة لدى كثير من الرّوائيين الفلسطينيين؛ ولذا يوصي الباحث بإجراء دراسات مُستقلّة عن مظاهر العودة النّاقصة في روايات كثير من الكُتاب الفلسطينيين؛ فجميع ما كتب لم يتطرّق بصورة وافية إلى مظاهر العودة النّاقصة عند كثير من الكُتاب، والله أعلم.

قائمة المصادر والمراجع والدوريات والرسائل الجامعية:

أولاً: المصادر:

- 1 - بردي، يوسف بن تغري الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 8، المؤسسة المصرية العامة.
- 2 - البرغوثي، مُريد، رأيت رام الله، تقديم إدوارد سعيد، ط 4، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2011م.
- 3 - حبيبي، إميل، الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المُنشأ، ط3، القدس: منشورات دار صلاح الدين، 1977م.
- 4 - عوض، أحمد رفيق:
- أ / آخر القرن، القدس: اتحاد الكتاب الفلسطينيين، طبعة 1999م.
- ب / بلاد البحر، ط 1، رام الله: الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين . دار الماجد، 2006م.
- ج / حوار مع إسرائيلي، تقديم راضي الجراعي، ط1، القدس: منشورات دار الكاتب، 1992م.
- د / قدرون، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، طبعة سنة 1999م.
- هـ / مقامات العشاق والتجار، ط1، نابلس: دار الفاروق للثقافة والنشر، 1999م.
- 5 - أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، تقديم الدكتور حسين مؤنس، وتحقيق الدكتور محمد زينهم عزب والأستاذ يحيى سيد حسين، ج 4، ط1، دار المعارف . ذخائر العرب.
- 6 - كنفاني، غسان، عائد إلى حيفا، بيروت: مؤسسة غسان كنفاني الثقافية، طبعة 2015م.
- 7 - ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري الخزرجي الأفريقي، لسان العرب من (1 . 20)، بيروت: دار صادر، طبعة 1431هـ . 2010م.

8 - يخلف، يحيى، نهر يستحم في البحيرة، الإصدار الأول، رام الله: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1997م.

ثانياً: المراجع:

1- إبراهيم، عبد الله:

أ/ السردية العربية الحديثة: تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، ج 1، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013م.

ب/ لسردية العربية الحديثة: الأبنية السردية والدلالية، ج 2، ط 1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2013م.

ج/ الكتابة والمنفى، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والأردن: دار الفارس، 2012م.
2 - الأسطة، عادل:

أ/ أدب المقاومة: من نقاؤل البدايات إلى خيبة النهايات، ط1، رام الله: مطبوعات وزارة الثقافة، 1999م.

ب/ دراسات نقدية (غسان كنفاني، سميح القاسم، معين بسيسو...)، ط 1، المثلث في فلسطين: اليسار الفلسطيني، 1987م.

3 - أشهبون، عبد المالك، زوايا ظليلية في روايات نجيب محفوظ، ط1، عمان: مؤسسة الزواق للنشر والتوزيع، 2011م.

4 - أبو إصبع، صالح خليل:

أ/ الرواية الفلسطينية والمنفى: الجزيرة العربية مكاناً؛ دراسة في التجربة الروائية الفلسطينية، ط1، أبو ظبي: اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات، 2001م.

ب/ فلسطين بين تحدّي الوجود وثقافة التّحدّي: مُطالعات في أدب المُقاومة وثقافتها، ط1، عمّان: دار البركة للنّشر والتّوزيع، 2010م.

5 - أيّوب، محمّد:

أ / الزّمن والسرد القصصي في الرّواية الفلسطينيّة المُعاصرة، ط1، مصر: دار سنّباد للنّشر والتّوزيع، 2001م.

ب/ الشّخصيّة في الرّواية الفلسطينيّة المُعاصرة في الصّفّة الغربيّة وقطاع غزّة بين 1967م - 1993م، طبعة 1416هـ / 1996م.

6- بدير، فاطمة بريّ، حديث الذّكريات، ط1، بيروت: الدّار العربيّة للعلوم، 1425هـ - 2004م.

7 - بكّار، يوسف، النّقد الأدبي داخل فلسطين 48 في نصف قرن (1948م - 1998م)، طبعة جديدة، كفر قرع: دار الهدى للطّباعة والنّشر، 2007م.

8 - أبو بكر، وليد، نحو دراسة تأصيليّة للرّواية الفلسطينيّة المُعاصرة، ط1، البيرة: منشور مركز أوغاريت للنّشر والترجمة، 2000م.

9 - بلعابد، عبد الحقّ، فتوحات روائية: قراءة جديدة لمُنجز روائي عربي مُتجدّد، ط1، بيروت: دار الرّوافد الثّقافيّة ووهران في الجزائر - دار ابن النّديم للنّشر والتّوزيع، 2015م.

10 - البوجي، محمّد بكر، صراع الثّقافات في الرّواية العربيّة في فلسطين و(شهادات أدبيّة)، غزّة: مطبعة القدّس، طبعة 2012م.

11- النّميمي، سمير شحادة، دراسات نقدية في القصّة الفلسطينيّة القصيرة، ط1، القدس: اتّحاد الكُتاب الفلسطينيّين في الصّفّة والقِطاع، 1990م.

12 - جبر، يحيى، الأعلام الجغرافيّة الفلسطينيّة بين الطّمس والتّحريف، ط1، رام الله: منشورات وزارة الأعلام الفلسطينيّة، 1996م.

- 13- الجواريش، عدنان عُثمان، حركة التّجريب في الرّواية الفلّسطينيّة من السّتينات حتّى عام 1995م، ط1، رام الله: دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، 2003م.
- 14- جوهر، إبراهيم، مرايا الأرقام في مدينة السّلام، ط1، القدس: دار الجندي للنّشر والتّوزيع، 2015م.
- 15- الجبوسي، سلمى الخضراء، موسوعة الأدب الفلّسطيني المعاصر، ط1، بيروت: المؤسّسة العربيّة- عمّان: دار الفارس، 1997م.
- 16- حجازي، أحمد عبد المُعطي، قال الرّاوي: تأملات في فنّ الرّواية، مصر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1997م.
- 17 - حطّيني، يوسف، مُكوّنات السّرد في الرّواية الفلّسطينيّة (دراسة)، من منشورات اتّحاد الكتاب العرب، طبعة 1999م.
- 18 - الخطيب، جُهينة عمر، تطوّر الرّواية العربيّة في فلسطين 48 من (1948م - 2012م)، ط2، بيروت: المؤسّسة العربيّة، 2012م.
- 19 - خواجه، علي حسين:
- أ/ جوائز الفحم: دراسات في روايات أحمد رفيق عوض، تقديم المُتوكّل طه، المؤسّسة الفلّسطينيّة للإرشاد القومي، 2003م.
- ب/ عين السّارد: قراءات في أعمال أحمد رفيق عوض، رام الله: دار الماجد للطّباعة والنّشر، 2000م.
- ج/ في استنطاق الرّواية الفلّسطينيّة المعاصرة: انتفاضة الأقصى نموذجاً (دراسة)، ط1، رام الله: منشورات مركز أوغاريت التّقافي، 2009م.
- د/ قراءات أدبيّة، ط1، القدس: دار الجندي للنّشر والتّوزيع، 2013م.

- و/ مقاربات نقدية: دراسات في روايات أحمد رفيق عوض، ط1، البيرة - فلسطين: دار الماجد للنشر والتوزيع، 2004م.
- 20- دكروب، محمد، وجوه لا تموت في الثقافة العربية الحديثة، ط1، بيروت: دار الفارابي، 1999م.
- 21- الديك، نادي ساري، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية (دراسة تحليلية نقدية)، ج1، ط1، عكا: مؤسسة الأسوار، 2001م.
- 22- راضي، صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ط5، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003م.
- 23- زعرب، صبحية عودة، غسان كنفاني: جماليات السرد في الخطاب الروائي، ط1، عمان: دار مجدلاوي، 2006م.
- 24 - سالم، السيد عبد العزيز وآخر (سحر السيد عبد العزيز)، تاريخ الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 2004م.
- 25- السعافين، إبراهيم، الرواة على بيد الحكمة: القصة القصيرة في فلسطين والأردن من 1950م - 2000م، ط1، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- 26- السلحوت، جميل، يبوس، ط1، القدس: منشورات المسرح الوطني الفلسطيني، 1997م.
- 27- شراب، محمد حسن، معجم أسماء المدن والقرى الفلسطينية، وتفسير معانيها ومدلولاتها السياسية والحضارية، ط1، عمان: المطبعة العربية الأولى، 2000م.
- 28- شريف، سحر حسين، دراسات نقدية في الرواية العربية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- 29- شلحت، انطوان، في معنى الدولة اليهودية، مركز مدار (المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية)، 2011م.

30- الشّحادة، يوسف محمّد نيباب، الرّواية الفلّسطينيّة في الضّفّة وقِطاع غزّة، ط1، رام الله: الهيئة العامّة الفلّسطينيّة للكتاب، 2009م.

31- صالح، فخري:

أ/ أرض الاحتمالات: من النّصّ المغلق إلى النّصّ المفتوح في السرد العربيّ المعاصر، ط1، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، 1988م.

ب/ القِصّة الفلّسطينيّة في الأراضى المُحتلّة، ط1، بيروت: دار العودة، 1982م.

32- الصّالح، نضال، نشيد الزّيتون: قضية الأرض في الرّواية الفلّسطينيّة، دمشق: من منشورات اتّحاد الكُتاب العرب، 2004م.

33 - طه، المتوكّل، وهم الوصول، ط1، رام الله: المركز الفلّسطيني للدراسات والنّشر والإعلام، 2015م.

34 - طويل، ريموندا حوّا، باقة ورد إلى نُخبة من الإعلام ممّن صنعوا التّاريخ، ط1، القدس: دار الجندي للنّشر والتّوزيع، 2014م.

35- عاشور، رضوى، الطّريق إلى الخيمة الأخرى: دراسة في أعمال غسان كنفاني، ط1، عكا: الأسوار للطّباعة والنّشر، 1977م.

36 - عبد الغني، مُصطفى:

أ / الاتّجاه القومي في الرّواية العربيّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1998م.

ب / في نقد الذات للرّواية الفلّسطينيّة، ط1، القاهرة: دار السّينما للنّشر، 1994م.

37 - عبد الهادي، فيحاء قاسم، نماذج المرأة / البطل في الرّواية الفلّسطينيّة، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1997م.

- 38 - عبيد، محمّد صابر، المُغامرة الجماليّة للنّصّ الرّوائي، ط1، إريد: عالم الكُتب الحديث، 2010م.
- 39 - العبيدي، جميلة عبد الهادي، عتبات الكِتابة القصصيّة: دراسة في بلاغة التّشكيل والتّدليل، ط1، دِمشق: مطبعة تمّوزة، 2012م.
- 40 - علّوش، سعيد، عُنف المُتخيّل الرّوائي في أعمال إميل حبيبي، بيروت: مركز الإنماء القومي.
- 41 - عيد، حسين، قضية فلسطين والأدب: يحيى يخلف نموذجاً، ط1، عكا: دار الأسوار، 2010م.
- 42 - العيلة، زكي، صورة الذات وصورة الآخر في الرّواية الفلسطينيّة في الأرض المحتلّة بعد عام 1967م، ط1، رام الله: دار الماجد، 2007م.
- 43 - الغزّاوي، عزّت، تأملات نقدية في نماذج من الأدب الفلسطيني المعاصر (دراسة مجموعة من النّقاد والكُتاب)، ط1، رام الله: منشورات مركز أوجاريت الثقافي للنّشر والترجمة، 2001م.
- 44 - القسراوي، مها حسن، الزّمن في الرّواية العربيّة، ط1، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، 2004م.
- 45 - كاصد، سلمان، عالم النّصّ: دراسة بنيويّة في الأساليب السردية، إريد: دار الكندي للنّشر والتّوزيع، 2003م.
- 46 - كبا، مصطفى، نحو صياغة رواية تاريخيّة للنّكبة: إشكاليّات وتحديات، حيفا: مدى الكرمل - المركز العربي للدراسات الاجتماعيّة التّطبيقية، 2006م.
- 47 - كناعنة، شريف، الشّتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير، ط1، القدس: مركز القدس العالمي للدراسات الفلسطينيّة، 1992م.
- 48 - كنفاني، غسان، في الأدب الصّهيوني، ط3، لبنان: مؤسّسة الأبحاث العربيّة ش. م. م، 1987م.

49- محجز، خضر، إميل حبيبي: الوهم والحقيقة، ط1، سوريا: مطبعة قدمش للنشر والتوزيع، 1982م.

50- مرزوق، محمد عبد العزيز، الناصر محمد بن قلاوون، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، أعلام العرب 28.

51- مزعل، غانم، الشخصية العربية (2) في الأدب العبري الحديث، ط1، دار الجليل للنشر والدراسات، 1986م.

52- المناصرة، حسين، فردوس الأرض المغتصبة: دراسات في الرواية الفلسطينية، ط1، بيروت: دار الفارابي، 2013م.

53 - أ. أ. مندلاو، الزمن والرواية، ترجمة بكر عباس، مراجعة إحسان عباس، ط1، بيروت: دار صادر، 1997م.

54- موسى، شمس الدين، مراجعات ومُتابعات في الرواية والقصة الفلسطينية، رام الله: مطبوعات وزارة الثقافة.

55 - وادي، فاروق، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية (غسان كنفاني، إميل حبيبي، جبرا إبراهيم جبرا)، ط2، عكا: الأسوار للطباعة والنشر، 1985م.

56 - ولسون، كولن، فن الرواية، ترجمة محمد درويش، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008م.

ثالثاً: الدوريات:

1 - البرغوثي، مُريد:

أ / أجملنا وأولنا هو أجملنا وأولنا (لا تُريد لهذه القصيدة أن تنتهي)، مجلة الكرمل الجديد، عمّان، العدد

3 / 4، ربيع - صيف 2012م، ص 73 - 76.

ب/ الراحل إدوارد سعيد: الذي لم تتمكّن من أن نكون سيجاباً متيناً لحديقة حياته، مجلة الزاوية: رام الله، العدد 5 / 6، ربيع - صيف 2004م، ص 102 - 103.

ج/ القصيدة لا تقتلُ أحداً ولكنها تُشكّل وجدان الجماهير، مجلة الفجر الأدبي، العدد 39، السنة الرابعة، كانون أول 1983م، ص 78 - 80.

د/ لغة الجنرالات القاتلة، مجلة الكتب: مصر، العدد 51، إبريل سنة 2003م، السنة الخامسة، ص 33 - 35.

2 - حافظ، صبري، في الذاكرة: إميل حبيبي، مجلة مشارف: حيفا، العدد 16، صيف 2002م، ص 110 - 133.

3 - سعادة، مازن، رواية قدرون: (بين حبكة النصّ، ورسم الشخصيات، وطريقة السرد)، مجلة الكلمة: القدس، العدد 3، آب 1996م، ص 213 - 214.

4- عوض، أحمد رفيق، عن المحسوم والمقسوم، مجلة مشارف: حيفا، العدد 17، صيف 2002م، ص 36.

5- كامل، رياض، لحظة المواجهة - انكسار المرأة، مجلة الأسوار: عكا، العدد 17، سنة 1997م، ص 212 - 215، ص 217 - 218.

6- مشاركة، تيسير، غربة المنقّف الفلسطيني: حوار مع الكاتب والأديب الفلسطيني يحيى يخلف حول الثقافة والسياسة، مجلة الزاوية: رام الله، العدد 1، صيف 2002م، ص 78 - 89.

7- مفرّح، سعديّة، مُريد البرغوثي شاعر النّيه والمنافي: وجع الذاكرة، ط1، مجلة العربي: الكويت، العدد 79، 15 يناير 2010م، ص 158.

رابعاً: الرسائل الجامعية:

- 1 - جودي، محمد، شعريّة الشّخصيّة والمكان الرّوائي في رواية (عائد إلى حيفا) لغسان كنفاني: من البنية إلى الدّلالة، رسالة ماجستير، الجزائر، جامعة الجزائر (2)، 2011م / 2012م.
- 2 - خروف، سماح، الاغتراب في رواية كزّاف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلح، رسالة ماجستير، الجزائر، جامعة باتنة الحاجّ لخضر، 2011م / 2012م - 1432هـ / 1433هـ.
- 3 - ذياب، يوسف محمد، الرّواية الفلسطينيّة في الضّفّة الغربيّة وقِطاع غزّة من 1967م - 1993م، رسالة ماجستير، نابلس، جامعة النّجاح الوطنيّة، 1421هـ / 2000م.
- 4 - السّلمان، سمات سالم خليل، يحيى يخلف: دراسة في فنّه القصّصي، رسالة ماجستير، نابلس، جامعة النّجاح، 1421هـ - 2000م.
- 5 - الصّليبي، حسين مُحمّد حسين، الرّواية الفلسطينيّة وتجليّاتها الفنّيّة والموضوعيّة في الأرض المُحتلّة بعد اتّفاقيّة أوسلو (1993م)، رسالة ماجستير، غزّة، الجامعة الإسلاميّة، 1429هـ / 2008م.
- 6 - صوّاف، باسمة سهيل صالح، الرّواية الفلسطينيّة في الضّفّة الغربيّة وقِطاع غزّة بعد اتّفاقيّة أوسلو: دراسة موضوعيّة فنّيّة (1993م . 2000م)، رسالة ماجستير، القدس، جامعة القدس، 1430هـ - 2009م.
- 7 - عدوان، سعد عودة حسين، الشّخصيّة في أعمال أحمد رفيق عوض الرّوائيّة: دراسة في ضوء المناهج النّقديّة، رسالة ماجستير، غزّة، الجامعة الإسلاميّة، 1435هـ - 2014م.
- 8 - العُصيمي، هيفاء حامد سند، القضيّة الفلسطينيّة بين الرّوائتين العربيّة والإنجليزيّة المُعاصرة: دراسة مُقارنة، رسالة ماجستير، مكّة، جامعة أمّ القُرى، 1434هـ - 2013م.
- 9 - قُطوسة، حسن ماجد، توظيف التّاريخ في روايات أحمد رفيق عوض، رسالة ماجستير، القدس، جامعة القدس، 1434هـ / 2013م.

المُحتويات

إقرار.....	أ
شكر وتقدير.....	ب
المُلخّص بالعربية.....	ج
الملخص بالانجليزية.....	هـ
المُقدّمة.....	1
تمهيد:.....	5
صور العودة الناقصة إلى الأرض المُحتلّة ومظاهرها في الرواية العربيّة الفلسطينيّة:.....	5
المبحث الأوّل: التّعريف بالكاتب.....	18
المبحث الثاني: صور العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض قبل اتّفاقيّة أوسلو.....	29
المبحث الثالث: صور العودة الناقصة في روايات أحمد رفيق عوض بعد اتّفاقيّة أوسلو:.....	58
الفصل الثّاني: مُقارنة صور العودة الناقصة للأراضي الفلسطينيّة قبل اتّفاقيّة أوسلو، وبين ما بعدها في روايات أحمد رفيق عوض.....	146
المبحث الأوّل: العنّوان الروائي:.....	147
المبحث الثّاني: أوّجُه التشابه بين صور العودَة الناقصة في الروايات:.....	168
المبحث الثّاني: أوّجُه التشابه بين صور العودَة الناقصة في الروايات:.....	169
المبحث الثالث: مظاهر التّبّايين في صور العودة الناقصة في الروايات:.....	191
المبحث الثالث: مظاهر التّبّايين في صور العودة الناقصة في الروايات:.....	192
الخاتمة.....	212
قائمة المصادر والمراجع والدوريات والرّسائل الجامعيّة:.....	214
المُحتويات.....	225

